عروبة البربر

تاريخ ودلائل إنتقال البربر من اليمن إلى بلاد المغرب
والجذور العربية اليمنية لقبائل البربر



تأليف
محمد حسين الفرح

إصدارات
تريم
عاصمة
الثقافة
الإسلامية
2010م



نبذة عن المؤلف:



محمد حسين الفرح (١٩٥٤-٢٠٠٥م) هو "محمد بن حسين بن محمد بن قائد بن سعد بن محسن بن محمد بن محمد بن محسن بن عبد الله بن حسين بن أحمد بن علي الفرح".

محمد حسين الفرح من آل الفرح بقرية الأحلب منطقة عمار بمحافظة إب. أنهى دراسته الثانوية بصنعاء عام ١٩٧٦م وتخرج من جامعة صنعاء كلية الشريعة والقانون بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف في مايو ١٩٨١م. تولى منصب مدير عام التعاونيات والجمعيات بوزارة الشؤون الاجتماعية والعمل من عام ١٩٧٧- ١٩٨٦م، ثم مدير عام الوحدات الإدارية والعمل الشعبي برئاسة الوزراء إلى عام ١٩٩٣م ورئاسة الفريق الفني باللجنة العليا للانتخابات عام ٩٢-٩٣م وعام ١٩٩٧م. ثم عين (مستشاراً للجنة العليا للانتخابات بدرجة وزير) بموجب القرار الجمهوري رقم ٢٨٣ في ١٩٩٩/٨/٨م.

حصل على وسام التعاون من رئيس الجمهورية العربية اليمنية في ١٩٧٩/١/٢٥م وحصل على وسام المؤرخ العربي من (اتحاد المؤرخين العرب) في ٢٣/فبراير/١٩٨٧م. قام بنشر الكثير من المقالات والدراسات الأدبية والتاريخية في الصحف والمجلات اليمنية والعربية منذ عام ١٩٨١م.

عروبة البربر

تاريخ ودلائل انتقال البربر من اليمن إلى بلاد المغرب
والجذور العربيّة اليمنيّة لقبائل البربر

تأليف

محمّد حسين الفرح



١٤٣١ هـ - 2010 م

رقم الإيداع بدار الكتب بصنعاء

(٢٠٠٤/٥٣٨)

الناشر

الجمهورية اليمنية

وزارة الثقافة

صنعاء ص.ب. (36) – (237)

هاتف: 384532 – فاكس: 384533

بريد ألكتروني: moc@y.net.ye

"الكِتابُ ذاكِرةُ الشُعوبِ"، وَأوّلُ مَبدأٍ في ثقافتِنا الإسلاميّة هُوَ "اقرأ"

وَلأنّ "تريم" كانتْ على الدوام المنارة الإسلاميّة التي أهدَتْ أنوار مَعارفها إلى العَالم، كَان لابُدّ لِلكِتابُ أنْ يكون في صَدارة عُرسِهَا الثقافي في عَام تتويجها عَاصِمَةً لِلثقافَة الإسلاميَّة ٢٠١٠م؛ إيمَاناً مِنّا بِدَورِ الكَلِمَة في خَلقِ آفاق جَديدَة لِلتواصُلِ وَالحِوارِ مِنْ أجْلِ أنْ يَكونَ عالمنَا أكْثرَ بهَاءً وَإشراقاً، وَلتكونَ هَذهِ الإصْدارات نَافِذَة العَالَم عَلى مَهدِ الحَضاراتِ "اليمن"، وَعِرفَاناً بِفَضْلِ مَدينَة زَيّنَتْ الثقافَة الإسلاميّة بِأبهَى حُللهَا.

د. محمد أبو بكر المفلحي
وزير الثقافة

مقدمة المؤلف

إن معرفة أصل وجذور البربر ببلاد المغرب العربي هو من القضايا المعرفية والتاريخية الهامة التي تناولها العديد من المؤرخين والدارسين. فهي ليست قضية جديدة من حيث المبدأ، ولكن الأهداف من وراء طرحها لم تَعُدْ تاريخية ومعرفية وإنما تحولت عند البعض إلى أهداف إستعمارية تتستر بالعلم للتفريق بين الأمة الواحدة وللنيل من وحدة الشعب في بلاد المغرب العربي، أو تتخذ من (النزعة البربرية) أداة لمعاداة العرب والعروبة ووسيلة للانفصال والانفصالية، بينما (النزعة البربرية) يمكن أن تكون من عوامل وحدة الشعب وترسيخ وتحصين وحدة وعروبة بلاد المغرب في ظل المعرفة التاريخية السليمة بواحدية أصل وجذور البربر والعرب وإن البربر إنما هم عرب قُدامى انتقلوا من اليمن إلى بلاد المغرب في العصور الحضارية التليدة.

إن النظريات الرئيسية عن أصل وجذور البربر تتمثل في خمس نظريات، اثنتان منها تاريخية معرفية وهي (الأمازيغية الكنعانية) و(الحميرية اليمنية)، وثلاث منها ذات أهداف إستعمارية وانفصالية وهي نظريات (الأصل الأوروبي) و(الجنس المتوسطي) و(الأصل الحامي).

تزعم نظرية الأصل الأوروبي: إن البربر من أصل هند أوروبي، أي من الجماعات التي قَدِمت من الهند ومرّت بالقوقاز ثم انتشرت في اليونان ومناطق من أوروبا فاتَّجهَ فريق منها عبر إسبانيا إلى شمال أفريقية واستقروا بها. وإن من الدلائل على ذلك إن قبائل (الكيماريين) بفينلاندة والسويد تشبه في الاسم قبيلة خمير في تونس وقبيلة بني عمارة في المغرب ـ كما قال Rinn louis عام ١٨٨٩م وقد أورد عدة أسماء متقاربة أيضاً ـ. ومنهم من يقول بالأصل الأوروبي للبربر ولكن لا يعمّمه على جميع البربر وإنما يُقْصِرُهُ على مجموعة بربرية ذات شعر أشقر وعيون زرق، فيجعلونها مرة من نسل الغاليين (Goulois) الإفرنجة أو الجرمانيين وإنهم قدموا مع الروم أو الوندال إلى شمال أفريقية. وقد روّج الفرنسيون بالخصوص في النصف الثاني من القرن التاسع عشر نظرية الأصل الأوروبي للبربر حيث كانت السلطات الاستعمارية ترى ـ وكما ذكره Rom lando ـ «أن الدّمج ليس في الوسع

نجاحه إلّا إذا كان للبربر مع الأوروبيين أصل مشترك مهما كان قديماً» ويتبين من ذلك أن نظرية الأصل الأوروبي للبربر هي ذات أهداف إستعمارية، والأهم من ذلك أنها ليست ذات تاريخ فلم يذكر أحد من المؤرخين الأوروبيين القدماء أن البربر هاجروا من أوروبا، ولم يذكر أحد من مُؤرِّخي ونسَّابة البربر مثل ذلك الزعم، فجميع مُؤرِّخي ونسَّابة البربر يذكرون بأنهم إما من (أمازيغ بن كنعان) وإما من (قبائل حميرية يمانية). ولا علاقة لقبيلة خمير وبني عمارة بقبائل (الكيماريين) فقبيلة عمارة بطن من بطون قبيلة مصمودة كما ذكر ابن خلدون، وقبيلة خمير عشيرة بربرية واسمها ـ واسم عمارة ـ اسم عربي، وكذلك فإن الاستناد إلى وجود جماعة بربرية ذات شعر أشقر وعيون زرق للقول بأنهم من نسل الغاليين (Goulois) لا يستند إلى تاريخ، فقد يكون لون الشعر والعيون من تأثير المصاهرة فقد سبى المسلمون في الفتوحات الكثير من القوط والغاليات واتخذوهن جواري وزوجات ولذلك تأثير في الأبناء وغنيٌّ عن البيان أن القول بالأصل الأوروبي لذوي الشعر الأشقر والعيون الزرق من البربر فقط هو اعتراف بأن الغالبية العظمى من قبائل البربر ليسوا من أصل أوروبي، وذلك يدل على عدم صحة نظرية الأصل الأوروبي للبربر من جهة ويعزز عروبة البربر من جهة أخرى.

أما (نظرية الجنس المتوسطي) فتقول: (أن البربر من جنس البحر الأبيض المتوسط وينتمون إلى سلالة البحر المتوسط) ويكفي لإدراك عدم صحة ذلك أن مقولة (الجنس المتوسطي) لا تستند إلى أُسس تاريخية علمية فليس في التاريخ (جنس متوسطي) وإنما المتوسط بحر، فلا يوجد شيء اسمه (جنس البحر الأحمر) ولا (جنس البحر الأسود) وكذلك لا وجود لجنس وسلالة البحر الأبيض المتوسط. ثم إن غالبية البلدان والشعوب العربية هي في شرق وجنوب المتوسط (وهي الشام ومصر وبلاد المغرب) فشرق المتوسط وجنوبه عربي وبلدانه عربية.

وقد لاحظ الأستاذ محمد العرباوي: «أنّ مقولة (الجنس المتوسطي) حاولت في جانبها الثقافي الاستعماري أن تربط بين شرقي المتوسط وجنوبه وأوروبا.. ومن يتصفح التصانيف الكثيرة سيجدها تُكثر من استعمال هذه المصطلحات: الشرق الأدنى، آسيا الغربية، آسيا الجنوبية، شرق البحر المتوسط، منطقة الهلال الخصيب، أما الجزيرة العربية والبلاد العربية فلا تردان إلا لماماً وليس هذا من باب الصدفة والأمر العفوي وإنما هو شيء متعمد لإبعاد كلمة (عربي) وللحيلولة دون إشاعتها في حقول المعرفة والثقافة والأبحاث المتنوعة». اهـ.

أما (نظرية الأصل الحامي) فتقول: (إن البربر من أصل حامي) ويرى محمد

العرباوي: «إن المدرسة الاستعمارية عندما أدركت أن نظرية الأصل الأوروبي محكوم عليها بالفشل، وإنها محتاجة إلى نظرية تناسب أغراضها وتكون مرتكزة ـ كما هو في الظاهر ـ على أساس علمي يسهّل ترويجها، اتخذت (مقولة الحامية) التي وقع إطلاقها منذ بداية هذا القرن على مجموعة من الشعوب الإفريقية وأعلنت أن البربر من أصل (حامي) وأشاعت ذلك على نطاق واسع، وهي وإن اعترفت هنا بأن البربر ليسوا من أصل أوروبي جنساً ولغة، فإن لجوءها إلى النظرية الحامية وبصور مختلفة يعكس رغبتها في إثبات أن البربر لا صلة لهم بالعرب ولا يرتبطون معهم بأي أصل». اهـ.

والواقع أن مقولة (الجنس الحامي) وقبائل (حام) أو (بني حام) هي مقولة قديمة موجودة في التوراة وفي كتب التراث العربية حيث قبائل الجزيرة العربية والعراق والشام ساميون (من بني سام بن نوح) بينما تم نسبة سكان قارة أفريقية إلى (حام بن نوح) والقول بأنهم (بنو حام) والمقصود بذلك وبصفة أساسية (الزنوج والسُود بصفة عامة) فمصطلح الحاميين والجنس الحامي يُرادف السُود الزنوج والجنس الأسود. وقد زعمت التوراة أن الكنعانيين والمصريين من الجنس الحامي بينما تؤكد الحقائق التاريخية والأنتروبولوجية واللغوية عدم صحة ذلك، فلم يكن المصريون الفراعنة والكنعانيون سوداً زنوجاً ولا من الجنس الحامي. وبما أن البربر ليسوا سُوداً ولا زنوجاً فإن نظرية الأصل الحامي الأسود للبربر تفتقر إلى الصواب. ولذلك فإن نظرية الجنس الحامي التي ظهرت في أوائل القرن العشرين لم ترتكز على أن الحاميين هم السود الزنوج فقط وإنما تقول هذه النظرية التي بعثها (س. ماينهوف) الألماني في كتاب له صدر سنة ١٩١٢م «تقول بوجود عرق حامي قَدِم من الجزيرة العربية واستقر بالسودان وأماكن أخرى، يتكلم لغات متباينة ذات سمات مشتركة، سمَّاها (ماينهوف) وبعض الدارسين من بعده (الحامية). وقد وضع (م. دولافوس) الفرنسي عام ١٩٢٣م تصنيفاً في اللغات الإفريقية، ومنها الحامية التي تشمل في نظره: البربرية والمصرية والكوشية». ـ وبالتالي البربر وقدماء المصريين الفراعنة وقبائل كوش بن حام الذين هم فريق من سكان الصومال والحبشة والسودان القدماء، وبما أن تلك النظرية كما صاغها (ماينهوف) تقول بأن ذلك العرق الحامي جاء من الجزيرة العربية فهي تتضمن تسليماً وإقراراً بأن البربر هم في الأصل من الجزيرة العربية وليسوا من الجنس الحامي الأسود، وبما أن الحاميين في المفهوم التوراتي والتراثي هم الجنس الأسود الزنجي فإن البربر ليسوا من الحاميين وأما فكرة (اللغة الحامية) فإنها تفتقر إلى الأسس العلمية فاللغة البربرية

إنما هي من اللغات السامية العربية القديمة وقد استند العالم الألماني روسلر .o) (Rossler) إلى حقائق علمية قال: «إن مجرد التفكير في إرجاع السامية والبربرية إلى أصلين مختلفين غير معقول». وننتهي من ذلك إلى أن نظرية الأصل الحامي الأسود للبربر هي مثل نظرية الأصل الأوروبي والجنس المتوسطي لا تستند إلى تأريخ ولا تهدف إلى معرفة، وقد تعاملت تلك النظريات والطروحات مع البربر كقبائل بدون تاريخ، تجهل تاريخها وأصولها وأنسابها، بينما تاريخهم وأصولهم وأنسابهم معروفة متواترة في كتب التاريخ وعند العلماء من المؤرخين والنسابين العرب والبربر عبر الأزمنة والعصور.

إن هذا الكتاب عن (عروبة البربر) ليس نظرية مستحدثة مثل النظريات والنزعات المعادية وإنما هو بَحْثٌ يستند إلى المصادر والدلائل التاريخية لإثبات وتبيين حقائق الأصل العربي اليماني القديم لقبائل البربر، وهو ما يتجلى من خلال (الأصل الأمازيغي للبربر) و(الأصل الحميري القحطاني للبربر) حيث يتبين من البحث:

● ـ إن الأصل الأمازيغي للبربر يستند إلى معارف تاريخية وقديمة ومتواترة، ولكن ليس البربر جميعاً (أمازيغ) وليس أمازيغ مجرد أمازيغ ينتهي أو يتوقف عنده النسب وإنما هو (أمازيغ بن كنعان) أو (مازيغ بن كنعان) فعلماء ونسّابة البربر منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة وفي كل العصور التي تلت ذلك يذكرون ويُجمعون على «أن مازيغ هو أحد أولاد كنعان. وقد ورد الاسم في كتاب (التيجان في ملوك حمير) مطابقاً لما قاله نسّابة البربر وهو مازيغ بن كنعان». فقبائل البربر الأمازيغية هم ـ بإجماع المؤرخين ونسّابة البربر ـ ينتمون وينتسبون إلى «برنس بن سفجو بن أيزج بن جناح بن واليل بن شراط بن تام بن دويم بن دام بن مازيغ بن كنعان». وقد جاء في التوراة وفي بعض الروايات التي تأثرت بالتوراة (إن كنعان ابن حام) بينما ذكر العلامة العربي اليمني الحسن بن أحمد الهمداني في كتاب الإكليل أنه: «أولد سام خمسة نفر: إرفخشذ بن سام، وأشوذ بن سام، ولاوذ بن سام، وعويلم بن سام، وإرم بن سام. فأولد عويلم بن سام: شعبر، وكربل، وبراكيل، وممري، وكنعان». (ص١٤٥ جـ١) ـ فليس كنعان من أبناء حام وإنما هو (كنعان بن عويلم بن سام) ـ كما في الإكليل ـ وقد أثبت العديد من الدراسات إن قبائل كنعان سامية، وإن مهد الكنعانيين وموطنهم الأول هو جنوب الجزيرة العربية، فيكون النسب الكامل للبربر الأمازيغ هو أنهم قبائل «أمازيغ بن كنعان بن عويلم بن سام».

● ـ إنّ عشرة من قبائل البربر الكبيرة ببلاد المغرب ليسوا من الأمازيغ وإنما هُم قبائل حِمْيريّة قحطانية وليس هذا القول نظرية جديدة وإنما هو علم إستقصيناه من المصادر التاريخية فقد ذكر العالم المؤرخ نشوان بن سعيد الحميري أن «كُتامة وعُهامة وزناتة ولواتة وصنهاجة قبائل ضخمة في المغرب من حِمْيَر». اهـ. فتلك القبائل الخمس حِمْيَرية قحطانية، وتكتسب صنهاجة وكتامة أهمية أساسية لأن صنهاجة تزعمت سائر قبائل البربر بالمغرب زمناً طويلاً ولأن زمن استقرار صنهاجة وكتامة ببلاد المغرب هو نفس زمن استقرار قبائل البربر الأمازيغية الكنعانية هناك. قال ابن خلدون في المقدمة: «.. وذهب الطبري والجرجاني والمسعودي وابن الكلبي أن صنهاجة وكتامة من حمير. ويأباه نسّابة البربر، وهو الصحيح». (ص١٢) ويعني أن نسّابة البربر الأمازيغ يقولون إن صنهاجة وكتامة من البربر الأمازيغ الذين هم (أمازيغ بن كنعان) وإن ذلك صحيح، ولكن ابن خلدون نفسه ذكر في الجزء الثاني ما يلي: «.. من قبائل حمير صنهاجة وكتامة. قاله الطبري والجرجاني والمسعودي وابن الكلبي وجميع النسابين». (ص٥٩/ ٢) وقال ابن خلدون في موضع ثالث: «قال ابن الكلبي: إن كتامة وصنهاجة ليستا من قبائل البربر وإنما هُم من اليمانية.. وهذا إجماع أهل التحقيق بشأنهم.» وقال ابن خلدون أيضاً في موضع آخر: «.. والمشهور أن صنهاجة وكتامة من اليمانية» اهـ ويتبين من ذلك أن ابن خلدون انضم إلى المؤرخين والنسابين وأهل التحقيق بأن صنهاجة وكتامة من قبائل حمير اليمانية القحطانية وليسوا من البربر الأمازيغ. وقد أورد (ابن عذاري المراكشي) في كتاب (البيان المُغرب) أنه خَطَبَ أبو الفتح المنصور الصنهاجي ـ لما وُلّي القيروان والمغرب ـ وقال في خطبته: «.. وما أنا في هذا المُلك ممن يُوَلّى بكتاب أو يُعزل بكتاب لأنّي ورثته عن آبائي وأجدادي، ورثوه عن آبائهم وأجدادهم حمير». (ص٢٩/ ١) ويدل ذلك على أن زعماء المغرب الصنهاجيين كانوا يذكرون نسبهم الحميري العريق ويعتزون بأن آباءهم وأجدادهم حميريون وكانوا هم رؤساء البربر وبلاد المغرب في العصور التليدة. ويتألق نسب صنهاجة في الإكليل بأن «صنهاجة وكُتامة وعُهامة ولَوَاتَة وزناتة، بنو مُرّة بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن جيدان بن قطن بن عَرِيب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان».

وكذلك يتبين من البحث أن ست قبائل بربرية أُخرى هامة ليست من البربر الذين هم (أمازيغ) وإنما هم قبائل يمانية قحطانية، وهم: غمارة، وزوارة، ومكلاتة، ومزاتة، وهوارة، وزويلة. لقد قال ابن خلدون: أما نسّابة البربر

فيزعمون في بعض شعوبهم أنهم من العرب.. مثل غمارة وزوارة ومكلاته يزعم نسابتهم أنهم من حمير». وقال اليعقوبي في كتاب البلدان عن سكان المنطقة الواقعة جنوب سرت أنهم قوم» يدّعون أنهم من اليمن وأكثرهم من مزاتة وهم الغالبون» (ص٢٣٠) وقال شهاب الدين النوري في كتاب نهاية الأرب عن قبيلة هوارة البربرية ما يلي: «وهوارة تزعم أنهم قوم ناقلة من اليمن جهلوا أنسابهم» (ص٢٨٩/ ٢) ولكن القول بأنهم جهلوا أنسابهم غير دقيق فقد ذكر الحافظ ابن عبد البر في كتاب القصد والأمم: «إن هوارة تقول عن نفسها أنها من اليمن من قبيلة عاملة. وإن زويلة تنتسب إلى جرهم» (ص٢٥) ويتبين من مجمل ذلك أن تلك القبائل الست كانت تقول عن نفسها أنها قبائل يمانية قحطانية عربية، فقبيلة بني زويلة من بطون قبيلة (جرهم القحطانية)، وقبيلة هوارة من بطون قبيلة عاملة التي هي من قبائل (كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان) وقبائل مزاتة ومكلاتة وزوارة وغمارة تقول عن نفسها أنها قبائل حميرية، فهي من قبائل (حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان). ولكن ذلك لا يعني أنهم ليسوا من البربر ـ كما ظن البعض ـ وإنما يعني أن البربر طبقتان؛ الطبقة الأولى: قبيلة أمازيغ بن كنعان، والطبقة الثانية: القبائل الحميرية اليمانية القحطانية وهم صنهاجة وكتامة ولواتة وعهامة وزناتة وغمارة وزوارة ومكلاتة ومزاتة وزويلة وهوارة، فتلك القبائل البربرية جميعها من اليمن.

ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن القبائل العربية اليمانية في العصور التليدة كانت طبقتين، وقد تحدث ابن خلدون عن الطبقة الأولى بعنوان: (الطبقة الأولى من العرب العاربة) وقال ما يلي: «هذه الأمة أقدم الأمم من بعد قوم نوح وأعظمهم قدرة وأشدهم قوة وإثاراً في الأرض وأول أجيال العرب من الخليقة فيما سمعناه لأن أخبار القرون الماضية من قبلهم يمتنع اطلاعنا عليها لتطاول الأحقاب ودروسها إلا ما يقصه علينا الكتاب ويُؤثر عن الأنبياء بوحي اللّه إليهم.. وهؤلاء العرب العاربة شعوب كثيرة منهم عاد وثمود وطسم وجديس والعمالقة وأميم وعبيل وعبد ضخم وجرهم وحضرموت وحضورا والسلفات. وسُمّي هذا الجيل العرب إما بمعنى الرساخة في العروبية كما يُقال: ليلٌ أليل وصوم صائم أو بمعنى الفاعلة للعروبية والمبتدعة لها، بما كانت أول أجيالها». (ص٤٥/ ٢). فتلك الطبقة الأولى هم العرب العاربة الساميون، فقبائل عاد وثمود وعبيل وعبد ضخم من بني ارام بن سام، وقبائل طسم والعمالقة وفاران من بني لاوذ بن سام، وكذلك كانت كنعان من قبائل تلك الطبقة وقد ذكر الهمداني في الإكليل أنهم «كنعان بن عويلم بن

سام». وقد انتشر كثير من قبائل تلك الطبقة من اليمن إلى الحجاز والشام ومصر وغيرها في أزمنة عديدة من التاريخ القديم ومنهم العمالقة وبعض قبائل كنعان، وكان أغلبهم ما يزالون في اليمن عندما تكونت وانتشرت فيها قبائل (الطبقة الثانية من العرب العاربة وهُم قبائل قحطان). وهم امتداد للطبقة الأولى إذْ أن قحطان هو (قحطان بن النبي هود ـ وهو عابر/عبد الله ـ بن رباح بن الخلود بن مخلد بن عاد). قال حسان بن ثابت الأنصاري:

ويَعْربُ يَنْمِيهِ لِقَحْطَان ينتمي ... لهودٍ نبي اللّه فوق الحبائك

يمانُون عاديّون لم تختلط بنا ... مناسب شابت من أُولى وأولئك

وقال أبو الطيب المتنبي:

إلى الثمر الحلو الذي طيء له ... فروعٌ وقحطانُ ابن هودٍ لها أصل

وقد انحدرت من أبناء قحطان ثلاث عشرة قبيلة وهم (السَّلف، وأزال، وجرهم، وحضرموت، ومود، وهدورا، وعوبال، ويارح، ودقلة، وحويلة، وأوفير، ودقلة، وأبيمال) وجاء في العهد القديم أن منهم (سبأ بن قحطان) بينما هو في كتب التاريخ والمصادر العربية «سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان» قال ابن خلدون: «وكان لسبأ بن يشجب من الولد كثير، وأشهرهم حمير وكهلان اللذان منهما الأُمتان العظيمتان من اليمنية أهل الكثرة والمُلك والعزّ، ومُلك حمير منهم أعظمه، وكان منهم التبابعة». اهـ.

وعلى ضوء المعارف سالفة الذكر فإن القبائل الكنعانية من (الطبقة الأولى من العرب العاربة) الذين هم سكان اليمن القدماء العرب الساميين. بينما قبائل حمير اليمانية القحطانية هم من (الطبقة الثانية من العرب العاربة) والطبقتان من اليمن. وكذلك فإن ما سلف في المصادر التاريخية عن انتماء البربر وأنسابهم يتيح إدراك أن البربر أيضاً طبقتان، الطبقة الأولى أمازيغ بن كنعان وهم من الطبقة الأولى من العرب العاربة. والطبقة الثانية من البربر هم القبائل الحميرية اليمانية القحطانية وهم من الطبقة الثانية من العرب العاربة، والطبقتان في الأصل والجذور من اليمن.

لقد كان اليمن مصدر هجرات وانتقالات بشرية عربية سامية وقحطانية كثيرة في العصور القديمة ويعود ذلك إلى ثلاثة أسباب رئيسية هي الازدحام السكاني، والغزوات الحربية، وتكوين مستوطنات تجارية لتأمين الطرق والمصالح التجارية والسيطرة على الطرق التجارية. وقد أشار ابن خلدون إلى ازدحام اليمن بسكانها من الطبقتين، أي الطبقة الأولى من العرب العاربة الساميين والطبقة الثانية من

العرب العاربة الذين هم قبائل قحطان حيث قال ابن خلدون: «وكان بنو قحطان معاصرين لإخوانهم من العرب العاربة، ومظاهرين لهم على أمورهم. . فتشعبت في أرض الفضاء فصائلهم، ونَمَا عددهم، وكثرت إخوانهم من العمالقة في آخر ذلك الجيل وزاحموهم بمناكبهم واستجدّوا خلق الدولة، فكانت الدولة لبني قحطان متصلة فيهم» (ص٤٧/ ٢) ـ فقد كثرت قبائل قحطان وكذلك كثرت إخوانهم من العرب العاربة وخاصة العمالقة بحيث تزاحم الفريقان بمناكبهم، وهو ما يتجلى في قوله: (وزاحموهم بمناكبهم) وذلك كناية عن الازدحام والانفجار السكاني، فكان الازدحام السكاني من الأسباب الرئيسية للعديد من موجات الهجرة والانتقال من اليمن إلى مناطق غير مسكونة أو قليلة السكان في شمال الجزيرة والشام والعراق ومصر وغيرها، وقد أشار الحسن الهمداني ـ صاحب الإكليل ـ إلى موجات الانتقال من اليمن عند وقوع ازدحام سكاني حيث قال في قصيدته الدامغة:

وكُنّا إذْ تَزَاحَمَ في سواه ... من العافِ الخراب له سكونا
فأصبح مَنْ به مِن غير قومي ... بهم حيث انتووا متخفرينا

وبسبب الازدحام السكاني وكذلك في إطار بعض الغزوات انتقلت من اليمن وجزيرتها العربية قبيلة العمالقة وعدة قبائل من كنعان وقحطان إلى الشام ومصر منذ وقت مبكر وفي سبع موجات خلال الزمن ما بين عام ٥٠٠٠ ق. م. وعام ١٢٠٠ ق.م. ولقد كان من الأمور الهامة التي راعيتُها في هذا الكتاب عن (عروبة البربر) تحديد السقف والإطار الزمني لتاريخ البربر حيث يتبين مما ذكره العلماء من المؤرخين والنسابين العرب والبربر أن بداية ذلك التاريخ تعود إلى القرن الخامس عشر ق. م. في الشام والقرن الثاني عشر ق. م. في بلاد المغرب، ولذلك فلم أتطرق إلى ما قبل ذلك الزمن لأنه ليس من مقاصد هذا الكتاب، ويمكن الإشارة هنا إلى النقاط التالية:

● ـ إنّ بعض المناطق في بلاد المغرب كان فيها سكان منذ العصر الحجري وتوجد دلائل على الوجود السكانيَ بتلك المناطق منذ الألف الرابع ق. م. والألف الثالث ق. م. ولكن أولئك السكان ليسوا من البربر وغالب الظن أنهم من الجنس الحامي الأسود وأنهم كانوا من الذين لا يكادون يفقهون قولاً. وربما أجازت بعض القبائل العربية السامية القديمة التي انتقلت من اليمن إلى الشام ومصر، ربما أجازت إلى بلاد المغرب أيضاً في تلك الأزمنة.

● ـ إنّ الدراسات والدلائل التاريخية والأثرية تؤكد وقوع موجة هجرة من اليمن (جنوب الجزيرة العربية) إلى بلاد الرافدين والشام (عام ٥٠٠٠ ق. م.) وإن

موجة هجرة كبيرة من اليمن وجزيرتها العربية قد وقعت إلى الشام ومصر وإلى بلاد الرافدين عام ٣٥٠٠ ق. م. ويقول د. أسد أشقر في كتاب (تاريخ سورية) عن ذلك أنه: «ليس من قبيل المصادفة أن تقع عام ٣٥٠٠ ق. م. ـ موجة هجرة من الجزيرة العربية إلى بلاد الرافدين وموجة هجرة إلى سورية ومصر في وقت واحد» (اهـ) وهذا يعني أن تلك الموجات وقعت بتدبير وتخطيطٍ وتوجيهٍ من جهة أعلى ولا بد أن تلك الجهة هي الدولة والملك في اليمن. وقد ذكر الأستاذ الهادي الزريبي في دراسة عن أصول البربر العربية: «إن أحد الملوك اليمنيين بلغ شواطئ الأطلسي في حدود عام ٣٨٥٠ق. م.» (اهـ) ويبدو لي أن الهادي الزريبي افترض أن زمن الملك (شداد بن عاد) قبل زمن الملك (سبأ بن يشجب) الذي تدل القرائن على أن زمنه كان في حوالي عام ٣٥٠٠ق. م. والصواب أن زمن شداد بن عاد متأخر لأنه ليس من عاد الأولى، وهو رابع الملوك الذين ذكر المؤرخون العرب وقوع موجات هجرة وانتقال في غزواتهم أو بتوجيههم في العصور السابقة لزمن تاريخ البربر، ومن المفيد أن نذكرهُم هنا، وهُم:

أ ـ الملك سبأ بن يشجب (عام ٣٥٠٠ ق. م.) تقول الروايات أنه «جمع بني قحطان وبني سام ثم زحف إلى أرض بابل فافتتحها وسار إلى أرض الجزيرة ولم يزل حتى عبر إلى الشام ومصر، وكان يستخلف على كل أمة قوماً من الذين معه».
أي أن قبائل من بني سام وقحطان استقروا آنذاك ببلاد بابل والشام ومصر، وقد كان ذلك بسبب الازدحام السكاني في اليمن (جنوب الجزيرة العربية). وقد دَلَّت الدراسات على وقوع موجة هجرة وانتقال من الجزيرة العربية إلى بلاد بابل وموجة هجرة وانتقال إلى الشام ومصر في ذلك الزمن عام ٣٥٠٠ ق. م. ويهمنا هنا الموجة البشرية التي انتقلت إلى الشام وهم قبائل من كنعان وقحطان وكذلك العمالقة الذين كانوا قد انتقلوا من اليمن إلى الحجاز فانتقلوا مع تلك الموجة إلى الشام. وقد جاء في كتاب العلاقات الحضارية ما يلي:

ـ إن «التحركات البشرية سلكت الطريق البري القديم من وادي بيحان ومأرب فوادي نجران وقلب الجزيرة ثم الحجاز حتى العقبة لتستقر في بلاد الشام بينما تحركت بعض قبائلها إلى مصر عبر سيناء» (ص١٧٤) وقال العالم المصري د. أحمد فخري في كتاب دراسات في تاريخ الشرق القديم: «هناك حقيقة مهمة وهي أنه في الألف الرابع قبل الميلاد وصلت هجرات من جنوب الجزيرة العربية إلى مصر». (ص١٢٤) ولم تذكر المصادر التاريخية أن بعض تلك الموجة أجازوا إلى المغرب.

ب ـ موجة زمن الملك قَطَنْ (عام ٢٥٠٠ ق. م.) تذكر الروايات أنه «وجّه الملك قَطَنْ قائداً بالخيل والرجال والعدد، وأمره أن يتوطن عُمان. وأرسل إلى بابل والشام وأعمرها بمن دخلها من رعاياه...» وقد دَلَّت الدراسات على وقوع موجة هجرة وانتقال إلى بابل والشام عام ٢٥٠٠ ق. م. وهي موجة الأموريين وبعض قبائل كنعان، وإن الكنعانيين أسسوا مملكة في الشام عام ٢٤٠٠ ق. م. وهي مملكة إبلا الكنعانية وكانت عاصمتها مدينة إبلا بسورية.

جـ ـ موجة عهد الملك سبأ عبد شمس (٢١٥٠ ـ ١١٠٠ ق. م.): تقول الروايات أنه: «سار الملك سبأ عبد شمس إلى بلاد بابل ثم إلى الشام وسار يقاتل بني حام حتى بلغ أقصى الغرب، ومنهم من هرب إلى براري مصر ذات الجنوب، وأذعنوا له بالطاعة.. ثم بَنَى مدينة مصر ـ للذين أسكنهم بها ـ ورجع إلى اليمن» (اهـ) ويتبين من الدراسات أن تلك الفترة شهدت بداية سلطان الأموريين الذين جاؤوا من الجزيرة العربية، وقد جاء في كتاب الأمم السامية أنه: «نجح الأموريون في بسط سلطانهم على بلاد الرافدين وسورية وامتدت ممالكهم إلى البحر المتوسط غرباً» (ص٨٧).

د ـ موجة عهد الملك شداد بن شمس عاد (١٧٩٠ ـ ١٧٤٠ ق. م.): وهو المقصود بقول الهادي الزريبي «أن أحد الملوك اليمنيين بلغ شواطئ الأطلسي».. فقد ذكر الهمداني في الإكليل أنه: «بلغ الملك شداد بن عاد بن الملطاط أقصى المشرق ثم سار إلى الشام ثم إلى المغرب حتى بلغ البحر المحيط وهو يبني المدن ويتخذ المصانع فأقام في المغرب ثم قَفَلَ إلى المشرق ومضى إلى مأرب فبنى بها القصر العتيق». (ص١٨٣/٣) وتوجد تفاصيل كثيرة عن مسير الملك شداد بن عاد إلى أشور والشام ومصر وأنه (نزل الإسكندرية) وأنه أوطن قوماً ممن معه بالشام وغيرها وقد شملهم اسم (أموريين) في الدراسات، وقد وقع التباس وخطأ في تحديد الهادي الزريبي لزمن الملك بأنه «في حدود عام ٣٨٥٠ ق. م.» والصواب أنه كان في الفترة (١٧٩٠ ـ ١٧٤٠ ق. م.) كما في كتاب (اليمن في تاريخ ابن خلدون). ولا توجد تفاصيل عن مسير الملك شداد إلى بلاد المغرب، وربما استقرت بعض القبائل في تلك الموجة ببلاد المغرب وخاصة في ليبيا وهم (الليبو) في الدراسات، ولكن زمن الملك شداد وتلك الموجة ـ بالقرن الثامن عشر ق. م. ـ سابق بعدة قرون لبداية تاريخ البربر، وقد كان الملك شداد بن شمس عاد من ملوك (عاد الثانية) وانتهت دولتهم في القرن السادس عشر ق. م.

إن موجات الهجرة والانتقال ذات الصلة بتاريخ البربر هي ـ كما يتبين من البحث في المصادر التاريخية ـ ثلاث موجات:

الموجة الأولى: في أوائل زمن ملوك سبأ التبابعة بالقرن الخامس عشر ق. م. حيث قام الملك الحارث الرائش الأول وابنه الملك شمّر الأملوك بتوجيه قبائل الأراميين وقبائل من كنعان وقحطان إلى بلاد بابل والشام. وقال الأستاذ حامد عبد القادر في كتاب الأمم السامية عن تلك الموجة ما يلي: «إن الأراميين أغاروا على بلاد بابل ثم بلاد أشور جميعها ثم تدفقوا من أشور إلى سورية، وكانوا في أعداد ضخمة قوية.. ومن المرجح أن ذلك يرجع إلى قيام دولة كبرى جنوب الجزيرة العربية» (ص١٠٥) ـ وبالفعل فقد كانت تلك الموجة بتوجيه الدولة الكبرى التي قامت في اليمن جنوب الجزيرة العربية وهي دولة ملوك سبأ التبابعة بزعامة الحارث الرائش (١٤٧٠ ـ ١٤٣٢ ق. م.) وابنه الملك شمّر الأملوك ذو الجناح الذي اشترك مع أبيه في الحكم والملوكية بحيث قال ابن خلدون: «أول الملوك التبابعة باتفاق من المؤرخين الحارث الرائش.. وقيل أن أول من مَلَك اليمن ـ من التبابعة ـ شمّر الأملوك، وبَنَى ظفار، وأخرج منها العمالقة». (ص٥١/ ٢) والمقصود بالعمالقة هنا قبائل كنعان الذين كانوا ما يزالون في اليمن، قال النويري في كتاب نهاية الأرب: «والعقب من لاوذ بن سام: عمليق وهو أبو العمالقة والفراعنة والجبابرة بمصر والشام» (ص١٩١/ ٢) وقال ابن الأثير في كتاب الكامل في التاريخ: «وعمليق هو أبو العماليق ومنهم كانت الجبابرة بالشام الذين يُقال لهم الكنعانيون» (ص٤٤/ ١) وقد أخرجهم من منطقة ظفار في وسط اليمن (بمحافظة إب حالياً) الملك شمّر الأملوك بن الحارث الرائش في أواسط القرن الخامس عشر ق. م. فاستقروا بفلسطين والشام، وقد دَلّت الدراسات على أنه ـ وكما جاء في كتاب أطلس التاريخ ـ «أن قبائل من كنعان جاءت من جنوب الجزيرة العربية إلى الشام في القرن الخامس عشر ق. م. ومنهم الكنعانيون الذين سكنوا أوغاريت (أجاريت) وأسسوا مدينة وحضارة أوغاريت الكنعانية بمنطقة الساحل السوري عام ١٤٣٠ ق. م.» ويمكن القول أن أولئك بالذات هم (أمازيغ بن كنعان) أو أن منهم (أمازيغ بن كنعان) الذين قيل لهم فيما بعد (البربر). وفي ذلك قال البلاذري: «إن البربر من الجبارين وكانت منازلهم على أيادي الدهر فلسطين وهم أهل عمود فأتوا المغرب فتناسلوا به» وذكر عبد الملك بن هشام أنهم (من مازيغ بن كنعان). وقد كانوا بفلسطين والشام حتى القرن الثاني عشر ق. م. وكانت فرقة منهم ما تزال باليمن.

الموجة الثانية: موجة الانتقال إلى بلاد المغرب في القرن الثاني عشر ق. م. حيث انتقلت قبائل أمازيغ بن كنعان الذين باليمن والشام إلى بلاد المغرب، ساقهم إليها الملك إفريقيس بن الملك ذي المنار بن الرائش وقد ذكر المؤرخون الأوائل أنه «كان لعهد النبي موسى عليه السلام» وقد دلَّت الدراسات والنقوش على أن (الملك ذي المنار بن الرائش من عظماء ملوك سبأ التبابعة وقد حكم بعد أبيه الرائش الثاني الذي عاصر النبي موسى، فقد حكم الرائش في الفترة (١٢٢٠ ـ ١١٨٠ ق. م.) ثم حكم ذو المنار في الفترة (١١٨٠ ـ ١١٤٢ ق. م.) بالقرن الثاني عشر ق. م. حيث ساق ابنه الملك إفريقيس بن ذي المنار البربر من اليمن والشام إلى بلاد المغرب وأسكنهم فيها. وقد ذكرت ذلك سائر المصادر التاريخية ـ كما سيأتي ـ وقد تطرق الأستاذ محمد المختار العرباوي إلى ذلك في كتابه عن البربر وقال: «من القصص الكثيرة التداول في المصادر القديمة تلك القصة التي تربط بين البربر وأفريقش اليمني.. وهناك اختلاف في كتابة اسم هذه الشخصية فقد ورد ذكره هكذا:

(أفريقش، أفريقس، أفريقيش..) ويقال إن أفريقش هذا هو والد الملك (شمّر يهرعش) المعروف عند الإسلاميين بـ(شمر يرعش) الذي حكم في القرن الثالث الميلادي» (اهـ) وقد وقع محمد العرباوي في استنتاج خاطئ لأن والد شمر يرعش هو ياسر ينعم عند سائر المؤرخين العرب الأوائل وكذلك هو في النقوش «شمّر يُهرعش بن ياسر يُهنعم» وقد ذكر ابن خلدون وسائر المؤرخين أن ياسر ينعم حكم بعد الملكة بلقيس معاصرة سليمان وذلك في القرن التاسع قبل الميلاد فليس هو شمّر الذي حكم في القرن الثالث الميلادي. وكذلك ليس إفريقيس والد شمر يرعش بن ياسر يُنعم وإنما هو والد شمّر الأكبر (شمّر يُنعم) الذي حكم في القرن الحادي عشر ق. م. وقد ذكر ابن خلدون وسائر المؤرخين الأوائل زمن الملك إفريقيس بن ذي المنار بما لا يدع مجالاً للالتباس قال ابن خلدون في المقدمة: «ينقل المؤرخون كافة في أخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب أن أفريقش من أعاظم ملوكهم الأول وكان لعهد موسى عليه السلام غزا أفريقية وأثخن في بلاد المغرب وأنه الذي سمّى البربر بهذا الاسم.. وذكر المسعودي: أن ذا الأذعار من ملوكهم قبل أفريقش غزا المغرب ودوّخه..» (ص١٢) ويهمنا من ذلك هنا إجماع المؤرخين على أن الملك أفريقش كان لعهد موسى عليه السلام وكذلك كان أخوه الملك ذو الأذعار وهما ابنا الملك ذو المنار بن الرائش وكان في عهد النبي موسى، أي في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وليس في القرن الثالث كما توهم

العرباوي. وتتمثل أهمية معرفة الزمن في أن تاريخ البربر ببلاد المغرب بدأ بتلك الموجة في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وليس هناك تعارض مع ما يذكره نسّابة البربر بأنهم بنو (مازيغ بن كنعان) وانتقلوا من الشام عندما حاربهم يوشع بن نون بعد عهد النبي موسى بأمد يسير (في القرن الثاني عشر ق. م.) فذلك هو عين ما ذكره المؤرخون العرب الأوائل ونقله ابن خلدون نفسه في التاريخ حيث قال: «ثم مَلَكَ أفريقش بن ذي المنار وهو الذي ذهب بقبائل العرب إلى أفريقية، وبه سُمِّيت، وساق البربر إليها من أرض كنعان، مرَّ بها عندما غلبهم يوشع وقتلهم، فاحتمل أفريقش الفلّ منهم وساقهم إلى أفريقية فأنزلهم بها..» (ص٥١) فالذين نقلهم وساقهم إفريقيس (أفريقش) من اليمن والشام وأسكنهم ببلاد المغرب هم بعينهم أمازيغ بن كنعان، وفي ذلك قال عبد الخالق الشهابي في أبيات بالإكليل (بعد أن ذكر الملك ذا الأذعار) قال:

وأخوه الذي ساق كنعان حتى ألغطت في السياق بالبربار

فأوطن إفريقيس أمازيغ بن كنعان وقبائل من حمير في أفريقية الشمالية وهم الموجة الأولى من البربر، وفي ذلك قال المؤرخ نشوان الحميري في قصيدته التاريخية (بعد أن ذكر الملك ذا الأذعار):

وأخوهُ إفريقيس وارثُ عرشه، حَتْفُ العدو، وجابر المتاح
مَلِكٌ بَنَى في الغرب أفريقيةً نُسِبتْ إليه بأوضح الإيضاح
وأحلّ فيها قومه فَتَملكوا ما حولها من بلدة ونواحي

إن هذا الكتاب «عروبة البربر. تاريخ ودلائل انتقال البربر من اليمن إلى بلاد المغرب.. والجذور العربية اليمنية لقبائل البربر»، يقع في خمسة فصول:

الفصل الأول: انتقال الطبقة الأولى من البربر (أمازيغ بن كنعان) من اليمن إلى المغرب في زمن إفريقيس

وقد استقصيتُ في هذا الفصل:

١ ـ الشواهد الأثرية والتاريخية على زمن الملك إفريقيس بن الملك ذي المنار بالقرن الثاني عشر ق. م.

٢ ـ مسير إفريقيس بالبربر إلى بلاد المغرب وإن ذلك كان في إطار خطة تكوين عالم تجاري كبير بزعامة سبأ.

٣ ـ بناء إفريقيس لمدينة أفريقية (في تونس) كمستوطنة تجارية، وتسمية أفريقية باسمه.

٤ ـ توطين إفريقيس قبائل أمازيغ بن كنعان وصنهاجة وكتامة ببلاد المغرب وتسميتهم بالبربر.

٥ ـ دلالة المومياءات اليمنية ومومياءات جزر الكناري على أن البربر في الأصل من اليمن، حيث قام المختبر الفيزيائي الهولندي بفحص عينات من المومياءات اليمنية المعثور عليها في اليمن واتضح عودة زمن اثنتين منها إلى الفترة من ١٢٦٥ ـ ٩٦٠ ق. م. أي القرن الثالث عشر إلى القرن العاشر ق. م. وكان قد تم العثور في جزر الكناري بساحل المغرب على مومياءات نسبها الدارسون إلى قبيلة مشتى عربي البربرية بالجزائر، وتدل المقارنة على «أن طريقة التحنيط في المومياءات اليمنية هي التي تم اتباعها في مومياءات جزر الكناري.. وأن سكان جزر الكناري من قبيلة مشتى عربي البربرية ربما جاؤوا بالفعل من الجزائر، ولكنها كانت بالنسبة لهم مجرد محطة انتقالية في رحلتهم التي بدأت من اليمن، فقد كانوا يعرفون فنون الملاحة فحملتهم السفن من الساحل المغربي إلى جزر الكناري.» (اهـ) ويؤكد ذلك أن قبيلة مشتى عربي البربرية بالجزائر وغيرهم من قبائل البربر كانوا في الأصل من اليمن، وإن مستوطناتهم التجارية امتدت إلى جزر الكناري المغربية بالميحط الأطلسي منذ زمن الملك إفريقيس بالقرن الثاني عشر ق. م. إلى القرن العاشر ق. م. التي تعود إليه المومياء اليمنية الخامسة التي حدد المختبر الفيزيائي الهولندي زمنها بالفترة من ٩٦٠ ـ ٩٣٠ قبل الميلاد.

الفصل الثاني: وقائع انتقال الطبقة الثانية من قبائل البربر ـ الحميرية اليمانية القحطانية ـ من اليمن إلى بلاد المغرب في زمن وفتوحات (ياسر يُنعم وابنه شمّر يُرعش ملكي سبأ وذي ريدان). ويتضمن الفصل الثاني:

١ ـ الشواهد الأثرية والنقوشية على ملوكية وزمن ياسر يُنعم وابنه شمّر يرعش بالقرن التاسع قبل الميلاد الذي حدده أيضاً الهمداني ونشوان وابن خلدون زمناً لياسر يُنعم. وعنه قال نشوان الحميري:

أو ياسر الملك المعيد لما مضى ... من مُلك حيٍّ لا تراه لقاح

أبقى بوادي الرمل أقصى موضعٍ ... في الغرب مُسند ماجد جحجاح

٢ ـ نصوص ووقائع فتح ياسر ينعم وشمر يرعش للحبشة وجنوب مصر والمسير إلى بلاد المغرب وذلك لتأسيس مستوطنات تجارية وتكوين عالم تجاري كبير.

٣ ـ دخول ياسر بلاد المغرب وتأسيس مدينة قرطاجة (في تونس) كمستوطنة تجارية سبئية فينيقية بالقرن التاسع ق. م. وبلوغ ياسر البحر المحيط ووادي الرمل

بأقصى المغرب. وأنباء صنم المغارب الذي صنعه الملك ياسر بأقصى المغرب. وعنه قال دعبل الخزاعي:

وفي صنم المغارب فوق رملٍ تسيل رماله سيل السفينا

٤ ـ مسير الملك أبي كرب أسعد إلى بلاد المغرب عام ٦٧٩ ق. م. (بالقرن السابع ق. م.) حيث ذكر الحسن الهمداني أنه «وجد أسعد مُسند شرحيل نفيل في أقصى المغرب». واستقر في قرطاجة والمغرب جنود وعشائر من الحميريين القحطانيين. وفي ذلك قال بعض أحفاد أسعد:

ومنّا بأرض الغرب جندُ تعلّقُوا إلى بربرٍ حتى أَتوا أرض بربر

الفصل الثالث: هم قبائل الطبقة الثانية من قبائل البربر ـ الحميريين القحطانيين ـ الذين استقروا ببلاد المغرب منذ زمن ياسر ينعم، وأصولهم اليمانية. وقد استقصيت في هذا الفصل القبائل البربرية التي ذكر العلماء من المؤرخين والنسابين العرب والبربر أنهم حميريون يمانيون قحطانيون. وقد ذكرت تلك القبائل البربرية نفسها أنها حميرية يمانية وقحطانية، ولم تزل تذكر نسبها اليماني وتعتز بذلك إلى ما بعد الإسلام. وهي قبائل بربرية ضخمة تمتد مواطنها من برقة وطرابلس في ليبيا إلى المغرب الأقصى، وتلك القبائل هي: صنهاجة، وكتامة، وزناتة، وزوارة، ومكلاتة، وغُمارة، ولواتة، ومزاتة، وهوارة، وزويلة. فانتساب تلك القبائل البربرية إلى اليمن واحتفاظها بتاريخها ونسبها عبر الأزمنة والعصور هو من الأدلة الهامة على عروبة البربر وجذورهم العربية اليمانية العريقة.

الفصل الرابع: الأصول اليمنية القديمة للكتابة ولحروف ولغة البربر، والتشابه في الموسيقى الشعبية وفن العمارة وتقنية الريّ والزراعة. ويتضمن هذا الفصل دلائل وشواهد هامة على عروبة البربر وجذورهم اليمانية العربية التليدة، ويشمل ذلك:

أولاً: الكتابة والنصوص اليمنية القديمة المعثور عليها في بلاد المغرب.

ثانياً: الأصل اليمني القديم لحروف الكتابة البربرية (التيفيناغ) حيث تدل المقارنة بين شكل حروف كتابة المسند اليمنية وحروف الكتابة البربرية (التيفيناغ) على أن نصفها مأخوذ من حروف المسند.

ثالثاً: الشواهد اليمنية العربية في لغة البربر، وتشمل:

١ ـ ما جاء من الأسماء البربرية على صيغة «أفْعُول» الحميرية.

٢ ـ النون الحميرية في البربرية.

٣ ـ تشابه طريقة التأنيث في الحميرية والبربرية.

رابعاً: الكلمات المشتركة في العربية والبربرية، إذْ أن أكثر من مائة كلمة في لغة البربر هي نفس الكلمات التي كانت في اليمن وجزيرة العرب منذ عصور ما قبل الإسلام، وتدل على وحدة لغوية وأصل واحد.

خامساً: التشابه بين الموسيقى الشعبية اليمنية والبربرية، فقد قام الدكتور روبرت لخمان (Robert Lechmenn) بدراسة الموسيقى البربرية في شمال أفريقية، وجاء بعده الباحث الألماني هانس هلفرتس (Hanz Helfritz) وهو عالم في الموسيقى زار اليمن عام ١٩٣٣ ـ ١٩٣٥م وقام بتسجيل مجموعة من الأغاني والألحان الشعبية في اليمن ومقارنتها بألحان الموسيقى البربرية التي رَقَّمَهَا (نَوَّتَها) لخمان. ثم قام (هلفرتس) بجمع تلك الأعمال في كتاب صدر سنة ١٩٧٧م بعنوان (رحلة اكتشاف في العربية الجنوبية) ذكر فيه «.. التشابه بين أغاني المرتفعات باليمن والموسيقى البربرية التي سجلها لخمان في القبائل بشمال أفريقية. فالسمات التي في الموسيقى العربية اليمنية موجودة بعينها في الموسيقى البربرية.. ومثل هذا يحتم وجود علاقة حميمة بين البربر والعرب الجنوبيين» (ص١١٣) وذلك من الشواهد على جذور البربر.

سادساً: تشابه فن البناء المعماري والسمات المعمارية: ويتمثل ذلك في فن البناء المعماري في مدينة قرطاجة عاصمة شمال إفريقية منذ القرن التاسع والقرن السابع ق. م. إلى القرن الثاني ق. م. حيث يعتبر الدارسون أن فن البناء في قرطاجة هو فن البناء الفينيقي بمنطقة الساحل السوري، وقد قام عالم الآثار الأميركي د. فان بيك والعالم الفرنسي بول جنبيه بدراسة مقارنة لفن البناء في فينيقية واليمن وقال بول جنبيه: «إن ذلك الأسلوب الفني في مجال البناء كان منتشراً في منطقة جنوب الجزيرة العربية كلها في القرن السابع ق. م. وله نفس الخصائص الموجودة في البناء الفينيقي..» فأسلوب فن بناء المعابد والمباني في فينيقية وقرطاجة هو أسلوب وفن البناء اليمني السبئي وقد انتقل من اليمن إلى فينيقية وقرطاجة منذ موجة عهد ياسر يُنعم وعهد أبي كرب أسعد، وما تزال آثار فن البناء المعماري اليمني باقية حيث قال: (هانس هلفرتس) الألماني: «من اللافت للنظر أن توجد في مرتفعات الأطلس منطقة البربر الرئيسية بناءات مرتفعة تشبه مثيلاتها في بلاد العربية الجنوبية وذات سمات معمارية واحدة». (اهـ) وذلك أيضاً من الدلائل الهامة على أن البربر هم في الأصل من اليمن جنوب الجزيرة العربية.

سابعاً: الزراعة والريّ وزراعة المدرجات: وتدل الدراسات على أن معرفة

الزراعة والريّ وزراعة المدرجات دخلت شمال أفريقية في الألف الأول ق. م. وإنها «من مظاهر الحضارة في جنوب الجزيرة العربية». وقد دخلت طريقة الفلاحة بواسطة المصاطب والسطوح المدرجة إلى شمال أفريقية مع أصحابها الذين انتقلوا من اليمن إلى بلاد المغرب، وهي من الدلائل الهامة أيضاً على أن البربر عرب يمانيون انتقلوا إلى بلاد المغرب في العصور الحضارية التليدة. إن كل الوقائع والدلائل منذ تاريخ انتقال الطبقة الأولى من البربر إلى بلاد المغرب في زمن الملك إفريقيس وتاريخ انتقال الطبقة الثانية من البربر وهم الحميريون القحطانيون من اليمن إلى بلاد المغرب في زمن ياسر ينعم وزمن أبي كرب أسعد، واحتفاظ قبائل البربر بجذورها العربية اليمانية، والأصول اليمنية العربية لكتابة وحروف ولغة البربر والتشابه في الموسيقى الشعبية وفن العمارة وتقنية الريّ والزراعة وفلاحة المدرجات، كل ذلك شواهد لا تخطئ دلالتها على الجذور العربية اليمنية لقبائل البربر، إن تشتت تلك الوقائع والمصادر التاريخية والدلائل قد أدى إلى إلقاء ظلال من الشك حول أصول وجذور البربر، وقد جمعتُ وربطت كل ذلك في هذا الكتاب والذي تتجلى في فصوله الأربعة (عروبة البربر) وأنهم طبقتان؛ الطبقة الأولى من البربر: قبيلة أمازيغ بن كنعان، والطبقة الثانية: القبائل البربرية الحميرية القحطانية، وجميعهم في الأصل من اليمن، وهم سكان بلاد المغرب إلى زمن الفتح العربي الإسلامي لبلاد المغرب.

الفصل الخامس: عصر الفتح العربي الإسلامي لبلاد المغرب والعلاقة مع البربر. في القرن السابع الميلادي وقع الفتح العربي الإسلامي لبلاد المغرب والذي استمر فترة طويلة امتدت إلى عام ٩١هـ (٧١٠م) وقد كان من المهم أن يشمل هذا الكتاب عصر الفتح العربي الإسلامي لعدة اعتبارات أهمها:

١ ـ استقرار موجة من القبائل العربية ببلاد المغرب في زمن الفتح، وقد ذكرتهم المصادر التاريخية باسم (العرب) بينما ذكرت سكان البلاد السابقين باسم (البربر) وبذلك ظهر مصطلح (عرب وبربر) في التاريخ ببلاد المغرب، وقد أشاع البعض استناداً إلى ذلك أن البربر ليسوا من العرب، بينما الصحيح أن البربر عرب يمانيون قدماء استقروا ببلاد المغرب في العصور التليدة فتقادمت عليهم العهود وانقطوا في أرجاء بلاد المغرب الشاسعة (ليبيا ـ تونس ـ الجزائر ـ المغرب ـ موريتانية) فاحتفظوا بلهجاتهم العربية القديمة التي تعود إلى ما قبل الإسلام بأكثر من ألف سنة، وتكونت من لهجاتهم اللغة البربرية، فهي إحدى اللغات العربية القديمة، بينما تطورت اللغة في الجزيرة العربية وصولاً إلى اللغة العربية التي

سادت في زمن الشعر الجاهلي باليمن وبقية الجزيرة العربية وترسخت بنزول القرآن الكريم باللغة العربية وكانت هي لغة العرب في زمن الفتوحات العربية الإسلامية، فاختلاف لغة البربر عن لغة هؤلاء العرب إنما يعني أن البربرية لغة عربية قديمة انقرضت في موطنها الأول بجنوب الجزيرة العربية نتيجة تطور اللغة، وبقت في قبائل البربر لانقطاعهم في بلاد المغرب الشاسعة خلال مئات القرون قبل الإسلام. لقد ميّزت المصادر قبائل موجة الفتح العربي الإسلامي باسم (العرب) والسكان السابقين في بلاد المغرب باسم (البربر) وذلك لا يتعارض مع كونهم موجات عربية قديمة، فالتكييف السليم لسكان بلاد المغرب هو أنهم ثلاث طبقات، وهم الطبقة الأولى من البربر (أمازيغ بن كنعان) والطبقة الثانية من البربر وهم (القبائل الحميرية القحطانية) والطبقة الثالثة وهم العرب الذين استقروا في الفتح العربي الإسلامي ببلاد المغرب وتميزوا باسم (العرب) وغالبيتهم من اليمن، فجميع سكان بلاد المغرب ـ العرب والبربر ـ موجات من الجزيرة العربية أصلها واحد وجذورها واحدة.

٢ ـ إن المدرسة الاستعمارية وأتباعها من ذوي النزعات الانفصالية يحاولون تصوير الفتح العربي الإسلامي بأنه احتلال لبلاد المغرب (بلاد البربر)، ويتخذون من حركة (كسيلة البربري) وحركة (كاهنة البربر) وارتداد بعض البربر مثلاً ودليلاً على تلك النزعة وأن البربر كانوا رافضين منذ البداية قدوم العرب (الغرباء) وأنهم في ذلك كانوا يصدرون عن دافع جنسي وقومي بربري، بينما يتبين من التاريخ عدم صحة ذلك وأن الفتوح العربية الإسلامية كانت تحريراً لبلاد المغرب من الاحتلال البيزنطي الروماني، كما أن حركة كسيلة وكاهنة البربر وارتداد بعض قبائل البربر قد حدث مثله في الجزيرة العربية نفسها فقد حاربت قبيلة قريش النبي محمد ﷺ والمسلمين زهاء عشرين سنة، ووقعت بعد ذلك حركة (مسيلمة الكذاب) وقضية (سجاح) في اليمامة ونجد وارتدت بعض القبائل العربية، ثم عادت إلى الإسلام، ولم يكن وراء ذلك دافع جنسي وقومي وعداء للعرب وإنما هي قضايا وراءها دوافع ومصالح خاصة وليست إلا نقطة سوداء في جدار أبيض. وقد استقصيتُ في الفصل الخامس:

أولاً: نبأ الغزو العربي الإسلامي الأول إلى أفريقية (برقة ـ طرابلس ـ تونس)، وقد انحازت جماهير عريضة من البربر إلى جانب العرب، وتم هزيمة الروم عام ٢٧هـ/ ٦٤٧م وعام ٣٤هـ) في خلافة عثمان بن عفان، وقام بطريق أفريقية ـ وهو نائب للقيصر الروماني البيزنطي على طرابلس وتونس ـ قام بمصالحة المسلمين

على أداء مبلغ سنوي من المال كمظهر للطاعة، فرجع الجند العربي الإسلامي إلى مصر. فبعث القيصر البيزنطي الرومي بطريقاً حاكماً جديداً طرد البطريق الذي صالح العرب وسيطر على الأمور، وكان من العوامل الرئيسية التي أتاحت ذلك فتنة الانقسام والصراع الذي تلى مقتل عثمان بن عفان واستمر إلى أن استتب أمر الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان في الجزيرة العربية والعراق والشام ومصر عام ٤١هـ، فقد ساعد ذلك على استئناف واستمرار الاحتلال البيزنطي الرومي بأفريقية الشمالية إلى سنة ٤٤هـ.

ثانياً: الفتح العربي الإسلامي لإفريقية بقيادة الزعيم اليماني معاوية بن حديج السكوني عام ٤٤هـ (٦٦٤م) ويجهل كثيرون ذلك الفتح بقيادة معاوية بن حديج بينما هو الفتح الفعلي الأول لإفريقية الشمالية فقد وجّه الخليفة معاوية بن أبي سفيان القائد اليماني الأمير معاوية بن حديج ـ وهو صحابي ورئيس اليمانية بمصر ـ لفتح أفريقية، حيث ـ كما ذكر ابن الأثير ـ «سار معاوية بن حُديج إلى أفريقية وكان معه عسكر عظيم فنزل عند قونيه، وأرسل إليه البطريق ثلاثين ألف مقاتل، فسيّر إليهم معاوية بن حديج جيشاً من المسلمين فقاتلوهم فانهزمت الروم». وقال ابن خلدون «.. فَقَاتَلهم معاوية بن حُديج فهزمهم، ثم حاصر جلولاء، وقَاتَلَ مدد الروم الذي جاءها من قسطنطينية، لقيهم بالقصر الأحمر فغلبهم وأقلعوا إلى بلادهم، ثم بَثّ معاوية بن حُديج السرايا ودوّخ بلاد أفريقية فأطاعوا» (ص١٨٥/ ٤) وقد هزم ابن حُديج الجيش الرومي في قونية عام ٤٤هـ ثم هزم الروم وافتتح سوسة وبنزرت وجلولاء بتونس عام ٤٥هـ/ ٦٦٥م، فانتهى بذلك الاحتلال البيزنطي الرومي في برقة وطرابلس (ليبيا) وفي تونس (أفريقية) ولم يقع أي صِدام بين العرب الفاتحين والبربر، بل أن قبيلتي لواتة ومزاتة البربريتين أظهرتا الطاعة وأسلم أكثرهما. وولى معاوية الصحابي رويفع بن ثابت الأنصاري اليماني على إقليم برقة وطرابلس عام ٤٦هـ، واستقر هناك وفي أعمال أفريقية (تونس) حاميات وقبائل من العرب الفاتحين غالبيتهم من اليمن. وكان معاوية بن حُديج هو أول من اختط القيروان كمركز للحكم والجند العربي الإسلامي بأفريقية (تونس) عام ٤٥ ـ ٤٦هـ وليس عُقبة بن نافع عام ٥٠هـ، وقد ذكر تلك الحقيقة الهامة الحافظ ابن عبد البر في كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب حيث قال: «كان معاوية بن حديج قد اختط القيروان بموضع يُدعى اليوم القرن، فنهض إليه عقبة بن نافع ـ (حين تولى أفريقية) ـ فلم يعجبه فركب بالناس إلى موضع القيروان اليوم واختطها في ذلك الموضع» (ص١٠٩/ ٣) وكان الموضع الأول الذي اختط فيه معاوية بن حديج

القيروان قريباً من الموضع الذي نقل إليه عقبة بن نافع العرب واختطه بعد خمس سنين، وقد جاء في ترجمة معاوية بن حديج بكتاب الجامع أن «.. له في أفريقية آثار، منها آبار في القيروان تُعرف بآبار حُديج وهي خارج باب تونس منحرفة عنه إلى الشرق». (ص٥٨١) وقد أدت العلاقة الطيبة مع البربر أيام ولاية رويفع بن ثابت الأنصاري لطرابلس وأيام معاوية بن حديج إلى إسلام قبائل لواتة ومزاتة وزناتة وهي من قبائل البربر ذات الأصل العربي الحميري القحطاني وقد «كانت مواطن زناتة من لدن جهات طرابلس إلى جبال الأوراس والزاب ـ في الجزائر ـ».
وقد عَلّل المستشرق قوتية (Gautier) إقبال زناتة وهي من أكبر القبائل البربرية على الإسلام بما بينها وبين العرب من تشابه في نمط الحياة. بينما ليس ذلك التشابه إلا بسبب واحدية الأصل والأرومة المشتركة.

ثالثاً: عهد ولاية مَسْلَمة بن مُخْلَد الأنصاري لمصر وبلاد المغرب (٥٠ ـ ٦٢هـ): وهو الصحابي الأمير مَسْلَمة بن مخلد الخزرجي الأزدي اليماني الأنصاري، إذْ أنه ـ وكما ذكر الطبري ـ «في سنة خمسين ولّى معاوية بن أبي سفيان مَسْلَمَة بن مخلد مصر والمغرب كله فكان أول من جُمع له المغرب ومصر وبرقة وطرابلس».
وقد كان رويفع بن ثابت الأنصاري عامل مسلمة على برقة وطرابلس حتى وفاته، أما أفريقية (تونس) فكان قد تولاها عقبة بن نافع الفهري القريشي عام ٥٠ ـ ٥٥هـ وأفرط في استعمال العنف في غزواته إلى جهات المغرب وانتهت ولايته بعزله وعودته إلى دمشق عام ٥٥هـ وولّى مسلمة بن مخلد أبا المهاجر دينار على أفريقية حيث ـ كما ذكر العرباوي ـ «قَدِم أبو المهاجر دينار سنة ٥٥هـ/ ٦٧٥م ففتح جزيرة شريك (الوطن القبلي) ثم توغّل في الداخل، وهو أول من أقدم على ذلك حتى بلغ تلمسان المنطقة التي يتركز فيها نفوذ البيزنطيين».. وقال ابن خلدون:

«في سنة ٥٥هـ استعمل مَسْلَمة بن مخلد أبا المهاجر على إفريقية، فغزا المغرب وبلغ تلمسان، وأسلم على يده الملك كسيلة ملك قبيلة أَرْوَبة والبرانس من البربر» (ص١٨٦/ ٢) وقد شهد عهد ولاية مسلمة بن مخلد ونائبه أبي المهاجر (من عام ٥٥ ـ ٦٢هـ) علاقة جيدة مع البربر في المغرب الأدنى (الجزائر) مما أدى إلى إسلام زعيمهم الملك كسيلة وبعض قومه من البربر (البرانس) وهم الأمازيغ ببلاد تلمسان والمغرب، وفي عام ٦٢هـ توفي مَسْلَمة بن مخلد الأنصاري أمير مصر وبلاد المغرب، وذلك في خلافة يزيد بن معاوية فعزل يزيد بن معاوية أبا المهاجر وأعاد عقبة بن نافع الفهري والياً على أفريقية الشمالية فتغيّر الحال، وانقطعت العلاقة الجيدة من البربر.

رابعاً: فترة حركة كُسيلة وكاهنة البربر (٦٣ ـ ٧٤هـ): لقد اتخذت المدرسة الاستعمارية وأتباعها من ذوي النزعة البربرية الانفصالية من حركة كسيلة البربري ثم كاهنة البربر دلائل على ما سمّوه مقاومة الجنس البربري للعرب (الغرباء) والعداء بين العرب والبربر، بينما يتبين من المصادر التاريخية المسار التالي:

● ـ إن العلاقة بين العرب الفاتحين والبربر كانت علاقة أخوية جيدة منذ عام ٢٧هـ ومنذ الفتح والاستقرار العربي بقيادة معاوية بن حُديج عام ٤٤هـ وحتى نهاية ولاية مسلمة بن مخلد وأبي المهاجر عام ٦٢هـ، وإن الكثير من قبائل البربر أسلم، بل أن الملك كسيلة نفسه اعتنق الإسلام على يد أبي المهاجر عام ٥٥هـ، وقد ذكر ابن الأثير في كتاب الكامل: «إن كسيلة أسلم لما وُلّي أبو المهاجر أفريقية، وحسن إسلامه، وهو من أكابر البربر وأبعدهم صوتاً، وصحب أبا المهاجر» (ص٣٠٨/٣) ومكث كسيلة مسلماً ومصاحباً لأبي المهاجر من عام ٥٥ ـ ٦٢هـ.

● ـ ثم عزل يزيد بن معاوية أبا المهاجر وولّى عقبة بن نافع عام ٦٢هـ فانتهج عقبة سياسة عنيفة معادية للبربر، وغزا مناطق من المغرب سبق فتحها ومصالحة أهلها، وتذكر الدراسات أنه: «عندما اجتاز عُقبة المغرب الأوسط متجهاً إلى طنجة نصحه أبو المهاجر بألا يغزوا من أسلموا وكانت منهم قبيلة كسيلة قائلاً له: ليس بطنجة عدو لك لأن الناس قد أسلموا وهذا كسيلة رئيس البلاد فابعث معه والياً. فأعرض عُقبة عن ذلك وأوغل في المغرب يقتل ويأسر طائفة بعد طائفة. وتعَمَّد عقبة إهانة وإذلال كسيلة». . بحيث كما ذكر ابن خلدون: «إن كسيلة اضطعن على عُقبة بما كان يعامله من الاحتقار، ثم اغتنم كسيلة الفرصة وراسل البربر، فاعترضوا عُقبة في (تهودة) وقتلوه في ثلاثمائة من أصحابه استشهدوا كلهم». وكان ذلك عام ٦٣هـ (٦٨٢م) وقام كسيلة بمراسلة الروم الذين بمناطق سواحل المغرب وتحالف معهم، وزحف إلى القيروان ـ عام ٦٤هـ ـ وكان بالقيروان القائد العربي اليمني زهير بن قيس البلوي فاستجاب لرأي غالبية الجند العربي الإسلامي والقادة بالانسحاب من القيروان لكثرة العدو فانسحب إلى برقة (ليبيا) وتمركز مع جنوده فيها، بينما دخل كسيلة وأتباعه من البربر القيروان. قال ابن الأثير: «وكان بالقيروان أصحاب الذراري والأنفال من المسلمين فطلبوا الأمان من كسيلة فأمَّنهم ودخل القيروان، واستولى على أفريقية». وبذلك خرجت القيروان (تونس) ومناطق المغرب من السلطة العربية الإسلامية وباتت تحت سلطة كسيلة المتحالف مع الروم وأتباعه من البربر الذين ارتدوا عن الإسلام. وقد تزامن ذلك مع الانقسام والصراع على الخلافة في الدولة العربية الإسلامية، وصيرورة عبد

اللّه بن الزبير خليفة في الجزيرة العربية والعراق وعبد الملك بن مروان خليفة بالشام ومصر.

● ـ وفي سنة ٦٧هـ (٦٨٦م) أمدّ الخليفة عبد الملك بن مروان الأمير زهير بن قيس البلوي اليماني بالعساكر، فزحف الأمير زهير من برقة إلى أفريقية (تونس)، فجمع كسيلة البربر والروم فاحتشدوا في (ممش) حيث ـ كما ذكر ابن خلدون ـ «زحف زهير بن قيس سنة ٦٧هـ ودخل أفريقية، ولقيه كسيلة في ممش من نواحي القيروان فهزمه زهير بعد حرب صعبة، وقتله». وقال جوليان شارل أندري في كتابه تاريخ أفريقية الشمالية: «انهزمت الجيوش البربرية والبيزنطية بعد قتال عنيف، قُتِل فيه كسيلة سنة ٦٨٦ ميلادية» (ص٢٤) وبذلك النصر الذي حققه الأمير العربي اليماني زهير بن قيس البلوي والذين معه من العرب والبربر انتهت حركة كسيلة حليف الاحتلال الرومي البيزنطي عام ٦٧هـ الموافق ٦٨٦م. ومكث زهير في أفريقية (القيروان) والياً لإقليمي برقة (ليبيا) وأفريقية (تونس) إلى عام ٦٩هـ ثم ترك عسكراً ونائباً بالقيروان وعاد إلى برقة في جمع كثير، فأغارت سفن كثيرة للروم ـ جاءت من القسطنطينية وصقلية ـ على سواحل برقة، فنهض زهير في كتيبة صغيرة من الفرسان إلى ساحل برقة، فقاتل الروم حتى استشهد هو ومن معه، فقبره هناك وقبورهم تُدعى قبور الشهداء. ويدل استشهاده ـ ٦٩هـ ـ على أن الحرب مع الروم ـ على أفريقية الشمالية ـ كانت ما تزال قائمة. وقد انسحب الروم من ساحل برقة بعد تلك الغارة واستشهاد زهير، ولكنهم كانوا في صميم حركة الكاهنة بأفريقية.

● ـ إن حركة الكاهنة البربرية (دهينا) لم تكن حركة قومية بربرية، فقد كانت الكاهنة رئيسة لقبيلة بربرية واحدة هي قبيلة جراوة بجبال الأوراس واجتمع حولها البربر غير المسلمين والمرتدين بجهات المغرب الأدنى بعد مقتل كسيلة، وتحالفت مع الروم، فكانت دوافع حركة الكاهنة ثلاثة أمور، إحداها: عقيدتها إذْ كانت هي وقبيلتها (جراوة) على دين اليهودية ـ فيما تقول الروايات ـ وكان غالبية الذين اجتمعوا حولها من البربر وثنيين، فدفعتها عقيدتها اليهودية وعقائدهم الوثنية إلى مقاومة الدين الجديد. **وثانيهما**: تحريض الروم وتحالفها مع الروم ذوي المصلحة الرئيسية في صدّ العرب والوقوف في وجه انتشار الإسلام. وثالثهما: ضعف موقف العرب بسبب انشغال الدولة العربية الإسلامية بالانقسام والصراع على الخلافة بين عبد الملك بن مروان وعبد اللّه بن الزبير، وانسحاب الجند العربي الإسلامي من القيروان إلى برقة وعودة كثير منهم إلى مصر بعد استشهاد زهير، مما أدى إلى نوع

من الفراغ. وفي ظل تلك العوامل الثلاثة سيطرت الكاهنة على أفريقية (القيروان/ تونس) وقام الروم بتعزيز وجودهم الاحتلالي في (قرطاجة بتونس) وبعض المناطق الساحلية، بينما تمركزت السلطة العربية الإسلامية في برقة (ليبيا) حيث ولّى الخليفة عبد الملك بن مروان الأمير اليماني حسان بن النعمان الغساني على إقليم برقة ـ عامة ٦٩هـ ـ وسار حسان بقوة صغيرة لقتال الكاهنة في (وادي مسكياته) ـ بشرق الجزائر ـ فتصدت له الكاهنة بجيش عظيم من البربر والروم فانهزم عسكر حسان في وادي مسكياته وعاد حسان إلى برقة وكتب إليه عبد الملك بن مروان بأن يرابط في برقة حتى يأتيه المدد، بينما صارت الكاهنة (اليهودية/ الوثنية) ملكة ذات شأن كبير.

● ـ ولما انتهت فتنة ابن الزبير واستتب أمر الخلافة لعبد الملك بن مروان بعث الإمدادات من أهل اليمن والجزيرة العربية ومن جند الشام ومصر إلى الأمير حسان بن النعمان في برقة ـ ٧٤هـ ـ فزحف حسان بجيشه العربي ـ الذي كان غالبيته من اليمنيين ـ وانضمّ إليه كثير من البربر، فدخل حسان مناطق أفريقية (تونس) وأخذ الذين فيها من البربر ينضمون إلى حسان في كل منطقة حتى دخل القيروان بدون قتال، وكانت الكاهنة وأتباعها قد انسحبت إلى جبال الأوراس، ثم ـ في وقت لاحق ـ زحف حسان إلى الأوراس فهزم الكاهنة وأتباعها وقضى على الكاهنة فانتهت حركتها دون كبير قتال.

خامساً: مآثر عهد ولاية حسان بن النعمان لأفريقية الشمالية (٧٤ ـ ٨٥هـ):

وقد كان للأمير اليماني الفاتح حسان بن النعمان الغساني مآثر عظيمة ودور كبير في نشر الإسلام وترسيخ السيادة العربية الإسلامية والعصر العروبي الإسلامي بأفريقية الشمالية، وقد شاع في الكثير من الكتابات والمناهج الدراسية عدم تبيين دور حسان بن النعمان أو التركيز على عقبة بن نافع والإيهام بأنه فاتح أفريقية الشمالية بينما الحقيقة أن معاوية بن حُديج كان الفاتح الأول وإن سياسة عُقبة (عام ٦٢هـ) أدت إلى حركة كسيلة ومقتل عقبة عام ٦٣هـ وانحسار الحكم العربي الإسلامي عن المغرب والقيروان (أفريقية/ تونس) والصراع بين العرب والبربر حتى دخول حسان بن النعمان بجيش الفتح العربي الإسلامي إلى أفريقية ـ عام ٧٤هـ/ ٦٩٣م ـ فكان دور حسان أعظم الأدوار منذ بداية الفتوحات، وكان عهد ولايته لبلاد المغرب (أفريقية الشمالية) والذي دام إلى عام ٨٥هـ أهم العهود التي يجب التركيز عليها والتعريف بها، إذْ أنه:

ـ قضى حسان بن النعمان على الوجود الاحتلالي الرومي في قرطاجة وما

جاورها من مناطق الساحل حيث ـ كما ذكر ابن الأثير ـ «لما دخل حسان أفريقية، وورد القيروان، تجهز منها وسار إلى قرطاجة، ولم يكن المسلمون حاربوها قط، فلما وصل إليها رأى بها من الروم والبربر ما لا يحصى كثرة، فقاتلهم وحاصرهم وقتل منهم كثيراً، فاجتمع رأيهم (الروم) على الهرب فركبوا في مراكبهم وسار بعضهم إلى صقلية وبعضهم إلى الأندلس. ودخل حسان قرطاجة بالسيف وأرسل الجيوش فيما حولها، فأسرعوا إليه خوفاً ـ أي طائعين ـ» وبذلك انتهى الاحتلال الرومي البيزنطي نهائياً من البلاد.

ـ وكان في جيش حسان منذ مسيره من برقة إلى أفريقية (تونس) فرقة من البربر المسلمين، وأعطى حسان الأمان للبربر الذين كانوا قد أطاعوا الكاهنة في مدائن أفريقية، ولما سار حسان إلى بلاد المغرب الأدنى والأوسط وهزم الكاهنة والذين معها من البربر في الأوراس وقضى على الكاهنة وحركتها، أعطى حسان الأمان لقبائل البربر الذين كانوا مع الكاهنة وغيرهم في جبال الأوراس ونواحيها فلم يقتل ويَسْبِ ويأخذ الأموال وإنما ـ كما ذكر ابن خلدون ـ «كتب حسان الخراج عليهم، وشرط عليهم أن يكون معه اثنا عشر ألفاً من البربر ـ في عسكره ـ»، فأجابوه إلى ذلك، قال ابن خلدون: «. . وأذعن البربر لحكم حسان، ورسخت فيهم كلمة الإسلام، فتناسوا الردة». (ص١١٠/٦).

ـ وقام حسان بتجنيد اثني عشر ألفاً من بربر الأوراس والمغرب وجعلهم فرقتين كل فرقة ستة آلاف، وأمَّرَ عليهم ولديّ الكاهنة (يفرن) و(يزديان) كل واحد على ستة آلاف، وألحق بهما ثلاثة عشر رجلاً من العلماء العرب لتعليمهم الدين والقرآن فأسلموا جميعاً بمن فيهم ابنيّ الكاهنة، فكان ذلك من معالم العلاقة الأخوية بين العرب والبربر.

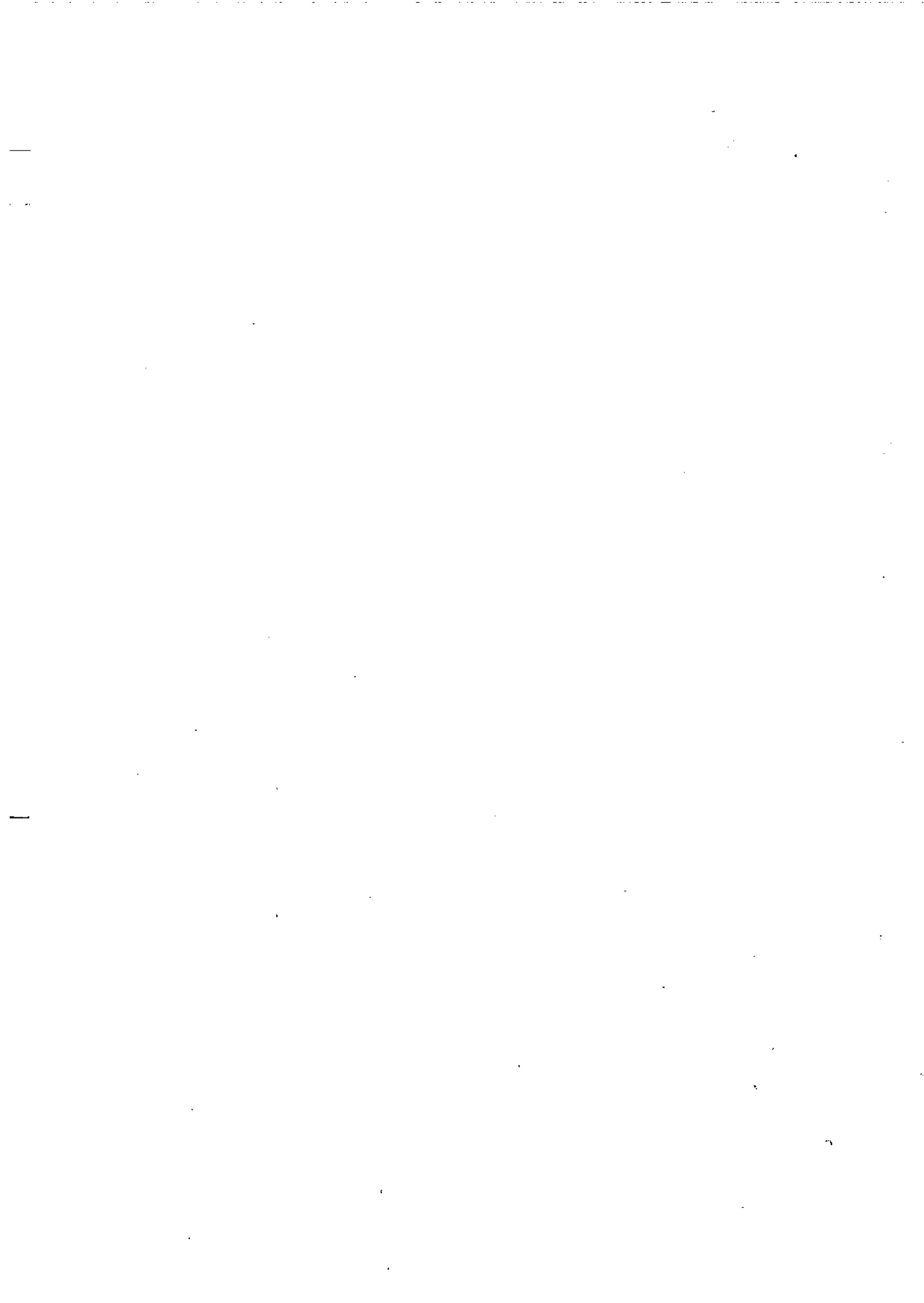
ـ وفي سنة ٧٩هـ «جَدّد حسان بناء جامع القيروان، ودوّن الدواوين، وولى الولاة»، فأسس حسان بذلك أُسس الولاية والدولة، فكان عبد الرحمن التنوخي اليماني أول قاضٍ للقيروان وأفريقية، وكان الفقيه حنش الصنعاني أول من تولى عشور أفريقية، وكان الصحابي سفيان بن وهب الخولاني عالماً ومعلماً بالقيروان. وقام حسان بتنظيم الجيش، فَقَسّمه على عدة ثغور وفرض له العطاء من بيت المال، وساوى في العطاء بين العرب الفاتحين والبربر المسلمين من أهل البلاد، وتجلت ـ في العطاء والرتب والمعاملة ـ وكان لتلك المساواة أثر طيب في انتشار الإسلام واللغة العربية.

وجعل حسان اللغة العربية هي اللغة الرسمية في البلاد، واشترط على موظفي

الدولة إتقانها واستخدامها في مختلف الدواوين، فانتشرت اللغة العربية. وقام حسان ببناء مدينة تونس وبناء «دار صناعة السفن» في تونس، فجعل تونس مدينة هامة وميناءً ومركزاً للسفن العربية الإسلامية وتوطدت في عهد حسان دعائم العروبة والإسلام.

وقد اختتمتُ الفصل الخامس بعهد ولاية موسى بن نُصير اللخمي اليماني لبلاد المغرب (٨٨ ـ ٩٣هـ) حيث قام موسى بن نصير بفتح المغرب الأقصى وتحرير طنجة من الاحتلال القوطي الأسباني عام ٨٩هـ، وجعل طنجة قاعدة لبلاد المغرب الأقصى وأسكن فيها جيشاً من العرب والبربر، وأسلم على يده بربر المغرب الأقصى، وترك معهم فقهاء يعلمونهم الإسلام والقرآن واللغة العربية، فانتشرت بينهم اللغة العربية، واكتمل رسوخ الإسلام والعروبة في كل أرجاء بلاد المغرب، وتوطدت علاقة الأخوة بين العرب الفاتحين والبربر العرب القدماء الذين تتجلى دلائل عروبتهم في هذا الكتاب. واللّه الموفق.

محمد حسين الفرح
صنعاء/ ٢٠٠٤م



انتقال الطبقة الأولى من البربر (أمازيغ بن كنعان) من اليمن إلى بلاد المغرب

في زمن إفريقيس بالقرن الثاني عشر ق. م.

البربر قبائل يمانية عربية انتقلوا من اليمن (جنوب الجزيرة العربية) إلى بلاد المغرب (أفريقية الشمالية) في ثلاث موجات رئيسية خلال عصور الحضارة اليمنية التليدة، لتكوين مستوطنات تجارية بأرجاء بلاد المغرب ثم لتعزيز المستوطنات التجارية وتأمين الطرق التجارية البرية والبحرية في تلك الآفاق.

وقد أعطى علماء المؤرخين العرب الأوائل اهتماماً خاصاً بذكر الموجة الأولى الرئيسية من البربر الذين نقلهم ـ أو ساقهم ـ إلى بلاد المغرب الملك إفريقيس بن ذي المنار بن الرائش ملك سبأ ـ في القرن الثاني عشر قبل الميلاد ـ وفيه قال المؤرخ العلامة نشوان بن سعيد الحِمْيَري[1] في قصيدته عن تاريخ عظماء ملوك اليمن التبابعة القدماء:

والعبدُ ذو الأذعار إذْ ذَعَرَ الورى ... بوجوه قوم في السَّباء قِباح
وأخوه إفريقيسُ وارثُ مُلكهِ ... حَتْفُ العدو، وجابر الممتاح
مَلِكٌ بَنى في الغرب إفريقيةً ... نُسِبَتْ إليه بأوضح الإيضاح
وأحلَّ فيها قومه فَتَملكوا ... ما حولها من بلدةٍ ونواحي[2]

وبالرغم من أن ابن خلدون انتقد ما ذكره المؤرخون عن ذلك فقد أشار إلى مسألة هامة هي إجماع المؤرخين على ذكر وقوع ذلك حيث قال ما يلي نصه: «ينقل المؤرخون كافة في أخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب إنهم كانوا يغزون من اليمن إلى أفريقية والبربر من بلاد المغرب، وإن إفريقش من أعاظم ملوكهم الأول وكان لعهد موسى عليه السلام غزا أفريقية وأثخن في بلاد المغرب

---

(١) نشوان بن سعيد الحميري: مؤرخ وعالم يمني كبير. توفي عام ٥٧٣هـ. قال الخزرجي: كان أوحد أهل عصره.

(٢) السيرة الجامعة ـ قصيدة نشوان الحميري ـ ص٧٠.

وأنه الذي سمّاهم بهذا الاسم. . وأنه لما انصرف من المغرب حجز هنالك قبائل من حِمْيَر فأقاموا بها واختلطوا بأهلها ومنهم صنهاجة وكتامة، ومن هنا ذهب الطبري والجرجاني والمسعودي وابن الكلبي والسهيلي أن صنهاجة وكتامة من حِمْيَر، وتأباه نسّابة البربر وهو الصحيح. وذكر المسعودي: أن ذا الأذعار من ملوكهم قبل إفريقش غزا المغرب ودوّخه. وكذلك ذكر مثله عن ياسر ـ النعم ـ من بعده، وأن ياسر بلغ وادي الرمل في بلاد المغرب، وكذلك يقولون في تُبّع الآخر وهو أسعد أبو كرب»[١].

وبصرف النظر عن رأي ابن خلدون الذي سيأتي ذكره ومناقشته، فإنه يتبين من ذلك ما يلي:

أ ـ إن كافة المؤرخين قد ذكروا ونقلوا نبأ الملك إفريقيس (إفريقش) ومسيره إلى بلاد المغرب وأنه كان في زمن النبي موسى عليه السلام ـ أي في القرن الثاني عشر قبل الميلاد كما سيأتي ـ وكان ممن أوطنهم إفريقيس هناك قبائل من حِمْيَر وبالذات صنهاجة وكتامة، ثم قال ابن خلدون: «وتأباه نسّابة البربر وهو الصحيح» أي أن نسّابة البربر يأبون أن صنهاجة وكتامة من قبائل حِمْيَر ويقولون أنهم من قبائل أمازيغ بن كنعان كغيرهم من البربر، أو أن البربر هم أمازيغ بن كنعان. والواقع أن علماء المؤرخين الأوائل قد ذكروا بالفعل أن الذين ساقهم وأوطنهم الملك إفريقيس ببلاد المغرب كانوا أمازيغ بن كنعان وهم البربر، أو الموجة الأولى من البربر، وفي ذلك قال عبد الخالق الشهابي ـ في أبيات ذكرها الهمداني في الإكليل ـ عن عظماء التبابعة (بعد أن ذكر الملك ذا الأذعار):

وَأَخُوْهُ الذي ساق كنعان حتى ... ألغطت في السياق بالبربار

وسيأتي تفصيل ذلك.

ب ـ إن موجة ثانية من البربر انتقلت من اليمن إلى بلاد المغرب في عهد الملك «ياسر يُنعم ملك سبأ وذي ريدان» وقد ذكر ابن خلدون «أن ياسر النعم مَلَكَ اليمن بعد بلقيس معاصرة سليمان»[٢] فيكون ذلك بعد إفريقيس بثلاثمائة سنة ـ في القرن التاسع ق. م. كما سيأتي ـ وأنه بلغ الملك ياسر وادي الرمل بأقصى بلاد المغرب. وفيه قال نشوان الحميري:

أو ياسر الملِكُ المُعيدُ لما مَضَى ... مِنْ مُلْكِ حَيٍّ لا تراهُ لَقاح

أبقى بوادي الرَّملِ أقصى موضعٍ ... بالغرب مُسنَدَ ماجِدٍ جَحْجاح

(١) مقدمة ابن خلدون ـ ص١٢.

(٢) تاريخ ابن خلدون ـ ص٥٢ جـ٢.

جـ ـ ثم وقعت موجة انتقال وهجرة ثالثة من اليمن إلى بلاد المغرب في عهد «أبي كرب أسعد تُبّع ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويُمانت وأعراب الطواد وتهامت». وقد ذكر الحسن الهمداني أنه «كان أسعد تُبّع في أيام بخت نصّر ملك بابل»(١) وذلك في القرن السابع ق. م. فتلك هي الموجات الرئيسية الثلاث التي انتقل فيها البربر من اليمن مهد العرب والعروبة إلى أرجاء بلاد المغرب بمدلولها الواسع (ليبيا ـ تونس ـ الجزائر ـ المغرب) في عصور التاريخ الحضاري التليد، وكان أولها وأهمها موجة عهد الملك إفريقيس بن ذي المنار الذي يتألق اسمه في كل كتب التاريخ والذي به نبدأ.

* * *

أولاً

اسم وعصر الملك إفريقيس ملك سبأ

هو الملك إفريقيس بن الملك أمنفيس أبره ذي المنار بن الملك أمنفيس الرائش باران ذي رياش بن قيس بن صيفي بن حِمْيَر الأصغر ذي ريدان ملك سبأ.

وقد أورد ابن خلدون وابن الكلبي اسمه بلفظ: «إفريقش» وقال محمد العرباوي: «هناك اختلاف في كتابة اسم هذه الشخصية فقد ورد ذكره هكذا: (إفريقش ـ إفريقس ـ إفريقيش ـ إفرقيس) وهو في كل الأحوال يُعدُّ ملكاً يمنياً»(٢). ولعل أغلب ذلك الاختلاف من الناسخين. وقد تواتر اسمه عند كافة علماء المؤرخين اليمنيين الأوائل عن مصادرهم الأقدم بلفظ «إفريقيس». وقال الحسن الهمداني في الأنساب بالإكليل(٣) ـ «أولد الرائش: أبرهة ذا المنار، ويُنعم تاران، وشُرحبيل. وأولد ذو المنار: إفريقيس وذا الأذعار، ومنهم من يرى أنه ـ [أي إفريقيس] ـ كان بالشين، وذلك ما لا يُعرف. ومنهم من يقول: كان اسم إفريقيس قيساً فابتنى إفريقية فأضيف اسمه إليها وإلا فإن العرب لا تكلم باسم سباعي ولا سداسي إلا أن يكونا اسمين مضافاً أحدهما إلى الآخر كعبد شمس ومعدي كرب»(٤).

---

(١) الإكليل ـ الحسن بن أحمد الهمداني ـ ص١١١ جـ٨.

(٢) البربر عرب قُدامى ـ محمد المختار العرباوي ـ ص٣٨٣.

(٣) الحسن بن أحمد الهمداني: من كبار المؤرخين العلماء بتاريخ اليمن القديم. وُلد بصنعاء عام ٢٧٠هـ وتوفي نحو سنة ٣٣٤هـ.

(٤) الإكليل ـ الحسن الهمداني ـ ص٥٣ جـ٢.

وأقول: إن الذي كان اسمه قيس إنما هو جده الملك قيس بن صيفي والد الرائش، وفيه قال نشوان:

قيسُ ابن صيفيّ أبو تُبَّعٍ وجدّه حِمْيَر الأصغر

وإن اسم إفريقيس هو بالفعل اسم سباعي لأنه يتكون بالفعل من اسمين أحدهما مضافاً إلى الآخر، وهما «إفريق» و«إيس» وكان «إيس» اسم «إلٰه الشمس» أو «الإلٰه الشمس» في ذلك الزمن التليد، فكانت الأسماء تُضاف إلى (إيس). ومثال ذلك (إدريس ـ بلقيس ـ إفريقيس ـ فينقيس ـ لميس» فتلك الأسماء مضافة إلى اسم إلٰه الشمس «إيس». فاللفظ الصحيح للاسم هو إفريقيس، وفيه قال علقمةُ بن ذي جَدَن الجاهلي:

«مَنْ يغرّ الدهر أو يأمنه بعد إفريقيس ذي الوجه الحسن»[1]

وقال السُمّيدع بن عمرو (يتمثل عهد إفريقيس):

سرنا إلى المغرب في جحفلٍ فيه ـ لَعَمْري ـ كل شاب هُمام
بأمر إفريقيس لا ننثني بكل صهّال وعضب حُسام

وقال نشوان الحميري (بعد أن ذكر الملك ذا الأذعار):

وأخوه إفريقيسُ، وارثُ مُلكه حَتْفُ العدو، وجابر الممتاح

ثم قال: «هذا الملك: إفريقيس بن أبرهة ذي المنار بن الرائش بن سدد قيس بن صيفي بن حمير الأصغر»[2] وحِمْيَر الأصغر هو الملك (حِمْير ذو ريدان) الذي قام بتشييد قصر ريدان بمدينة ظفار وجعل ظفار العاصمة الثانية لدولة سبأ إلى جانب العاصمة الرئيسية مدينة مأرب منذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وقد ذكر ابن خلدون: «إن الملك شمّر بن الأملوك كان لعهد موسى عليه السلام وبَنَى ظفار وأخرج العمالقة منها»[3]. ويعني بالعمالقة الذين كانوا يسكنون منطقة ظفار وما جاورها من قبائل كنعان حيث ينسب كنعان إلى العمالقة، فقام شمّر الأملوك بإخراج وتوجيه بعض قبائل كنعان من منطقة ظفار إلى الشام وتأسيس مدينة ظفار ثم قام حمير ذو ريدان ببناء القصر ريدان بمدينة ظفار، وكان ذلك في القرن الرابع عشر ق. م. أي قريباً من زمن النبيّ موسى في القرن الثالث عشر ق. م. لذلك قيل إنه «كان لعهد موسى عليه السلام» وقد أصبح القصر ريدن جزءاً من لقب ملك

---

(١) الإكليل ـ الحسن الهمداني ـ ص٥٣ جـ٢.
(٢) السيرة الجامعة ـ قصيدة نشوان ـ ص٧١.
(٣) تاريخ ابن خلدون ـ ص٤٩ جـ٢.

سبأ التبابعة الذين حملوا في النقوش لقب (ملك سبأ وذي ريدان) في عصور لاحقة. وكان غالبيتهم من بني حمير الأصغر ذي ريدان من منطقة ظفار الحميرية ـ التي تقع بالقرب من يريم في محافظة إب حالياً ـ وكانت والدة إفريقيس الأميرة (لميس بنت نوف بن يريم) حيث قال الهمداني في الجزء العاشر من الإكليل: «أولد يريم بن ذي مَرَغ: نوفاً. فأولد نوف: وهباً، ويريم، ولميس الكبرى أُم إفريقيس بن ذي المنار»[١]. وبذلك يكتمل النبأ اليقين عن اسم ونسب إفريقيس.

* * *

لقد كان إفريقيس رابع أربعة ملوك حكموا في عصر واحد، وهم الملك أمنفيس الرائش باران ذو رياش ثم ابنه أمنفيس أبره ذو المنار ثم إل عبد ذو الأذعار بن ذي المنار ثم إفريقيس بن ذي المنار، فكان عصرهم عصراً واحداً وكانت أحداث عهودهم مترابطة، وقد كان ذو المنار ملكاً منذ عهد أبيه ثم صار ملكاً بعده واشترك معه في الحكم ابناه ذو الأذعار وإفريقيس، فقد ذكر المؤرخون أنه «سار ذو المنار غازياً ومعه ابنه إل عبد ذو الأذعار واستخلف على اليمن ابنه إفريقيس»[٢] ويدل ذلك على أن إفريقيس كان ملكاً منذ عهد أبيه وأن ذلك العصر الذي دام مائة وعشرين سنة كان عصراً واحداً وهو العصر الأول لملوك سبأ التبابعة الذين شمل حكمهم كل أرجاء اليمن بمدلولها الواسع القديم (جنوب الجزيرة العربية) وامتد سلطانهم ونفوذهم في شمال الجزيرة وشرقها إلى تخوم الشام وبابل بحيث قال ابن خلدون: «التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب». وقال ابن خلدون: «أول الملوك التبابعة باتفاق المؤرخين الحرث الرائش.. وسُمّي الرائش لأنه راش الناس بالعطاء.. وكان يُسمّى تُبّع»[٣].

وقد أورد علماء المؤرخين العرب الأوائل تحديداً زمنياً دقيقاً لملوك ذلك العصر حيث قال الحسن الهمداني في الإكليل: «كان الرائش في عصر النبي موسى عليه السلام»[٤] وقال ابن شرية الجرهمي ونشوان الحميري «غزا الرائش من اليمن في مائة وخمسين ألفاً حتى خرج ما بين العراق والجزيرة ونزل الموصل ثم الشام وكان ذلك في زمان موسى عليه السلام»[٥] وقد سلف قول ابن خلدون: «إن

---

(١) الإكليل ـ الحسن الهمداني ـ ص٤٣ جـ١٠.
(٢) السيرة الجامعة ـ قصيدة نشوان ـ ص٧١
(٣) تاريخ ابن خلدون ـ ص٥٢ جـ٢.
(٤) الإكليل ـ الحسن الهمداني ـ ص٢١٩ جـ٨.
(٥) السيرة الجامعة ـ قصيدة نشوان ـ ص٧١.

إفريقش كان لعهد موسى عليه السلام»[١]. ويتبين من ذلك إجماع علماء المؤرخين الأوائل بأن الرائش وذا المنار وإفريقيس كانوا في الزمن الذي كان فيه النبي موسى وهو القرن الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد. فقد دَلَّت الدراسات على أنه ـ وكما جاء في كتاب الأمم السامية ومعالم تاريخ الشرق الأدنى ـ «إن موسى وقومه خرجوا من مصر في آخر عهد الفرعون رعمسيس الثاني وهو فرعون الكتاب المقدس وذلك عام ١٢٢٤ قبل الميلاد»[٢]. ثم مكث موسى وقومه في برية سيناء أربعين سنة (إلى حوالى عام ١١٨٠ ق. م). ويتبين من ذلك أن عهد الملك الرائش ـ باران ذي رياش ـ كان في تلك الفترة بالقرن الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد بإجماع علماء المؤرخين العرب الأوائل، وفي أواسط ذلك القرن الثاني عشر قبل الميلاد قاد الملك إفريقيس بن ذي المنار بن الرائش قبائل البربر إلى بلاد المغرب وأوطنهم فيها وذلك في عهد وبتوجيه أبيه الملك أمنفيس ذي المنار بن الرائش معاصر النبي موسى عليه السلام.

وهنا يجب ـ أولاً ـ تبيين وجود دولة سبأ في ذلك الزمن والدلائل والشواهد الأثريّة والتاريخية على ذلك العصر السبئي الحضاري التليد، لأن بعض علماء المستشرقين والأكاديميين قد أشاعوا في الدراسات والمناهج التاريخية أن تاريخ دولة وحضارة سبأ لا يرجع إلى ما قبل القرن السابع أو القرن الخامس قبل الميلاد وإن دولة سبأ لم تكن موجودة في زمن النبي موسى ـ الذي هو زمن الرائش وإفريقيس ـ بالقرن الثالث عشر والثاني عشر ق. م. ـ ولا في زمن النبي سليمان ـ الذي هو زمن الملكة بلقيس بالقرن العاشر قبل الميلاد. ولكن التنقيبات والمكتشفات الأثرية والمصادر التاريخية تؤكد وجود دولة سبأ وأن حكمها كان يشمل كل اليمن ويمتد إلى خارجها وأن ملوكها التبابعة كانوا ـ كما وصفهم المؤرخ المسعودي ـ «تاج الأرض».

إن من الشواهد الأثرية والدلائل التاريخية على ذلك العصر الحضاري السبئي التليد:

١ ـ تنقيبات ومكتشفات البعثة الأثرية الأميركية برئاسة د. جيمس ساور من جامعة بنسلفانيا في منطقة الجوبة ووادي الخانق بمأرب عام ١٩٨٣ ـ ١٩٨٥م ـ حيث كما ذكر جيمس ساور: «عثرت البعثة على لقى أثرية سبئية ترجع إلى القرن

---

(١) مقدمة ابن خلدون ـ ص١٢.

(٢) معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم ـ د. محمد أبو المحسن عصفور ـ ص٣١٧.

الثالث عشر قبل الميلاد.. ومنها قطعة من المحتمل أن يكون عمرها أقدم قرناً أو أكثر» وقال جيمس ساور: «إن هذه المكتشفات تبرهن بأن سبأ أقدم مما يظن العلماء»[١]. ـ أي أقدم مما يظن علماء المستشرقين فهي تبرهن على وجود دولة سبأ في الفترة (١٤٠٠ ـ ١٢٠٠ ق. م.) ـ وكذلك عثرت بعثة أميركية في موقع هجر حميد بمنطقة شبوة على آثار سبئية وقد أكّد د. فان بيك أنها «تعود إلى القرن الحادي عشر ق. م.»[١].

٢ ـ كشفت وأثبتت تنقيبات بعثة معهد الآثار الألماني ببرلين في موقع ومنشآت سد مأرب السبئي العظيم ـ عام ١٩٨٤م ـ «إن سد مأرب كان موجوداً في مطلع القرن العاشر إلى القرن السابع قبل الميلاد»[٢]. ثم كشفت البعثة الألمانية ـ عام ١٩٨٨م ـ «إن بعض منشآت سد مأرب يعود زمنها إلى مطلع الألف الثاني قبل الميلاد»[٣] وبذلك فقد ثبت وجود سد مأرب السبئي منذ القرن العشرين ثم القرن الخامس عشر إلى القرن العاشر ق. م. واستمرار وجوده في الألف الأول قبل الميلاد. وقد جاء في تقرير البعثة الألمانية: «إن سد مأرب كان صرحاً عملاقاً استمر في أداء وظيفته آلاف السنين»[٢].

٣ ـ تم العثور على خمس مومياءات يمنية سبئية في ناووس جبل الغراس بمنطقة شبام بين مأرب وصنعاء، وقام المختبر الفيزيائي الهولندي بفحص عينات منها بأشعة الكربون. حيث أسفر فحصها عن نتائج وصفها مدير المختبر الفيزيائي الهولندي بأنها «نتائج مثيرة وتبوح بمعلومات كثيرة». ومنها ـ كما جاء في تقرير المختبر الفيزيائي الهولندي:

«إن زمن المومياء الثانية هو ما بين ١٢٦٥ ق. م. ـ ٩٣٠ ق. م.
وزمن المومياء الخامسة هو ما بين ٩٦٠ ق. م. ـ ٩٣٠ ق. م»[٤].

وبالتالي فإن زمنها هو القرن الثالث عشر إلى القرن العاشر قبل الميلاد وتوجد المومياءات حالياً بمتحف جامعة صنعاء.

٤ ـ تم منذ وقت مبكر العثور في صنعاء ومأرب وتهامة على قطع أثرية يمنية عليها كتابة ورموز بالكتابة التصويرية (الهيروغليفية) تعود إلى القرن الخامس عشر حتى

(١) صحيفة نيويورك تايمز الأمركية ـ عدد ٤/ ٢/ ١٩٨٦م.
(٢) تقرير معهد الآثار الألماني ـ ٨٣/ ٨٤م.
(٣) مكتشفات أثرية جديدة ـ د. يوسف محمد عبد الله ـ مجلة الوطن ـ العدد ٥/ السنة ١١/ يونيو ١٩٨٨م.
(٤) تقرير المختبر الفيزيائي الهولندي ـ صحيفة الاتحاد ـ أبو ظبي ـ عدد ٢٣/ ١١/ ١٩٨٨م.

القرن الثاني عشر ق. م. وقد عثر عليها واشتراها في رحلته إلى اليمن كلٌ من العالم الألماني كارل راتجنس (Carl rathjens) وزميله فايسمان (V. Wissman) وقاما بنشرها عام ١٩٣٣م ثم في كتاب كارل راتجنس الصادر في هامبورج عام ١٩٥٥م بعنوان Sabeica[1] وكذلك عدة قطع أثرية عثر عليها أو اشتراها العالم المصري د. أحمد فخري في رحلته الأثرية إلى اليمن عام ١٩٤٨م. ومن تلك القطع الأثرية التي نشرها كارل راتجنس وأحمد فخري:

أ ـ قطعة من الفيانس الأزرق منحوت عليها الصقر ورمز حوريس، تم العثور عليها في صنعاء[1].

ب ـ جعران من الفيانس الأزرق باسم الإله (أنوبيس)[1].

جـ ـ جعران من الفيانس الأزرق باسم (رع حور أختي سيد المشرقين)[1].

د ـ جعران باسم الإله (الحور). تم شراؤه من الحديدة[1].

هـ ـ قطعة أثرية تعود إلى القرن الخامس عشر ق. م. قال د. أحمد فخري أنها تذكر «تحوتمس الثالث ملك مصر ١٤٦٨ ـ ١٤١٦ق. م»[1]. وكذلك جعران أثري من القرن الرابع عشر ق. م. قال د. أحمد فخري أنه «يذكر أمنحوتب ملك مصر الذي حكم من ١٤٠٥ ـ ١٣٦٧ ق. م»[1]. وتدل على العلاقة الوثيقة والطيبة بين مصر الفرعونية وملوك اليمن في ذلك العصر بالقرن الخامس عشر والقرن الرابع عشر ق. م.

و ـ قطعة أثرية يمنية على أحد وجهيها رسم للصقر وقرص الشمس، وفي الوجه الآخر رسم يُمثل ملكاً وكلمة «أمنفيس سيد عروش الأرضين» أو «ملك ملوك الأرضين». وكان ذلك من ألقاب الملك أمنفيس الرائش باران ذي رياش ملك سبأ. قال نشوان الحميري: «كان الرائش يُدعى بملك الأملاك. ولا ملك الأملاك إلا اللّه عزّ وجلّ»[2]. وقال علقمة بن ذي جَدَن:

أو ملك الأملاك ذو رائش ... كان مهيباً جائزاً ما صنع

---

(١) بونت بين المصادر اليمنية والمصرية القديمة ـ د. أبو العيون بركات ـ مجلة اليمن الجديد ـ العدد ٢/ ١٥/ فبراير ١٩٨٦م ومجلة الإكليل ـ العدد ١/ السنة ٥/ ١٩٨٧م. عن كتاب:

Varislamishe abtertumer - carl rathjens V. Wissman. 1933.

وكتاب: SABEICA - carl rathjens. hamburg - 1955. p. 215 - 217.

وكتاب: رحلة أثرية في اليمن ـ د. أحمد فخري ـ ١٩٤٨م.

(٢) السيرة الجامعة ـ قصيدة نشوان ـ ص.

قال الحسن الهمداني: «وإنما سُمّي الرائش لأنه راش الناس بالغنائم، وقد يُقال ذو رياش، ومن يقول ذلك ينشد بيت امرئ القيس الكندي:

أزال من المصانع ذا رياش وقد مَلَكَ الحزونة والرمالا
هُمامٌ طحطح الآفاق دحياً وألقى في مشارقها الرعالا»[١]

وكان لقبه الديني «أمنفيس» ويعني المؤمن بالإله إيس إله الشمس، واسمه الشخصي «باران ذو رياش» وشمل حكمه كل بلاد وقبائل اليمن وجزيرة العرب تحت لواء دولة سبأ، ثم قام بقيادة وتوجيه قبائل وجنود كثيفة لتكوين مستوطنات تجارية والسيطرة على الطرق التجارية وتأمينها وذلك إلى بلاد بابل وأشور (الجزيرة الفراتية) والشام وغيرها فاجتاحوها واستقروا بها ولذلك قيل له: «ملك الأملاك» أو «سيد عروش الأرضين» أو «ملك ملوك الأرضين» كما في القطعة الأثرية المعثور عليها في مأرب.

وكذلك فإن من القطع الأثرية لذلك العهد «جعران باسم أمنفيس/ذي منار. وجعران عليه صورة قرص الشمس وهو يخرج من الأُفق». ويعود زمنهما أيضاً إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد.

٥ ـ أسفرت تنقيبات البعثة الأثرية الألمانية في (معبد باران) المشهور باسم (عرش بلقيس) في مأرب عاصمة سبأ عن كشف أن الزمن الصحيح للمعبد يعود إلى القرن الحادي عشر والقرن العاشر قبل الميلاد، وليس القرن الخامس ق. م. كما كان يظن المستشرقون والأكاديميون بحيث قال د. يوسف محمد عبد اللّه: «كنا نؤرخ لمعبد بران المشهور بعرش بلقيس بفترة لا ترجع إلى ما قبل النصف الثاني من الألف الأول ق. م. ولكن هذه المكتشفات ـ للبعثة الألمانية ـ تضعنا أمام فترة أقدم بكثير تعود إلى مطلع الألف الأول قبل الميلاد»[٢] ثم «كشفت البعثة الألمانية أن الأجزاء الأقدم في معبد بران تعود إلى القرن الحادي عشر قبل الميلاد»[٣]. وقد شاع ذكر المعبد بلفظ (معبد بران) ويجوز أن يُنطق ويقرأ (معبد باران) مما يشير إلى أنه سُمّي باسم الملك الرائش باران ذي رياش وهو أعظم ملوك سبأ التبابعة. وكذلك كان (معبد أوام) المشهور باسم (محرم بلقيس) موجوداً منذ القرن الحادي عشر وفي القرن العاشر قبل الميلاد. وينطبق ذلك

---

(١) الإكليل: الحسن الهمداني ـ ص٥٢ جـ٢.

(٢) مكتشفات أثرية جديدة ـ د. يوسف محمد عبد اللّه ـ مجلة الوطن ـ العدد ٥ ـ السنة ١١ ـ يونيو ١٩٨٨م.

(٣) أوراق المؤتمر الدولي للآثار والحضارة اليمنية ـ صنعاء ـ مارس ١٩٨٨م.

على زمن النقوش والآثار المعثور عليها في معبد باران ومعبد أوام وقد كان المستشرقون يؤرخون لها بفترة ترجع إلى ما بعد القرن الخامس ق. م. ولكن الزمن الصحيح للمعبدين يدل على أن زمن تلك النقوش السبئية يعود إلى الفترة منذ مطلع القرن الحادي عشر ق. م. وهي بأسماء ومن عهود ملوك سبأ التبابعة الذين تعاقبوا على الحكم من القرن الحادي عشر إلى القرن السادس ق. م. ونقوشهم مؤرخة بتقويم سبئي تدل القرائن على أن العام الأول فيه يوافق عام ١٢٢٠ ق. م. ومنها نقش مسند باسم الملك (ياسر ينعم ملك سبأ وذي ريدان) وهو مؤرخ بخريف خمسة وثمانين وثلاثمائة[1] ـ أي سنة ٣٨٥ للتقويم السبئي والزمن الصحيح الموافق لذلك هو سنة ٨٣٥ قبل الميلاد، أي القرن التاسع ق. م. الذي حدده علماء المؤرخين العرب الأوائل زمناً للملك ياسر ينعم الذي بلغ وادي الرمل بالمغرب. ويتبين من ذلك أن العام الأول في ذلك التقويم السبئي يوافق عام ١٢٢٠ ق. م. وهو أول أعوام عهد الرائش باران ذي رياش جد الملك إفريقيس والذي يؤكد زمنه أيضاً معاصرته للنبي موسى كما سلف التبيين. وقد كان عهد الرائش باران ذي رياش بداية لمرحلة هامة وعظيمة في التاريخ الحضاري التليد وهي تكوين ونشر المستوطنات التجارية والسيطرة على الطرق التجارية وتأمينها في أرجاء واسعة وتكوين عالم تجاري كبير بزعامة سبأ في الآفاق الممتدة، ولذلك اتخذ ملوك سبأ التبابعة في العصور اللاحقة أول أعوام عهد الرائش بداية للتقويم السبئي التليد.

لقد حكم الملك الرائش باران ذو رياش أربعين سنة (من عام ١٢٢٠ ـ ١١٨٠ ق. م.) ومنذ عهده كان سلطان دولة سبأ وملوك سبأ التبابعة يشمل كل بلاد اليمن بمدلولها الواسع القديم (جنوب الجزيرة العربية) ويمتد في شمال الجزيرة العربية إلى تخوم الشام وتخوم بلاد بابل. وقد دلَّت الدراسات والنقوش اليمانية والأشورية والبابلية والمصادر التاريخية على أنه ـ وكما جاء في كتاب الأمم السامية «كانت مملكة سبأ تمتد إلى شمال الجزيرة العربية، وكانت حدود سبأ من الشمال تتاخم دولة سليمان بفلسطين في عهد بلقيس ملكة سبأ المذكورة في الكتب السماوية»[2]. وكان ذلك الامتداد الجغرافي لدولة سبأ منذ عصر الرائش وإفريقيس ـ بالقرن الثاني عشر ق. م. ـ إلى عهد بلقيس ملكة سبأ التي عاصرت النبي سليمان ـ في القرن العاشر ق. م. من المعالم الرئيسية لواقع دولة سبأ في عصور ملوك سبأ التبابعة

(١) نقوش سبئية من محرم بلقيس ـ ألبرت جام ـ نقش ياسر يهنعم.
(٢) الأمم السامية ـ حامد عبد القادر ـ ص٨٤.

التي تواصلت لعدة قرون في الألف الأول ق. م. بحيث وكما ذكر ابن خلدون: «كان التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب». وقد كان ذلك بصفة أساسية منذ عهد الرائش باران ذي رياش وخلفائه ذي المنار وذي الأذعار وإفريقيس بالقرن الثاني عشر ق. م. واستمر ذلك الواقع إلى عهد بلقيس وعهد ياسر وغيرهما من ملوك سبأ التبابعة.

وقد شهد عهد الرائش إلى عهد إفريقيس القيام بغزوات وفتوحات وعمليات خارجية واسعة انتقلت خلالها قبائل كثيرة من اليمن وجزيرتها العربية إلى بلاد الرافدين والمشرق والشام والمغرب في إطار خطة متكاملة تم تنفيذها على عدة مراحل تفصل بين كل منها عشر سنوات أو عشرون سنة وكان هدفها تكوين عالم تجاري كبير بزعامة سبأ وفي إطار تلك الخطة كان مسير الملك إفريقيس بقبائل البربر إلى بلاد المغرب.

* * *

ثانياً

مسير الملك إفريقيس بالبربر إلى بلاد المغرب في إطار تنفيذ خطة تكوين عالم تجاري كبير بزعمة سبأ

لقد كانت دولة سبأ ذات نشاط تجاري عالمي في عصور ملوك سبأ التبابعة، وقد نقل د. عدنان ترسيسي عن المؤرخ اليوناني أغاثر سيدس نصاً تاريخياً هاماً حيث قال أغاثر سيدس: «كان السبئيون أغنى أهل الأرض، وسبب غناهم اتجارهم بغلال بلاد العرب والهند فيحملونها على القوافل إلى الغرب أو بحراً إلى بابل، ولهم سفن ضخمة تسير في المحيط الهندي ومراكب تسير في الأنهار، وقد يصعدون في دجلة إلى مدينة (أوبيس) ومنها تُنْقَلُ بضائعهم وتنتشر في بلاد مادي وأرمينية وما جاورها»[(١)].

ولم يكن ذلك ممكناً إلا من خلال وجود وانتشار المستوطنات التجارية اليمنية السبئية في تلك الآفاق حيث قال المؤرخ موسكاتي: «أتاحت القواعد التجارية التي أقامتها الممالك اليمنية على سواحل الهند والصومال أن يحتكر

---

(١) اليمن وحضارة العرب ـ د. عدنان ترسيسي ـ ص٢٩.

اليمنيون الموارد والبضائع التجارية في آسية وأفريقية»[١]. ونقل د. أبو العيون بركات أنه «قال سمويل كريمو: كانت العربية السعيدة تشرف على التجارة في الطريق الممتد بين المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط». وقال د. أبو العيون بركات: «كان اليمن مركزاً تجارياً كبيراً يسيطر على التجارة وطرقها البرية والبحرية. وكان اليمنيون وسطاء التجارة بين مصر وما بين النهرين والبنجاب ـ بالهند ـ»[٢].

وقد كان ذلك ثمرة ونتيجة خطة كبرى لتكوين ونشر المستوطنات التجارية والسيطرة على الطرق التجارية وتأمينها وتوطين حاميات عسكرية وقبائل من اليمن في تلك الأرجاء لتكوين عالم تجاري كبير بزعامة سبأ في عهد الرائش باران ذي رياش وابنه ذي المنار وحفيديه ذي الأذعار وإفريقيس بالقرن الثاني عشر ق. م. وقد ذكر المؤرخون العرب ذلك كغزوات وفتوحات ولكن جوهرها وهدفها كان تكوين المستوطنات التجارية وتوطين حاميات وقبائل فيها والسيطرة على الطرق التجارية وتأمينها وبالتالي تكوين عالم تجاري كبير بزعامة سبأ فقد بدأ الملك الرائش بتنفيذ المرحلة الأولى من الخطة في السنة الخامسة من عهده ـ وهي سنة ١٢١٥ ق. م. ـ حيث قام بقيادة وتوجيه جيش كثيف وقبائل كثيرة إلى بلاد بابل أشور وما يليها من فارس وسواحل الهند براً وبحراً، فاجتاحوا المناطق الرئيسية تدريجياً وأسسوا المستوطنات التجارية والمراكز العسكرية في بلاد بابل ـ ومنها (أوبيس) ـ وفي بلاد مادي الفارسية إلى سواحل الهند حيث كما ذكر نشوان الحميري: «استخلف الرائش القائد يُعفر بن عمرو بن ذي أبين في اثني عشر ألف فارس في أرض الهند وأمره ببناء مدينة هنالك فابتنى مدينة سمَّاها الراية ـ أو (الرابة) ـ»[٣] فكانت تلك المدينة مستوطنة تجارية يمانية سبئية وأوطن بها الرائش اثني عشر ألفاً بعائلاتهم، وفعل مثل ذلك في بلاد بابل وفي مادي وفي أشور، وكان أغلب الذين أوطنهم بها من القبائل اليمانية الأرامية السامية، واستغرقت تلك المرحلة عشر سنوات، ثم عاد الرائش إلى اليمن، وأقام خمس سنوات، ثم انطلق لتنفيذ المرحلة الثانية من الخطة إلى الشام وما يليها حيث كما ذكر نشوان: «أن الرائش بلغ إلى أرض أرمينية ثم رجع إلى الشام»[٣]. وقد أوطن الرائش بمناطق من

---

(١) الحضارات السامية ـ موسكاتي ـ ص١١٧.

(٢) بونت بين المصادر اليمنية والمصرية القديمة ـ د. أبو العيون بركات ـ مجلة اليمن الجديد ـ العدد ٢/ السنة ١٥/ فبراير ١٩٨٦م.

(٣) السيرة الجامعة ـ قصيدة نشوان ـ ص٦٥.

الشام وما يليها حاميات عسكرية وقبائل من الذين معه وكانوا بصفة رئيسية من الأراميين وكنعان. ويقُابل ذلك ما تذكره دراسات تاريخ الأمم السامية عن هجرة الأراميين الساميين من جنوب الجزيرة العربية إلى بلاد بابل وأشور والشام حيث جاء في كتاب الأمم السامية ما يلي نصه: «أغار الأراميون على بلاد بابل ثم بلاد أشور جميعها وكانوا في أعداد ضخمة وقوية، ثم تدفقوا إلى سورية، وظلوا في طريقهم يغزون ويفتحون ولم تقف في طريقهم إلا جبال أرمينية ـ في الشمال ـ والبحر المتوسط ـ غرباً ـ» وجاء في كتاب الأمم السامية أيضاً عن سبب تلك الموجة من هجرة وغزوات الأراميين ما يلي نصه: «من المرجح أن ذلك يرجع إلى قيام دولة كبرى في جنوب الجزيرة العربية»[١]. ويتبين مما تقدم أنها دولة سبأ بزعامة الرائش باران ذي رياش وأن الذين سُمِّيوا أراميين هم من جيش وقوم الرائش وقد أسسوا المدن والمستوطنات التجارية هناك حيث كما جاء في كتاب معالم تاريخ الشرق الأدنى: «أسس الأراميون المدن والممالك في سورية وأصبحت دمشق مركز دولة قوية لهم منذ عام ١٢٠٠ ق. م. وكانت حلب وقرقميش وصوبه من عواصمهم، وكوّنوا أسرات حاكمة في عواصم المملكة الحثية التي استولوا عليها ـ ببلاد الأناضول ـ وكانت مدينة أضنة من عواصمهم وكان حاكمها والياً من جانب ملك أعلى»[٢]. وكذلك كان من الذين أوطنهم الرائش بالشام والذين كانوا مستقرين بها في عهده قبائل كنعانية من بينهم عشائر من قبيلة أمازيغ بن كنعان الذين كان أكثرهم ما زالوا في مناطقهم باليمن، وكذلك الفينيقيون الكنعانيون حيث تدل الدراسات على أنه ـ كما قال الباحث اللبناني فرج اللّه ديب ـ «إن من سمّيوا فينقيين ليسوا إلا أجدادنا عرب الحضارة اليمنية»[٣].

وقد اشترك ذو المنار بن الرائش في الحكم وفي تنفيذ عمليات المرحلة الثالثة من خطة تكوين العالم التجاري الكبير إلى ما يلي الشام من البحر وجهات الغرب في عهد أبيه الملك الرائش ملك الملوك ثم بعد وفاة الرائش حيث تولى ذو المنار الحكم بعد أبيه ـ عام ١١٨٠ ق. م. وحكم ٣٨ سنة واستمر في تنفيذ خطة تكوين العالم التجاري الكبير، وفيه قال نشوان الحميري:

أو ذو المنار بَنَى المَنارَ إذا غزا ... ليُدلَّه في رَجْعة ومَراحِ
ألقى بمُنقَطعِ العِمارة بَرْكَهُ ... في الغرب يدعو لاتَ حين براحِ

---

(١) الأمم السامية ـ حامد عبد القادر ـ ص١٠٥.

(٢) معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم ـ د. محمد أبو المحسن عصفور ـ ص٢٧٣.

(٣) اليمن هي الأصل ـ د. فرج اللّه ديب ـ ص١٦.

قال نشوان: «ويُسمى ذا المنار لأنه أول من نصب المنار والأعلام والأميال على الطريق ليهتدي بها جيشه عند القفول وكان غزوهم إلى منقطع العمارة في الغرب، فَمَلَك تلك النواحي، وولى بها العُمال والولاة الكفاء»[١]. فتولية العمال والولاة يشير إلى قيامه بتوطين حاميات وقبائل كمستوطنات وقواعد تجارية في تلك الجهات من الغرب التي دخلها براً وبحراً. وفيه قال اليحموم بن المنتاب في أبيات ذكرها الهمداني في الإكليل يضرب فيها المثل بذي المنار:

ولقد بلغت من البلاد مبالغاً ... يا ذا المنار وضعضعت لجلالكا
قدت الجنود إلى الجنود سريعة ... وحملت منها في السفين كذالكا
قالت لك الأرضون سمعاً طاعة ... لم تستطع أن تصطبر لقتالكا

وبعد نحو عشر سنين من عهد ذي المنار ـ أي حوالي عام ١١٧٠ ق. م. ـ سار الملك ذو المنار ومعه ابنه الملك إل عبد ذو الأذعار لتنفيذ مرحلة رابعة من خطة تكوين العالم التجاري الكبير واستخلف على اليمن ابنه الملك إفريقيس بن ذي المنار حيث كما ذكر نشوان الحميري وابن شريه: «سار ذو المنار غازياً ومعه ابنه العبد ذو الأذعار واستخلف على اليمن ابنه إفريقيس. وسار ذو المنار حتى أوغل في أرض السودان براً وبحراً، وأمعن فيها، ثم بدا له المقام فأقام، وسرح ابنه إل عبد ـ ذا الأذعار ـ في غرب الأرض في عسكر حتى انتهى إلى قوم ـ يُقال إن وجوههم في صدورهم وكانوا قباح الوجوه ـ ورجع إلى أبيه بسبيّ من أولئك القوم، فلما قَدِم إلى أبيه ذعر الناس منهم». وفي ذلك قال نشوان:

والعبد ذو الأذعار إذْ ذَعَرَ الورى ... بوجوه قوم في السّباء قِباح
قومٌ من النسناس مذكورون في ... أقصى الشمال شمال كل رياح

قال عبيد بن شريه: «فلما رجع ذو المنار من غزوته تلك أمر بمنارة فبُنيت وشبَّ فيها النيران لتهتدي بها جيوشه، وكان ذلك المنار أول منار وضعه الملوك»[١]. وعاد ذو المنار من ذلك المسير في أرض السودان وما يليها ـ كالنوبة والحبشة والصومال ـ إلى اليمن بعد تكوين مستوطنات تجارية في تلك الجهات.

ثم في نفس عهد الملك ذي المنار بن الرائش انطلق الملك إفريقيس من اليمن لتنفيذ المرحلة الخامسة من خطة تكوين العالم التجاري الكبير وذلك إلى بلاد المغرب حيث سار إفريقيس من اليمن بجيش من فرسان سبأ وقبائل حميريّة وقبيلة كنعان التي كان بعضها باليمن وبعضها بالشام فسار إفريقيس بهم جميعاً قاصداً بلاد

---

(١) السيرة الجامعة ـ قصيدة نشوان ـ ص٧١.

المغرب الشاسعة ولم يكن مسيره للغزو واحتلال تلك البلاد وإنما كان لتكوين مستوطنات ومراكز تجارية وتوطين كنعان وقبائل وحاميات حميرية سبئية هناك، فقد كانت بلاد المغرب في ذلك الزمن نادرة السكان فيها عشائر كوشية حاميّة ـ أي سوداء زنجية غالباً ـ ولم يكن فيها حتى مدينة واحدة بل وكانت أغلب تلك البلاد براري شاسعة غير مسكونة فكان مسير الملك إفريقيس والذين معه إلى بلاد المغرب أبعد من أن يوصف بالغزو فقد كان بداية حياة وبداية تاريخ وبداية أُمة في تلك الآفاق الممتدة عبر ليبيا وتونس والجزائر إلى المغرب وساحل المحيط الأطلسي. وهو ما يتجلى في قول نشوان الحميري بعد ذكره للملك ذي الأذعار:

وأخوه إفريقيس وارثُ مُلكهِ ... حَتْفُ العدو وجابر المُمتاح
مَلِكٌ بَنَى في الغرب أفريقيةً ... نُسبت إليه بأوضح الإيضاح
وأحلَّ فيها قومه فتملكوا ... ما حولها من بلدة ونواحي

وقد ذكر ابن خلدون في التاريخ ما يلي نصه: «مَلَكَ بعد الرائش ابنه أبرهة ذو المنار وسُمّي ذا المنار لأنه رفع المنار ليُهتدى به، ثم مَلَكَ أفريقش بن أبرهة ذي المنار وهو الذي ذهب بقبائل العرب إلى أفريقية وبه سُمّيت، وساق البربر إليها من أرض كنعان، مَرَّ بها عندما غلبهم يوشع وقتلهم، فاحتمل إفريقش الفلّ منهم وساقهم إلى أفريقية فأنزلهم بها. ويُقال أنه الذي سمّى البربر بهذا الاسم لأنه لما افتتح المغرب وسمع رطانتهم قال ما أكثر بربرتهم فسمّوا البربر، والبربرة في لغة العرب اختلاط أصوات غير مفهومة، ومنه بربرة الأسد. ولما رجع من غزو المغرب ترك هناك من قبائل حمير صنهاجة وكتامة فهم إلى الآن بها وليسوا من نسب البربر. قاله الطبري والجرجاني والمسعودي وابن الكلبي والسهيلي وجميع النسّابين»[١].

وكذلك قال ابن خلدون في التاريخ ما يلي: «قال ابن الكلبي: احتمل إفريقش الفلّ من الكنعانيين من ساحل الشام في غزاته إلى المغرب وأسكنهم بأفريقية، وأسكن معهم قبائل صنهاجة وكتامة من حمير[١].

ويتبين من النصوص ما يلي:

● ـ إن البربر الذين هم قبيلة أمازيغ بن كنعان لم يكن لهم وجود ببلاد المغرب قبل عهد الملك إفريقيس ـ بالقرن الثاني عشر ق. م. ـ وإنما كانوا بالشام وبمنطقة من ساحل الشام، وكانوا قد انتقلوا من اليمن إليها في وقت سابق، فلما

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص٢١ جـ٢.

سار الملك إفريقيس احتمل الذين كانوا ما يزالون باليمن من كنعان والذين بالشام بحيث كما ذكر ابن خلدون عن المؤرخين سالفي الذكر «ساق البربر من أرض كنعان» ـ أي من فلسطين والشام ـ وقال ابن الكلبي أنه «احتمل الفلّ من الكنعانيين من ساحل الشام في غزاته إلى المغرب». وكذلك قال نشوان الحميري وعبيد بن شريّه: «نقل إفريقيس البربر وهم جيل من الناس بقية ممن قاتلهم يوشع وهربت منهم طائفة إلى السواحل ثم رجعوا بعد ذلك، فنقلهم إفريقيس وأسكنهم بحيث هم من بلاد البربر، وفي ذلك يقول ـ القائل عن إفريقيس ـ:

بربرتْ كنعانُ لَمَّا ساقها ... من بلاد المُلك للعيش اللجبْ
ورأتْ كوشُ لعَمْري دارها ... (نرتقي عيساً لنا لا يثْربْ)
ثم أمسوا غير ممسى من مضى ... بتريبٍ وطريدٍ ذي تَعبْ»[1]

وكوش هم الحاميون السود الزنوج الذين كانوا بمناطق من المغرب، أما كنعان فلم يكن لهم وجود سابق في بلاد المغرب وإنما ساقهم إليها وأسكنهم بها الملك إفريقيس بن ذي المنار بن الرائش في أواسط القرن الثاني عشر ق. م. وفي ذلك أيضاً قال عبد الخالق الشهابي في أبيات بالإكليل يذكر ملوك ذلك العصر الأربعة:

قد بَنَى شامخاً أشمّ لك الرا ... ئش ذو الأيد وابنه ذو المنار
والذي أمُّهُ الهيوف من الجُن ... ويُدعى بالعبد ذي الأذعار
وأخوه الذي ساق كنعان حتى ... ألغطت في السياق بالبربار

ومما يتصل بذلك أيضاً أن غالبية البربر ينتسبون حتى اليوم إلى (أمازيغ بن كنعان) أو (مازيغ بن كنعان) حيث «إن نسَّابة البربر يجمعون على أن مازيغ هو أحد أولاد كنعان.. وقد ورد الاسم في كتاب (التيجان في ملوك حمير) مطابقاً لما قاله نسَّابة البربر وهو مازيغ بن كنعان»[2]. ويتطابق ذلك أيضاً مع ما ذكره المؤرخون وأجمعت عليه النصوص بأن إفريقيس ساق كنعان وأسكنهم ببلاد المغرب وهم البربر أو الموجة الأولى من القبائل الكنعانية والحميّرية التي سُمّيت باسم البربر.

● ـ وقد كان مع الملك إفريقيس في مسيره بكنعان إلى بلاد المغرب قوة وقبائل حميرية سبئية منها صُنهاجة وكتامة، فسار بهم وبالذين كانوا باليمن من

(١) أخبار الملوك الماضيين ـ عبيد بن شريه الجرهمي ـ ص٤٠٨ ـ وقصيدة نشوان ـ ص٧١.
(٢) البربر عرب قدامى ـ محمد المختار العرباوي ـ ص٢٨٣.

كنعان إلى الشام واحتمل الذين كانوا بالشام من أمازيغ بن كنعان ومضى إلى بلاد المغرب. ومن المفيد هنا أن نتطرق إلى الرأي الذي أورده ابن خلدون في المقدمة حيث اتخذ الطريق الذي يسلكه السالكون من اليمن إلى بلاد المغرب أساساً للتشكيك في صحة ما ذكره المؤرخون عن مسير الملك إفريقيس وغيره من ملوك اليمن التبابعة إلى بلاد المغرب قائلاً ما يلي: «ما ينقله المؤرخون كافة في أخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب أنَّهم كانوا يَغْزُون من اليمن إلى أفريقية والبربر من بلاد المغرب وأن إفريقش من أعاظم ملوكهم الأُول وكان لعهد موسى عليه السلام أو قبله بقليل [والصواب: أو بعده بقليل] غزَا أفريقية وأثخن في البربر وأنه الذي سَمَّاهم بهذا الاسم.. وأنه لما انصرف من المغرب حجزَ هنالك قبائل من حِمْير فأقاموا بها واختلطوا بأهلها ومنهم صَنْهَاجة وكَتامَةُ ومن هذا ذَهَبَ الطبري والجرجاني والمسعودي وابن الكلبي والبِيليُّ إلى أن صنهاجة وكتامة من حِمْير، وتأباهُ نسَّابَةُ البربر وهو الصحيح. وذكر المسعودي أيضاً أنَّ ذَا الإذعار من ملوكهم قبل إفريقش غزا المغرب.. وذكر مثله عن [الملك] ياسر وأنه بلغ وادي الرمل في بلاد المغرب ولم يجد فيه مسلكاً لكثرة الرَّمل فرجع..» ثم قال ابن خلدون إن تلك الأخبار بعيدة عن الصحة، وذكر سبب ذلك من وجهة نظره في المقدمة قائلاً ما يلي نصه: «وذلك أَنَّ مُلْك التَّبابِعة إنَّما كان بجزيرة العرب وقَرَارَهُمْ وكُرسيّهم بصنعاء اليمن. وجزيرة العرب يُحيط بها البَحرُ.. فلا يجدُ السالِكُون من اليمن إلى المغرب طريقاً من غير السُّويس ـ من أعمال مصر ـ والمسلك هناك ما بين بحر السُّويس والبحر الشامِيّ قدرُ مرحلتينِ فما دُونُهما، ويَبْعُدُ أن يَمُرَّ بهذا المَسْلك ملك عَظيمُ في عساكر موفُورةٍ من غير أنْ يصير من أعماله، هذا مُمْتَنَعٌ في العادة. وقد كان بتلك الأعمال العمالقة وكنعان بالشام والقِبْطُ بمصر ثم مَلَكَ العمالقةُ مِصْرَ ومَلَك بنو إسرائيل الشام، ولم يُنْقَلْ قَطُّ أن التبابعة حاربوا أحداً من هؤلاء الأُمم ولا ملكوا شيئاً من تلك الأعمال، وأيضاً فالشُّقَّةُ من البحر إلى المغرب بعيدةٌ والأزودةُ والعلُوفةُ للعساكر كثِيرَةٌ فإذا ساروا في غير أعمالِهِم احتاجوا إلى انتهاب الزَّرْع والنَّعَم وانتهاب البلاد فيما يَمُرُّونَ عليه ولا يكفي ذلك للأزودةِ والعلوفة عادة. وإن نَقَلُوا كفايَتَهُم مِنْ ذلك من أعمالِهِم فلا تفي لهم الرواحِلُ بنَقْلِه فلا بُدّ وأن يُمرُّوا في طريقهم كلها بأعمال قد ملكوها ودَوَّخُوها لِتكُونُ المِيرَة منها، وإن قُلْنَا إنَّ تِلْك العساكِرَ تَمُرُّ بهؤلاء الأُمم من غير أنْ تَهِيجَهُم فتحصل لهم الميرة بالمسالمة فذلك أبعدُ وأشد امتناعاً، فَدَلَّ على أن هذه الأخبار واهية. وأمَّا وادي

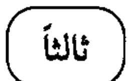
الرمل الذي يُعجِزُ السالِكَ فلم يُسْمَعْ قَطُّ ذكره بالمغرب. . » [انتهى][١].

وأقول أن ذلك الرأي والظن الذي أورده ابن خلدون في المقدمة قد بدأ بأساس خاطئ هو قوله أن المؤرخين ذكروا أن الملك إفريقش غزا أفريقية وأثخن في البربر، بينما الصحيح الذي قاله المؤرخون وذكره ابن خلدون نفسه في التاريخ ـ بالنصوص سالفة الذكر ـ هو أن الملك إفريقش الذي سار بالبربر إلى بلاد المغرب وبَنَى مدينة أفريقية وأسكن البربر وهم كنعان مع قبائل من حمير فيها.

وأما الطريق الذي سلكه إفريقيس والذين معه فقد ذكر المؤرخون أنه سار من اليمن إلى الشام واحتمل منها بقية أمازيغ بن كنعان، وقد كان بالشام الأراميون والفينيقيون الذين هم في الأصل من اليمن ثم سار إفريقيس من طريق مصر العليا وكان بها مستوطنات تجارية وحلفاء منذ أيام الرائش ثم مضى من «لوبية ومراقية وهما كورتان من كور مصر الغربية ودخلوا بلاد المغرب».

وأما الملك ياسر يُنعم فكان حكمه يشمل مستوطنة الحبشة في القرن التاسع ق. م. ومنها سار إلى المغرب حتى بلغ وادي الرمل وهو منطقة كثيفة الرمال من الصحراء الكبرى بالمغرب. ويتبين من ذلك أن الشكوك والظنون التي أوردها ابن خلدون في المقدمة ليست صحيحة، بل أن ابن خلدون نفسه قد تخلى عنها في التاريخ التفصيلي ـ بعد المقدمة ـ حيث قال: إن «إفريقش هو الذي ذهب بقبائل العرب إلى أفريقية، وبه سُمّيت، وساق البربر إليها من أرض كنعان. .»[٢].





ثالثاً

بِناء إفريقيس لمدينة أفريقية وتسميتها باسمه

لقد كان أول ما قام به الملك إفريقيس عند دخوله والذين معه إلى أوائل بلاد المغرب ـ (في مناطق من ليبيا وتونس حالياً) ـ ما ذكره نشوان الحميري وابن شرية

(١) مقدمة ابن خلدون ـ ص١٢.

(٢) تاريخ ابن خلدون ـ ص٥٢/ ٢.

الجرهمي أنه ـ «سار إفريقيس في المغرب حتى انتهى إلى طنجة في أقصى المغرب، فرأى بلاداً كثيرة الخير قليلة الأهل، فأمر ببناء مدينة أفريقية»[١]. وكذلك ذكر الحسن الهمداني في الإكليل: «إن إفريقيس بَنَى مدينة أفريقية»[٢] وذكر ابن خلدون في النص السالف عن كافة المؤرخين أن باسمه «سُمّيت أفريقية»[٣] وقال نشوان في أبياته عن إفريقيس:

مَلِكٌ بَنَى في الغرب أفريقيةً نُسِبتْ إليه بأوضح الإيضاح

فكانت مدينة أفريقية أول مدينة يتم تشييدها في بلاد المغرب جميعها عبر التاريخ لأن تشييدها كان في أواسط القرن الثاني عشر قبل الميلاد ـ حوالى عام ١١٦٠ ق. م. ـ وكان موقع مدينة أفريقية في مكان قريب من البحر في تونس غالباً بقرينة أن تونس وما جاورها لم يزل اسمها (أفريقية) زمناً طويلاً فقد ذكرتها المصادر والخرائط الرومانية باسم (أفريقية) واستمر اسمها بعد الإسلام في العصرين الأموي والعباسي باسم ولاية أفريقية. وقد كانت مدينة أفريقية هي العاصمة والمدينة الرئيسية لبلاد المغرب (أفريقية الشمالية) حتى القرن التاسع ق. م. وبناء مدينة قرطاجة (قرطاجنة) غالباً ولكن ذكر أفريقية وبانيها لم يزل خالداً عبر الأجيال.

وقد اتخذ الملك إفريقيس مدينة أفريقية مقراً له في فترة إقامته هناك ـ زهاء عشر سنين ـ ومنها قام هو والذين معه باستكشاف وارتياد سائر بلاد المغرب وسواحلها بما فيها الجزر البحرية وقام ببناء منارة في إحدى الجزر باسم أبيه ذي المنار وهي منارة ينسبها بعض الرواة إلى الملك ذي القرنين وأن الملك ياسر ينعم لما دخل المغرب قام ببناء منارة بجوارها في تلك الجزيرة[٤].

وقد بلغ الملك إفريقيس والذين قام بتوجيههم في عمليات الاستكشاف والارتياد جزر الخالدات وهي (جزر الكناري) الواقعة غرب الساحل المغربي بالمحيط الأطلسي وربما أيضاً بعض جزر وسواحل الأندلس القريبة من الساحل المغربي من جهة طنجة وما جاورها بالمغرب.

---

(١) السيرة الجامعة ـ قصيدة نشوان ـ ص٧١.
(٢) الإكليل ـ الحسن الهمداني ـ ص٥٣ جـ٢.
(٣) تاريخ ابن خلدون ـ ص٥٢/ ٢.
(٤) الشيطان والعرش ـ فاضل الربيعي ـ ص١٣٢.

رابعاً

توطين إفريقيس قبائل أمازيغ بن كنعان وصنهاجة وكتامة بالمغرب وتسميتهم بالبربر

وقام الملك إفريقيس بتوطين قبائل أمازيغ بن كنعان بمدينة أفريقية وما حولها وما يليها من بلاد المغرب الأدنى (الجزائر) والمغرب الأقصى إلى ساحل المحيط وربما إلى جزر الكناري. فكان توطينهم أشبه بنشر مستوطنات وقواعد تجارية وعلى امتداد الطرق التجارية ولربط بعضها بالبعض الآخر في أرجاء بلاد المغرب (شمال أفريقية) الشاسعة.

وقد سلف قول ابن خلدون: أن إفريقيش ساق البربر من أرض كنعان وأنزلهم بأفريقية، وقال ابن الكلبي: «احتمل إفريقش الكنعانيين إلى المغرب وأسكنهم بأفريقية، وأسكن معهم قبائل صنهاجة وكتامة من حِمْير» وقال نشوان الحميري وعُبيد بن شريّة الجرهمي: «أمر الملك إفريقيس ببناء مدينة أفريقية، وأسكن فيها قبائل من قومه ـ وهم كُتامة وعُهامة وزناتة ولُواتة وصنهاجة من حِمْيَر ـ وأسكن البربر بحيث هم من بلاد البربر». وقال السميدع بن عمرو في أبيات عن الملك إفريقيس:

وأسكن البربر في صفصفٍ كتائبٍ سارت كمثل الغمام
وابْتَنَى البُنيانَ في جوفها بغير ما كره لدهر دوام

يعني بالبنيان مدينة أفريقية. وقال نشوان:

وأحلَّ فيها قومه فتملكوا ما حولها من بلدة ونواحي

ويُقال إن الملك إفريقيس هو الذي سمى قبائل أمازيغ بن كنعان باسم البربر، ولكن السياق الذي ذكر فيه ابن خلدون ذلك القول يدل على أنه ضعيف حيث قال: «ويُقال إن إفريقش الذي سمى البربر بهذا الاسم لأنه لما افتتح المغرب وسمع رطانتهم قال ما أكثر بربرتهم فسمّوا البربر». بينما هو الذي ساقهم ونقلهم من اليمن والشام إلى المغرب وأسكنهم بها فلا يصح السبب المذكور للتسمية وإنما يصح أن تسميتهم باسم البربر كان منذ أيامه، وقد قيل إن اسم جدهم (بر بن قيس) وباسمه سميوا (بربر). ونرى أن أصل ذلك وسبب التسمية هو اسم أميرهم (برنس)، وذلك لأن نسَّابة البربر يُقسمون قبائل البربر إلى قسمين هما البرنس والبتر. وبرنس هو:

«برنس بن سفجو بن أيزج بن جناح بن واليل بن شراط بن تام بن دويم بن دام بن مازيغ بن كنعان»[١] ويعتبر أغلب نسَّابة البربر أن «برنس» هو جدّ القسم أو الفرع الأول الرئيسي من البربر وهم مازيغ بن كنعان، ونرى أن «برنس» أو «برّ/ نيس» هو أمير أو كبير قبيلة مازيغ بن كنعان لما أوطنهم الملك إفريقيس ببلاد المغرب، وإن إفريقيس جعل (برّ/ نيس) أميراً عليهم فتم نسبتهم إليه. ومثال ذلك في تاريخ ذلك الزمن تسمية الفينيقيين باسم أميرهم فينقيس، وكذلك البربر تم نسبتهم إلى أميرهم (برّ/ نس) أو (برّ/ إيس) وربما كان اسمه في الأصل (بربرنيس) وباسمه سمّي قومه (بربر) لأنه أميرهم، ثم بعد أزمنة وعصور طويلة اعتبره النسابون جد البربر (البرنس) الذين هم أمازيغ بن كنعان وهم الموجة أو الطبقة أو الأمة الأولى من البربر، ولم يزل اسمهم (بربر) منذ زمن الملك إفريقيس والأمير برنيس دون سواهم من القبائل الذين شملهم اسم البربر مثل صنهاجة وكُتامة.

* * *

إن صنهاجة وكتامة قبيلتان حِمْيَريتان قحطانيتان، وهما:

ـ بنو: صنهاجة بن مُرّة بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن جيدان بن قَطَنْ بن عَريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن حِمْيَر الأكبر بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان[٢].

ـ وبنو: كُتامة بن مُرّة بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن جيدان بن قَطنْ بن عَريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن حِمْيَر بن سبأ[٢].

وكانت قبيلتا صنهاجة وكتامة ـ أو عشائر منها ـ مع الملك إفريقيس بن الملك ذي منار عندما سار بقبائل أمازيغ بن كنعان (البربر) إلى بلاد المغرب وأسكنهم بها في عهد أبيه الملك ذي المنار بن الرائش حيث كما ذكر ابن الكلبي: «إنّ إفريقيس أسكن البربر ـ كنعان ـ ببلاد المغرب، وأسكن معهم قبائل صنهاجة وكتامة من حِمْيَر». وكان ابن خلدون قد ذكر ذلك في (المقدمة) حيث نقل عن المؤرخين أنه «.. لما انصرف (إفريقش) من المغرب حجز هناك قبائل من حِمْيَر فأقاموا بها واختلطوا بأهلها ومنهم صنهاجة وكتامة، ومن هنا ذهب الطبري والجرجاني والمسعودي وابن الكلبي والبيلّي أن صنهاجة وكتامة من حمير» ثم قال ابن خلدون: «ويأباه نسَّابة البربر وهو الصحيح». (ص١٢). ويعني بذلك أن نسَّابة

---

(١) البربر عرب قدامى ـ محمد المختار العرباوي ـ ص٢٧٩.

(٢) الإكليل ـ الحسن الهمداني ـ ص١٠١ جـ٢.

البربر يقولون إن صنهاجة وكتامة من قبائل البربر (البرنس) الذين هم أمازيغ بن كنعان.

ولكن ابن خلدون في التاريخ التفصيلي ـ بعد المقدمة ـ لم يورد ذلك وإنما قال: «لما رجع (إفريقش) من المغرب ترك هنالك من قبائل حِمْيَر صنهاجة وكتامة، قاله الطبري والجرجاني والمسعودي وابن الكلبي والسهيلي وجميع النسابين» (ص٥٩/ ٢) وذلك يعني إجماع المؤرخين والنسابين بأن صنهاجة وكتامة من القبائل الحميرية السبئية القحطانية وليسوا من قبائل البربر الأمازيغية الكنعانية. أما قول بعض نسَّابة البربر بأن صنهاجة وكتامة من قبائل أمازيغ بن كنعان، فلعل أصل ذلك هو أن صنهاجة وكتامة استقروا بالمغرب في وقت واحد مع قبائل أمازيغ بن كنعان عندما أوطنهم إفريقيس ببلاد المغرب، فتم اعتبارهم من الطبقة أو الأمة الأولى من البربر (فرع البرنس)..

ويبدو مما جاء في كتاب الإكليل إن قبيلتي صنهاجة وكتامة لم تَكُونا مع إفريقيس عندما كان ببلاد المغرب في عهد أبيه الملك ذي المنار بن الرائش ـ اللهم إلا عشائر منهما ـ ولما رجع إفريقيس من أفريقية وبلاد المغرب استخلف عليها الأمير «المنتاب بن عمرو بن زيد بن عِلاق بن عمرو بن ذي أبين» فمكث المنتاب والياً بمدينة أفريقية وبلاد المغرب، أما (برنس) أو (بر/ نيس) الذي سلف استنتاج أنه كان أميراً فيمكن أنه كان زعيماً قبلياً أو كبيراً لأمازيغ بن كنعان البربر وليس أميراً والياً للبلاد، بينما مكث المنتاب والياً أميراً في بقية عهد الملك ذي المنار بن الرائش حيث توفي ذو المنار حوالي عام ١١٤٢ ق. م. ثم تولى عرش دولة تبابعة سبأ الملك ذي الأذعار بن ذي المنار واشترك معه الملك إفريقيس في الحكم، وقد جاء في الإكليل أن الملك ذا الأذعار (كان مُلكه خمساً وعشرين سنة)[1]. وذلك إلى حوالي عام ١١١٥ ق. م.

ثم تولى عرش تبابعة سبأ ـ وانفرد بالحكم ـ الملك إفريقيس بن ذي المنار في الفترة (١١١٥ ـ ١١٠٠ ق. م.) حيث صرف الملك إفريقيس المنتاب عن ولاية أفريقية والمغرب وبعث إفريقيس الأمير كنيع بن يزيد الحميري والياً لأفريقية وبعث معه قبائل صنهاجة وكُتامة ولواتة وعُهَامة وزناتة إلى أفريقية وبلاد المغرب فاستقروا بها. وقد ذكر نشوان الحميري: «إن الملك إفريقيس ـ لما سار إلى المغرب ـ وأمر ببناء مدينة أفريقية، أسكن فيها قبائل من قومه، وهم كُتامة وعُهامة

(١) الإكليل ـ الحسن الهمداني ـ ص٢٠١ جـ٨.

وزناتة ولواتة وصنهاجة قبائل ضخمة في المغرب من حمير»[١] بينما جاء في الأنساب بالإكليل عن سلالة «عبد شمس بن وائل بن الغوث بن جيدان بن قطن بن عَريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن حمير بن سبأ» ما يلي نصه: «وأما مُرّة بن عبد شمس فأولَد ـ فيما يقال والله أعلم ـ: كُتامة وعُهامة وصنهاجة ولَوَاتَةَ وزنيت ـ وهو زناتة ـ وهم رؤساء البربر، نُقِلوا (من اليمن) مع سيدهم كنيع بن يزيد، يوم أشخصه إفريقيس إلى أفريقية، وصرف المنتاب عنها»[٢]. وذلك هو الأصوب. وكان كنيع بن يزيد رئيساً لتلك القبائل الحميرية الخمس والتي أهمها صنهاجة بما يدل على أنه كان صنهاجياً حميرياً. وتعاقبت إمارة ورئاسة سائر قبائل البربر وبلاد المغرب في سلالة كنيع بن يزيد وفي صنهاجة ـ بصفة عامة ـ زمناً طويلاً بعد عهد الملك إفريقيس بن ذي المنار والأمير كنيع بن يزيد الصنهاجي فكان أمراء أفريقية الشمالية والبربر من صنهاجة ـ غالباً ـ في عصور التاريخ التليد. ولما سار الملك (ياسر يُنعم ملك سبأ وذي ريدان) إلى بلاد المغرب ـ في القرن التاسع ق. م. ـ نقل معه من اليمن بقية قبائل صنهاجة وكتامة ولواتة وعُهامة وزناتة وأسكنهم بقرطاجة وأرجاء المغرب مع قبائل أخرى حميرية سبئية فشملهم جميعاً فيما بعد اسم البربر، ويمكن القول بأنهم الطبقة الثانية من البربر الذين يُسميهم نسّابة البربر (فرع البتر) في تقسيمهم البربر إلى فرعين (البرانس والبتر) فقد ذكر الأستاذ محمد العرباوي: «إن النسابين: هاني بن بكور الضريسي وسابق بن سليمان المطماطي وكهلان بن أبي لوا وهاني بن مسرور والكومي وسالم بن سليم المطماطي، وهم جميعاً من البربر، يعدُّون فرع البرانس فقط من نسل كنعان، أما فرع البترفلا»[٣].

ومن فرع البتر قبائل زناتة، ومكلاتة، وغُمارة، وزوارة، وهوارة، ولواتة، ومزاتة، وجميعها قبائل يمانية حميرية قحطانية من البربر مثلها في ذلك مثل صنهاجة وكتامة وغيرها من عشائر وقبائل البربر التي حفظت وتناقلت نسبها اليمني العربي عبر الأجيال. وسنذكر ذلك بالتفصيل في موجة عهدي ياسر ينعم وأبي كرب أسعد لأن انتقال أغلبهم إلى المغرب كان في عصرهما.

---

(١) السيرة الجامعة ـ قصيدة نشوان ـ ص٧٢.

(٢) الإكليل ـ الحسن الهمداني ـ ص١٠١ جـ٢.

(٣) البربر عرب قدامى ـ محمد المختار العرباوي ـ تونس ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٩٣م ـ ص٢٧٩ و٢٨٣ و٢٨٩.

ونذكر هنا بصدد صنهاجة وكتامة ـ بالإضافة إلى ما تقدم ـ النصوص والدلائل التالية:

١ ـ ذكر محمد العرباوي «أن من المؤرخين الذين عدّوا قبيلتي صنهاجة وكتامة من عرب اليمن، من حمير: ابن الكلبي، والطبري، والمسعودي، وعبد العزيز الجرجاني، والبلّي، والبيهقي، والصولي، والبكري، وغيرهم»[١]. وأنه قال ابن خلدون: «قال ابن الكلبي إن كتامة وصنهاجة ليستا من قبائل البربر ـ (الكنعانية) ـ وإنما هم من اليمانية، تركهما إفريقش بأفريقية مع من نزل بها». ثم أضاف ابن خلدون قائلاً: «وهذا إجماع أهل التحقيق في شأنهم». وقال ابن خلدون أيضاً في موضع آخر «والمشهور أن صنهاجة وكتامة من اليمانية»[١].

٢ ـ وتحدث شهاب الدين النوري في كتاب نهاية الأرب عن صنهاجة باعتبارها قبيلة يمنية قحطانية، حيث قال: «وأما يمن فهُم أولاد قحطان.. وفيهم عدة قبائل وأبطن وأفخاذ وعشائر: كسبأ وطيء.. وصنهاجة وبارق»[٢].

٣ ـ كان غالبية حكام البربر وبلاد المغرب في عصور ما قبل الإسلام من قبيلة صنهاجة البربرية الحميرية، ثم في العصر الفاطمي بعد الإسلام تولى «أبو الفتح المنصور الصنهاجي إمارة القيروان وبلاد المغرب سنة ٣٧٤هـ (٩٨٣م) فخطب وقال عن نفسه وأجداده في خطبته ما يلي نصه: «إنّ أبي وجدّي أخذا الناس بالسيف قهراً وأنا لا آخذهم إلا بالإحسان، وما أنا في هذا المُلك ممن يُولّى بكتاب أو يُعزل بكتاب لأني ورثته عن آبائي وأجدادي ورثوه عن آبائهم وأجدادهم حِمْيَر»[٣].

فكلام ذلك الأمير الصنهاجي من أقوى الأدلة على أن قبيلة صنهاجة ـ البربرية ـ نفسها ورؤساء صنهاجة كانوا يذكرون ويعتزون بنسبهم الحميري اليماني اليعربي عبر الأزمنة والعصور.

* * *

(١) البربر عرب قدامى ـ محمد المختار العرباوي ـ تونس ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٩٣م ـ ص٢٧٩ و٢٨٣ و٢٨٩.

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب ـ شهاب الدين النوري ـ ص٢٨٢/ ٢ ـ طبع وزارة الثقافة والإرشاد القومي المصرية ـ القاهرة.

(٣) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ـ ابن عذارى المراكشي ـ ص٢٩/ ١ ـ الطبعة الثالثة ـ بيروت ـ ١٩٨٣م.

خامساً

دلالة المومياءات اليمنية ومومياءات جزر الكناري على أن البربر في الأصل من اليمن

في عام ١٩٨٨م تم العثور في ناووس جبل الغراس بمنطقة شبام في اليمن ـ بين صنعاء ومأرب ـ على خمس مومياءات يمنية من عصور دولة تبابعة سبأ، وقام المختبر الفيزيائي الهولندي في هولندا بفحص عينات منها باشعة الكربون ١٤ حيث أسفر الفحص عن نتائج قال مدير المختبر الفيزيائي الهولندي إنها: «نتائج مثيرة وتدعو إلى الدهشة وتبوح بمعلومات كثيرة»[١] ومنها:

أ ـ زمن المومياءات اليمنية

«يعود زمن المومياء الثانية إلى الفترة ما بين عام ١٢٦٥ ق. م. ـ ٩٨٠ ق. م.

ـ ويعود زمن المومياء الخامسة إلى الفترة ما بين عام ٩٦٠ ق. م. ـ ٩٣٠ ق. م.»[١].

وبالتالي فإن زمن المومياءات يمتد من عصر الرائش وإفريقيس بالقرن الثاني عشر ق. م. إلى القرن العاشر ق. م.

ب ـ مقارنة المومياءات اليمنية بمومياءات جزر الكناري

ودَلَّت مقارنة مومياءات جبل الغراس اليمنية بمومياءات تم العثور عليها في جزر الكناري التي تقع قبالة الساحل المغربي بالمحيط الأطلسي على أنه ـ كما قال مدير المختبر الفيزيائي ومدير الأورنت برنس ـ «إن مما يثير الاهتمام تشابه طريقة التحنيط في المومياءات اليمنية ومومياءات جزر الكناري، فالمومياءات الكنارية موضوعة على طريقة القرفصاء في شبه حقائب جلدية كما هو الحال في المومياءات اليمنية، وكذلك تتميز المومياءات اليمنية ومومياءات الكناري بأن الفراغ البطني ليس محشواً بنشارة الأخشاب مثل المومياءات المصرية الفرعونية وإنما الفراغ

---

(١) تقرير المختبر الفيزيائي وجامعة أوترخت ـ (Utrcht) ـ الهولندية ـ صحيفة الاتحاد ـ أبو ظبي ـ ٢٣/١١/١٩٨٨م.

البطني محشو بأعشاب ذات رائحة طيبة وقادرة على امتصاص السوائل ـ وهي أعشاب نبات الراء.

وكل هذا يدل بأن فن التحنيط اليمني هو الذي أُتبع في جزر الكناري.. لقد كان الدارسون يعتقدون أن سكان جزر الكناري ـ أصحاب مومياءات الكناري ـ كانوا من قبيلة مشتى عربي البربرية في الجزائر، ولكن فن التحنيط اليمني يدل على أنهم ربما كانوا بالفعل جاؤوا إلى جزر الكناري من الجزائر، ولكنها كانت بالنسبة لهم مجرد محطة انتقالية لرحلتهم التي بدأت من اليمن، فقد كانوا حتماً يعرفون فنون الملاحة فحملتهم السفن من الشاطئ المغربي إلى جزر الكناري». انتهى[٢٥].

ويتبين من ذلك أن المومياءات دليل جديد على أن قبيلة مشتى عربي البربرية في الجزائر وغيرها من قبائل البربر التي استقرت معها بالجزائر والمغرب جاءت من اليمن وامتدت مستوطناتها التجارية إلى جزر الكناري التي تقع فيما يلي الساحل المغربي بالمحيط الأطلسي منذ عهد الملك إفريقيس بن ذي المنار بن الرائش بالقرن الثاني عشر قبل الميلاد في إطار تكوين عالم تجاري كبير بزعامة سبأ امتدّ من الجزيرة العربية إلى ساحل الصومال والحبشة والبحر الأبيض المتوسط والمغرب وجزر الكناري بالمحيط الأطلسي غرباً في ذلك الزمن الحضاري التليد. وقد استمر ذلك العالم التجاري واستمر التواصل بالمستوطنات التجارية وبالذين أوطنهم إفريقيس ببلاد المغرب إلى النصف الثاني من القرن العاشر قبل الميلاد وهو الزمن الذي تعود إليه المومياء اليمنية الخامسة التي حدد المختبر الفيزيائي الهولندي زمنها بالفترة من عام ٩٦٠ ـ ٩٣٠ قبل الميلاد، وهو أيضاً زمن عهد بلقيس ملكة سبأ التي عاصرت وزارت النبي سليمان، فقد حددت الدراسات ـ وكما ذكر موسكاتي ـ «إن زمن سليمان كان في الفترة من عام ٩٦١ ـ ٩٢٢ قبل الميلاد[١] وفي ذلك الزمن كان عهد بلقيس ملكة سبأ في الفترة من عام ٩٤٦ ـ ٩٢٣ ق. م. وقد دَلَّت الدراسات على أنه ـ كما جاء في كتاب الأمم السامية: «كانت مملكة سبأ تمتد إلى شمالي الجزيرة العربية وكانت حدود سبأ من الشمال تتاخم دولة سليمان بفلسطين في عهد بلقيس ملكة سبأ المذكورة في الكتب السماوية»[٢]. وكذلك فقد دَلَّت الدراسات على أن مملكة سبأ كانت تشمل أيضاً الحبشة، وقال العالم الألماني أ. فورك: «لقد تمكن السبئيون وأقرباؤهم الحميريون منذ أقدم العصور من مدّ

---

(١) الشيطان والعرش ـ فاضل الربيعي ـ ص٢٥.

(٢) الأمم السامية ـ حامد عبد القادر ـ ص٨٤.

سلطتهم على الساحل الإفريقي واستعمروا الحبشة، وكانت ملكة سبأ ـ في القرن العاشر ق. م. ـ تحكم جنوب الجزيرة العربية ومرتفعات الحبشة»[١]. وبالتالي يمكن إدراك أن المراكز السبئية اليمنية في الحبشة كانت همزة وصل للنشاط التجاري إلى بلاد المغرب في ذلك الزمن حتى عهد الملكة بلقيس في الفترة ما بين عام ٩٤٦ و٩٢٣ ق. م.

ثم كَمَا ذكر سائر المؤرخين العرب الأوائل وكما ذكر ابن خلدون: «مَلَكَ اليمن بعد بلقيس الملك ياسر بن عمرو»[٢] وهو ياسر الأول واسمه ولقبه كما جاء في نقوش المسند:

«ياسر يُهصدق ملك سبأ وذي ريدان»[٣].

وقد تم العثور على نقشين مسندين من عهده[٣] وكان حكمه يشمل مستوطنة أكسوم السبئية بالحبشة بعد الملكة بلقيس وقد ذكر ابن منبه أن الملك ياسر حكم بعد بلقيس وسار إلى الحبشة وإلى أفريقية (تونس/ المغرب) وكان عهده في الفترة من ٢٩٧ ـ ٣١٠ للتقويم السبئي والزمن الصحيح الموافق لذلك هو من ٩٢٣ ـ ٩١٠ قبل الميلاد ويؤكد ذلك ما ذكره المؤرخون العرب بأنه حكم بعد الملكة بلقيس معاصرة سليمان ـ في النصف الثاني من القرن العاشر ق. م. الذي إليه يعود زمن المومياء اليمنية الخامسة المطابقة لمومياءات جزر الكناري.

وقد انقطعت بعد ذلك علاقة دولة سبأ بالمستوطنات التجارية وبالعالم التجاري بما في ذلك الحبشة وجهة المغرب، وتوقف النشاط التجاري وانقطع أي تواصل مع الذين كانوا قد توطنوا في بلاد الحبشة وبلاد المغرب في الموجة الأولى، وكان من أسباب ذلك وقوع انقسام وصراع على الحكم في اليمن بين فرعي سبأ وذي ريدان بعد عهد بلقيس وياسر يُهصدق. وقد ذكر نشوان الحميري أنه: «وقعت فتنة باليمن على المُلك، وتغلب كلٌ على ما تحت يده»[٤]. واستمرت

---

(١) بلقيس امرأة الألغاز ـ زياد متى ـ ص٣١٣ ـ عن كتاب (موونغ وملكة سبأ ـ أ. فورك): A. Forcke. Muwoung Und Konigin Von Saba. Berlin. 1914.

(٢) تاريخ ابن خلدون ـ ص٥٩ جـ٢.

(٣) نقشا ياسر يهصدق ـ رقم ٧٧ إرياني من موقع الأقمر ـ ورقم ٤٠ س. آي. أتش. من موقع ضاف.

(٤) السيرة الجامعة ـ قصيدة نشوان ـ ص٨٨.

تلك الفتنة وذلك الانقسام على الحكم ـ بين فرعي سبأ وريدان ـ زهاء أربعين سنة ثم انتهى ذلك بإعادة وحدة الدولة بزعامة ياسر يُنعم ملك سبأ وذي ريدان في أواسط القرن التاسع ق. م. وقاد ياسر يُنعم الموجة الثانية من القبائل اليمانية ـ الحميرية السبئية ـ إلى بلاد المغرب في إطار خطة لإعادة تكوين العالم التجاري الكبير بزعامة سبأ في الآفاق الممتدة.

انتقال الطبقة الثانية
من قبائل البربر ـ الحميرية القحطانية ـ
من اليمن إلى بلاد المغرب في مسير وفتوحات
(ياسر يُنعم وابنه شَمَّر يُرعش ملكي سبأ وذي ريدان)

في أواسط القرن التاسع ق. م. انتقلت من اليمن إلى بلاد المغرب (أفريقية الشمالية) موجة من القبائل اليمنية ـ الحميرية القحطانية والفينيقية ـ وأسست المدن والمستوطنات التجارية في تونس (قرطاجة) وأرجاء المغرب إلى المحط الأطلسي وغرب البحر الأبيض المتوسط. وقد شمل تلك القبائل ـ فيما بعد ـ اسم البربر، وهم الموجة والطبقة الثانية من البربر.

وقد كان انتقال تلك القبائل من اليمن إلى بلاد المغرب في مسير وفتوحات الملك ياسر يُنعم الذي سلف قول ابن خلدون عنه في المقدمة: «وذكر المسعودي عن ـ الملك ـ ياسر مثله ـ أي أنه غزا المغرب ـ وأنَّهُ بلغ وادي الرَّمل في بلاد المغرب ولم يجد فيه مسلكاً لكثرة الرمل فرجع»[1]. ثم انتقد ابن خلدون غزو التبابعة إلى المغرب لأن الطريق من اليمن إلى المغرب إنما هو عن طريق الشام ومصر ولم يُنقل قط أن التبابعة حاربوا أحداً من هؤلاء الأمم ـ بالشام ومصر ـ ولا ملكوا شيئاً من تلك الأعمال.. إلى أن قال ابن خلدون: «وأمَّا وادي الرمل الذي يُعْجِزُ السَّالِكَ فلم يُسْمَعْ قَطُّ ذكره في المغرب على كَثْرةِ سالكِهِ ومَنْ يَقُصُّ طُرُقَهُ من الرُّكَّاب والقُرَى في كُلِّ عصر وكُلِّ جِهةٍ وهو على ما ذكروه من الغرابة تَتَوَفَّرُ الدَّواعي على نَقْلِهِ»[1].

والواقع أن الملك ياسر يُنعم لم يسلك طريق الشام ثم مصر إلى المغرب وإنما كان مسيره عن طريق البحر إلى الحبشة وما يليها ثم بلاد المغرب، وأما وادي الرمل فقد وصفه المؤرخون بما يدل على أنه منطقة كثيفة الرمال في أقصى الصحراء الكبرى بالمغرب وما تزال مثل تلك المنطقة موجودة حتى اليوم. ونبدأ

(١) مقدمة ابن خلدون ـ ص١٣.

هنا بذكر النبأ اليقين عن ملوكية وزمن ياسر يُنعم وابنه شَمَّر يُرعش ثم فتوحاتهما وغزواتهما ومسيرهما بالجيش والقبائل الكثيفة لتأسيس مستوطنات تجارية وإعادة تكوين وتأمين، عالم تجاري كبير بزعامة سبأ في الآفاق الممتدة.

* * *

أولاً

ملوكية وزمن ياسر يُنعم وابنه شَمَّر يُرعش بالقرن التاسع ق. م.

قال نشوان الحميري في قصيدته عن تاريخ ملوك اليمن التبابعة:

أوْ ياسِرُ المَلِكُ المُعيدُ لِما مَضَى مِنْ مُلْكِ حَيٍّ لا تَراهُ لَقاحِ
أبقى بوادي الرَّملِ أقصى موضعٍ بالغرب مُسْنَدَ ماجِدٍ جَحْجاحِ

ثم قال: «هذا الملك ياسر ينعم بن عمرو بن يعفر ـ [بن عمرو بن يعفر] ـ بن إلعبد ذي الأذعار بن ذي المنار بن الرائش». وقال نشوان:

«أَمْ أينَ شَمّر يُرْعِشُ الملكُ الذي مَلَكَ الورى بالعُنْفِ والإسْجاحِ
قد كان يُرعِشُ من رآه هَيْبةً ورَنا إليهِ بِطَرْفِهِ اللمَّاحِ
وبه سَمَرْقَندُ المشارِقِ سُميت لِلَّهِ من غازٍ ومِن فَتَّاحِ»(١)

وتؤكد نقوش المسند تاريخية ياسر يُنعم وابنه شمّر يُرعش فقد تم العثور في معبد باران ومحرم بلقيس بمأرب وموقعي المعسال وهكر على ثمانية نقوش مسندية من عهد ياسر ينعم وجميعها باسم وصيغة:

«ياسر يُهنعم وابنه شمّر يهرعش ملكي سبأ وذي ريدان»(٢).

قال الحسن الهمداني في الإكليل: «أما يُهنعم فإنه يُنعم، إلا أنّهم ـ كانوا ـ يُفخمون بالهاء ويُبالغون فيما ظهر من الأشياء واستُعظم فيقولون: هو يُهنعم ويُهنفق المال، ويهوثر البناء، ويُهصدق العدو الحملة»(٣). ولذلك جاء في نقوش المسند اسمهما بالتفخيم المسندي بالهاء «ياسر يهنعم وابنه شمر يهرعش» أما الأصل والنُطق فهو ياسر يُنعم وشمر يُرعش.

---

(١) السيرة الجامعة ـ قصيدة نشوان ـ ص٨٨.
(٢) نقوش سبئية من محرم بلقيس ـ ألبرت جام ـ ٦٤٦ ـ ٦٤٨.
(٣) الإكليل ـ الحسن الهمداني ـ ص٧٣ جـ٢.

وقد ذكر سائر المؤرخين العرب الأوائل ـ ومنهم عبيد بن شرية وابن الكلبي والمسعودي والهمداني ونشوان وابن خلدون ـ «أن ياسر ينعم حكم بعد الملكة بلقيس التي عاصرت النبي سليمان» وقال نشوان الحميري أنه بعد عهد الملكة بلقيس: «وقعت فتنة باليمن على المُلك، وتغلب كلٌ على ما تحت يده ـ حتى قيام ياسر يُنعم ـ»(١) ومؤدى ذلك إجماع علماء المؤرخين العرب الأوائل بأن زمن ياسر يُنعم كان في القرن التاسع ق. م. لأن الملكة بلقيس كانت في النصف الثاني من القرن العاشر ق. م. ثم وقعت فتنة انقسام وصراع على الحكم بين فرعي سبأ وريدان زهاء أربعين سنة انتهت بالاتفاق وإعادة وحدة الدولة بزعامة ياسر يُنعم فيكون ذلك في أواسط القرن التاسع ق. م. وهو ما تؤكده أيضاً نقوش المسند عن فترة الانقسام والصراع التي سبقت تمليك ياسر ينعم حيث ـ وكما ذكر أيضاً د. محمد بافقيه ـ: «كان الصراع طابع الفترة كلها حتى تم توحيد سبأ وريدان (حمير) عن تراضٍ تحت قيادة ياسر يُهنعم»(٢). وبذلك تؤكد النقوش صواب ما ذكره نشوان وغيره من المؤرخين الأوائل عن إعادة ياسر ينعم لوحدة الدولة والبلاد، وفي ذلك قال نشوان:

أو ياسرُ الملكُ المعيدُ لما مضى مِنْ مُلْكِ حيٍّ لا تراهُ لَقاحِ

وقال علقمة بن زيد الحميري في قصيدة يتمثل فيها تاريخ ياسر ينعم:

أيا ياسر الأملاك قد رمت خطةً عَلتْ فوق غايات الملوك القماقم
رددتَ إلينا مُلكنا في نصابه ولولاك كان الملكُ أضغاث حالم

ويمكن إدراك إن الخطة التي أعاد بها ياسر ينعم وحدة الدولة والبلاد قد تضمنت إعادة وحدة الدولة والبلاد سلمياً واعتماد مبدأ أن يكون ملوك سبأ التبابعة من آل الرائش (بني حمير ذي ريدان) وإعادة تكوين وتأمين عالم تجاري كبير بزعامة سبأ ونشر المستوطنات التجارية وإعادة السيطرة على الطرق التجارية وتجديدها وتأمينها بما يؤدي إلى مصالح سياسية واقتصادية عظيمة وتأثيرات حضارية بعيدة المدى. وقد وجدت خطة ياسر يُنعم استجابة شاملة، فتوجه ياسر يُنعم وابنه شمر يُرعش من مدينة ظفار إلى مدينة مأرب العاصمة وتسنم سدة عرش تبابعة سبأ.

وقد تم العثور في معبد باران بمأرب على نقش مسند جاء فيه أن: «ياسر

---

(١) السيرة الجامعة ـ قصيدة نشوان ـ ص٨٨.

(٢) في العربية السعيدة ـ د. محمد بافقيه ـ ص١١١ جـ٢.

يُهنعم وابنه شمر يهرعش ملكي سبأ وذي ريدان أقنيا ـ الإلٰه ـ إل مقه صلماً ذهباً بمناسبة وصولهما من القصر ريدان ومدينة ظفار إلى مدينة مأرب والقصر سَلْحين»[١].

وكذلك تم العثور على أربعة نقوش مسندية في معبد أوام المشهور بمحرم بلقيس في مأرب عاصمة دولة سبأ باسم ومن عهد «ياسر يُهنعم وابنه شمر يُهرعش ملكي سبأ وذي ريدان». من بينها نقش بمناسبة عودتهما إلى مدينة مأرب في أواخر عهدهما[٢] الذي هو عهد ياسر ينعم ـ ونقش مؤرخ «بخريف خمسة وثمانين وثلاثمائة»[٣] ـ أي عام ٣٨٥ للتقويم السبئي وهو العام الأخير من عهد ياسر يُنعم، وكانت فترة عهده وحكمه ٢٩ سنة، فيكون ذلك من عام ٣٥٦ ـ ٣٨٥ بالتقويم السبئي المؤرخة به نقوش ملوك سبأ التبابعة المعثور عليها في معبد باران ومعبد أوام (محرم بلقيس) بمأرب وغيرهما من المواقع الأثرية، وقد اشترك مع ياسر ينعم في الحكم ابنه شمّر يرعش لأن جميع نقوش عهد ياسر يُنعم جاءت بصيغة اسم «ياسر يهنعم وابنه شمر يهرعش ملكي سبأ وذي ريدان» وآخرها النقش المؤرخ بعام ٣٨٥ للتقويم السبئي، ثم حكم شمر يرعش بعد أبيه منفرداً من عام ٣٨٦ ـ ٤١٠ للتقويم السبئي لأن آخر نقوش عهده مؤرخ بخريف عام ٤٠٩ للتقويم السبئي[٤].

وقد كان بعض المستشرقين والدارسين يحددون زمن معبد باران المشهور بعرش بلقيس وزمن محرم بلقيس بفترة ترجع إلى ما بعد القرن الخامس ق. م. ولذلك اعتبروا نقوش ملوك سبأ التبابعة المعثور عليها في الموقعين لا ترجع إلى ما قبل أواخر الألف الأول ق. م. وإنها مؤرخة بالتقويم الحميري الأخير والذي بموجبه افترضوا أن عهد ياسر ينعم وشمر يرعش كان بالقرن الثالث الميلادي. ولكن التنقيبات الأثرية التي قامت بها بعثة معهد الآثار الألماني ببرلين في معبد باران ومحرم بلقيس أثبتت عودة زمن المعبدين ووجودهما في القرن العاشر والقرن التاسع ق. م. بحيث قال د. يوسف محمد عبد اللّٰه: «كنا نؤرخ لمعبد بران المشهور بعرش بلقيس بفترة لا ترجع إلى ما قبل النصف الثاني من الألف الأول قبل الميلاد ولكن هذه المكتشفات تضعنا أمام فترة أقدم بكثير تعود إلى مطلع

(١) تاريخ اليمن الثقافي ـ أحمد شرف ـ النقش رقم ٢٩.

(٢) في تاريخ اليمن ـ النقش رقم ١٤ كهالي ـ تحقيق مطهر الأرياني ـ ص٨٨ ـ ٩٠.

(٣) نقوش سبئية من محرم بلقيس ـ إلبرت جام ٦٤٨.

(٤) نقش صخرة المعسال ـ ردمان ـ وهو مؤرخ بعام ٤٠٩ للتقويم السبئي ويوافق عام ٨١١ قبل الميلاد.

الألف الأول قبل الميلاد»[1] ـ أي إلى مطلع القرن العاشر ق. م. ثم القرن التاسع ق. م. ـ وذلك هو أيضاً الزمن الصحيح للتقويم المؤرخة به نقوش ملوك سبأ التابعة المعثور عليها في معبد باران ومحرم بلقيس وغيرهما من المواقع الأثرية فهي «نقوش سبئية» ولقب الملوك يبدأ في النقوش بأنه «ملك سبأ» والتقويم المؤرخة به النقوش «تقويم سبئي» تم اتخاذ أول أعوام عهد الرائش باران ذي رياش بداية لذلك التقويم وهو عام ١٢٢٠ ق. م. فنقش ياسر ينعم المؤرخ بعام ٣٨٥ للتقويم السبئي يوافق عام ٨٣٥ ق. م. وعهده الذي استمر فترة ٢٩ سنة من ٣٥٦ ـ ٣٨٥ للتقويم السبئي يوافق عام ٨٦٤ ـ ٨٣٥ ق. م. أي القرن التاسع قبل الميلاد الذي حدده أيضاً الحسن الهمداني وابن شرية وابن الكلبي ونشوان وسائر المؤرخين الأوائل زمناً للملك العظيم ياسر يُنعم وابنه شمّر يرعش وفتوحات وغزوات عصرهما التليد.

لقد بدأ عهد ياسر يُنعم سنة ٨٦٤ ق. م. وتوحدت بزعامته كل أرجاء اليمن بمدلولها الواسع القديم (جنوب الجزيرة العربية) وامتد نفوذه إلى شمال الجزيرة ثم بدأ بتنفيذ خطة لإعادة تكوين عالم تجاري كبير ونشر وتأسيس المستوطنات التجارية وتوطين قبائل يمنية وحاميات عسكرية في البلدان والمدن والمستوطنات للسيطرة على الطرق التجارية وتأمينها وكهمزة وصل للنشاط التجاري فكان ذلك هو سبب الفتوحات والغزوات التي قادها الزعيمان ياسر ينعم وشمر يرعش إلى آفاق الغرب والشرق في القرن التاسع قبل الميلاد.

* * *

ثانياً

نصوص ووقائع فتح ياسر يُنعم وشَمّر يرعش للحبشة وجنوب مصر

«المرحلة الأولى من تنفيذ خطة تكوين عالم تجاري كبير»

لقد بدأ عهد ياسر ينعم سنة ٣٥٦ للتقويم السبئي (٨٦٤ ق.م) وبعد زهاء خمس سنين من التجهيزات والتهيئة انطلق الملك ياسر يُنعم بجيش كثيف وقبائل

(١) مكتشفات أثرية جديدة ـ د. يوسف محمد عبد الله ـ مجلة الوطن ـ عدد يونيو ١٩٨٨م.

كثيرة بالسفن والمراكب من الساحل اليمني للبحر الأحمر عن طريق باب المندب إلى بلاد الحبشة حيث ذكر ابن هشام وابن منبه ما يلي نصه:

«عبر ياسر ينعم البحر وسار على ساحله يريد أرض الحبشة فأخذها»(١).

ونقل الأستاذ فاضل الربيعي عن كتب التاريخ التراثية أنه «أصدر ياسر ينعم أمراً عسكرياً لولده شمر يرعش بتنظيم حملة بحرية موازية، فسار بعشرة آلاف راكب» وأنه «سار شمر يرعش يريد مصر ومنها الحبشة، فاستولى عليهما، وهرب الأحباش إلى غربي الأرض إلى البحر، فتبعهم شمر يرعش حتى بلغ البحر»(٢).

ومن شواهد ودلائل ونتائج ذلك ما يلي:

١ ـ إن دولة سبأ كانت تمتلك الكثير من السفن والمراكب، وقد نقل د. عدنان ترسيسي عن المرؤخ اليوناني أغاثر سيدس أنه «.. كان للسبئيين سفن ضخمة تسير في المحيط الهندي ومراكب تسير في الأنهار»(٣).. فوجود السفن والمراكب يؤكد مسير ياسر ينعم وشمر يرعش بالجيش والقبائل بحراً إلى الحبشة وإلى مصر (جنوب مصر) في حملتين، الأولى الرئيسية إلى أرض الحبشة، والثانية إلى جنوب مصر.

٢ ـ وقد جاء في نقش مسند بموقع المعسال في ردمان باليمن أن القائد القَيْل ابن معاهر زعيم قبائل ردمان شارك مع قبائله في الغزو إلى الحبشة مع آمرهم ياسر ينعم وابنه شمر يرعش ملكي سبأ وذي ريدان. وقد أشار د. محمد بافقيه إلى ورود غزو الحبشة في عهد ياسر ينعم في النقش المذكور بالمعسال(٤).

٣ ـ وتذكر دراسات تاريخ الحبشة القديم أنه ـ وكما ذكر الأستاذ ممتاز العارف وريتشارد جرينفلد ـ: «في حوالي عام ١٠٠٠ ق. م. قامت أعداد غير قليلة من قبائل جنوب الجزيرة العربية بغزو جماعي للأجزاء الشمالية من الحبشة ـ واستوطنوها ـ ثم اندفعت بعض تلك القبائل ـ (في موجة ثانية) ـ عبر مضيق باب المندب إلى هضبة هرر في القسم الشرقي من الحبشة.. وبحكم تفوقهم

---

(١) في العربية السعيدة ـ د. محمد بافقيه ـ ص٤٧/ ٢ ـ عن كتاب أخبار ملوك حمير لوهب بن منبه وابن هشام.

(٢) الشيطان والعرش ـ فاضل الربيعي ـ ص١٣٢.

(٣) اليمن وحضارة العرب ـ د. عدنان ترسيسي ـ ص٢٩.

(٤) في العربية السعيدة ـ د. محمد بافقيه ـ ص٤٧/ ٢.

الحضاري فرضوا أنفسهم على سكان بلاد الحبشة الأصليين ـ الحاميين الزنوج ـ الذين لم يكونوا قد تجاوزوا طور الحياة البدائية»[١].

ويمكن إدراك أن الموجة الثانية من قبائل جنوب الجزيرة العربية الذين عبروا مضيق باب المندب بحراً إلى الحبشة هم موجة عهد الملك ياسر الذي ذكر مؤرخون أوائل أنه «عبر ياسر البحر وسار على ساحله يريد أرض الحبشة فأخذها». وكان ذلك في أواسط القرن التاسع ق. م. وقد ذكر العالم الألماني أ. فورك ما دَلَّت عليه الدراسات حيث قال: «لقد تمكن السبئيون وأقرباؤهم الحميريون منذ أقدم العصور من مدّ سلطتهم على الساحل الإفريقي واستعمروا الحبشة»[٢]. وذلك لأنهم أسسوا المدن والمستوطنات التجارية اليمنية ـ السبئية الحميرية ـ والتي توسعت وازدادت في موجة القرن التاسع ق.م ـ عهد ياسر يُنعم ـ فشملت إلى جانب أكسوم والهضبة الشمالية من الحبشة هضبة هرر والقسم الشرقي والساحلي من الحبشة بمدلولها الواسع القديم الذي تذكر الدراسات أنه كان يمتد «إلى مصب نهر جوبا بالصومال ـ جنوباً ـ»[١] وذكر موسكاتي أيضاً: «إن الممالك اليمنية القديمة أقامت قواعد تجارية على سواحل الصومال»[٣] وقد شملت السلطة السبئية والمستوطنات التجارية منذ القرن التاسع ق. م. ـ عهد ياسر ينعم ـ بلاد الحبشة وأكسوم من الساحل واريترية وهضبة الحبشة إلى بلاد النوبة وهي شرق شمال السودان إلى جنوب مصر، وبذلك تم تنفيذ المرحلة الأولى من خطة تكوين العالم التجاري الكبير، وقد دَلَّت الدراسات والنقوش على أنه ـ وكما ذكر ممتاز العارف ـ «إن النقوش العربية الجنوبية التي تم العثور عليها في أكسوم وفي يحا وإلى الشرق حيث يمتد الطريق من ميناء عدول (أدوليس) تُبيّن سعة انتشار النفوذ السبئي في الحبشة قبل القرن السادس قبل الميلاد»[١٥] وذلك بصفة أساسية منذ أواسط القرن التاسع ق. م. ـ أي منذ موجة عهد ياسر يُنعم ـ وحتى القرن السادس ق. م.

٤ ـ وقد توجّه ياسر يُنعم من الحبشة والنوبة ـ شمالاً ـ إلى جنوب مصر، وذكر المؤرخون العرب الأوائل ذلك في نصين ومصدرين، **أحدهما**: ما نقله فاضل

---

(١) الأحباش بين مأرب وأكسوم ـ ممتاز العارف ـ ص١٢ ـ وكتاب أثيوبيا ـ ريتشارد جرينفلد ـ ص١٧.

(٢) موونغ وملكة سبأ ـ أ. فورك ـ المصدر المذكور في الفصل السابق.

(٣) الحضارات السامية القدمية ـ موسكاتي ـ ص١١٧.

الربيعي من أنه «أصدر ياسر ينعم أمراً عسكرياً إلى ابنه شمر يرعش.. وسار شمر يرعش يريد مصر ومنها الحبشة فاستولى عليهما». **وثانيهما**: قال نشوان الحميري: «كان ياسر يُنعم ملكاً عظيماً، خرج من اليمن غازياً، فدوَّخ الشام ومصر وقبض أتاوتهما»(١). ـ والصواب «.. الحبشة ومصر» بحيث وجّه الملك ياسر ابنه شمر يرعش بقوة عسكرية إلى جنوب مصر ثم سار الملك ياسر بنفسه من الحبشة والنوبة إلى مصر بما يتفق مع تنفيذ خطة تكوين العالم التجاري على مراحل فكان دخوله جنوب مصر وعاصمتها مدينة طيبة في السنة العاشرة أو الحادية عشرة من عهده، أي حوالي عام ٨٥٤ ق. م. ـ بأواسط القرن التاسع قبل الميلاد ـ وبالعودة إلى دراسات تاريخ مصر القديمة في ذلك القرن يقول (آلن جاردنر) ما يلي: «أن الظلمات حول أحداث التاريخ المصري تتكاثف في هذه المرحلة حتى لا نستطيع أن نلمح قبساً من الضوء يكشف لنا عن تتابعها»(٢). ويذكر (جاردنر) ملكاً عظيماً حكم مصر أو شمل حكمه مصر اسمه الملك «أوسر» وأنه دخل مدينة طيبة عاصمة مصر في العام الحادي عشر من حكمه ـ عام ٨٥٤ ق. م. ـ ويمكن إدراك أن الملك (أوسر) هو الملك (ياسر) وإن ملوكيته في مصر كانت ملوكية عليا لوجود ملك في نفس عهده بمصر اسمه (تكلوث) أصبح حليفاً للملك أوسر (ياسر) فقد أقام الملك أوسر (ياسر) في مصر أربع سنوات ثم سار منها في السنة الخامسة عشرة من عهده ـ أي عام ٨٥٠ ق. م. ـ ثم عاد إليها في العام ٢٣ من عهده (حوالي عام ٨٤٢ ق.م). وهذا يدل على أن ملوكيته في مصر كانت ملوكية عليَا وأنه لما أتم تنفيذ مرحلة بلاد الحبشة والنوبة وجنوب مصر بتكوين وتأمين المستوطنات والقواعد والمصالح التجارية سار من الحبشة وجنوب مصر إلى بلاد المغرب عام ٨٥٠ ق. م. ـ العام الخامس عشر من عهده ـ لتنفيذ المرحلة التالية من خطة تكوين العالم التجاري الكبير بينما تولى الحكم في مصر الملك تكلوت حليف الملك ياسر حتى عودته من بلاد المغرب، فذلك هو الضوء الذي يكشف تتابع أحداث تلك الحقبة من التاريخ.

* * *

---

(١) السيرة الجامعة ـ قصيدة نشوان ـ ص٨٩.

(٢) مصر الفراعنة ـ إلى جاردنر ـ ص٣٦١ و٣٦٣.

ثالثاً

المسير السبئي الحميري إلى بلاد المغرب بزعامة ياسر يُنعم وشمر يُرعش

كان مسير الملك ياسر يُنعم إلى بلاد المغرب عن طريق الحبشة وبلاد النوبة ـ شرق شمال السودان ـ وجنوب مصر ـ وليس عن طريق الشام والسويس كما ظن ابن خلدون في المقدمة ـ فالطريق التي سلكها الملك ياسر والجيش والقبائل الذين معه هو في بلاد وأعمال قد ملكوها وبسطوا سلطانهم ونفوذهم في ربوعها حيث مضى ياسر ينعم عن طريق الحبشة وجنوب مصر إلى بلاد المغرب بجحفل عظيم من الجيش والقبائل والعبيد ـ الذين تم سبيهم من الحبشة وما جاورها ـ وكذلك الخيول والركائب بما في ذلك الأفيال، وكل ما يلزم من المؤن والأزودة والعلوفة والميرة، فدخل الملك ياسر بذلك كله أول بلاد المغرب ـ وهي مناطق من ليبيا وتونس ـ فامتلكها وأسس قاعدة فيها ثم سار إلى ما يليها من بلاد المغرب تنفيذاً لخطة أشار إليها علقمة بن زيد الحميري في قصيدته التي تمثل فيها فتوح ومسير ياسر ينعم حيث قال في أبيات ذكرها الهمداني ونشوان:

أيا ياسر الأملاك قد رمتْ خطةً ... عَلَتْ فوق ـ تحمال ـ الملوك القماقم

. . سَلكتَ بلاد الغرب تطوي بجحفلٍ ... كمثل الدّبَا عند ارتجاج الهواجم

تفضّ جموعاً للأعاجم عنوةً ... بأبناء قحطان الحماة الخضارم

فأوردتهم في مورد لن ينالـه ... من الناس غازٍ رام أرض الأعاجم

أتيتَ بهم وادي الرسيل سيوله ... تسيل برمل كالجبال الرواكم

وقد ذكر ابن هشام وابن منبه ونشوان مسير الملك ياسر إلى أرض الحبشة فأخذها ثم سار إلى مصر ـ قال نشوان ـ «وقبض أتاوة مصر ـ أو أقواتها ـ وتوجه نحو المغرب». (ص٨٩) ـ وقال الحسن الهمداني في الإكليل ـ «هذا الملك ـ ياسر ـ من عظماء التبابعة، سار بنفسه غازياً نحو المَغرب فدوّخه ووطئه حتى بلغ وادي الرَّمل. . وبلغ البحر المحيط في غزوه»[1]. .

(١) الإكليل ـ الحسن الهمداني ـ ص٢٠٧ جـ٨.

وقد اتخذ مسير الملك ياسر والذين معه في بلاد المغرب المسار التالي:

١ ـ دخول الملك ياسر أول أقاليم المغرب وتأسيس قرطاجة

في منتصف القرن التاسع قبل الميلاد أجاز الملك ياسر ينعم والذين معه من جيش سبأ وحمير وقبائل قحطان من طريق الحبشة والنوبة جنوب مصر إلى أول أقاليم بلاد المغرب وهي مناطق ليبيا وتونس التي كانت تُسمى (أفريقية) نسبة إلى مدينة أفريقية التي بناها الملك إفريقيس بن ذي المنار عندما أوطن الموجة الأولى من قبائل البربر في بلاد المغرب ـ بالقرن الثاني عشر ق.م ـ وكانت مدينة أفريقية الأولى تلك قد تعرضت للاندثار والزوال قبل عهد ياسر ينعم فقام الملك ياسر والذين معه بتأسيس مدينة أفريقية الثانية التي يتبين من القرائن الزمنية أنها مدينة قرطاجة (قرطاجنة) بتونس وتم اتخاذها قاعدة واستقرّ وتوطن فيها قوة وقبائل من قوم ياسر الذين هم من الموجة أو الطبقة الثانية من القبائل اليمانية التي استقرت ببلاد المغرب وأسست المدن والمستوطنات التجارية في إطار خطة تكوين عالم تجاري كبير.

ويتبين من البحث في دراسات تاريخ العصور القديمة وأفريقية الشمالية:

● ـ أن مدينة قرطاجة تأسست في القرن التاسع قبل الميلاد بإجماع الدراسات والمصادر التاريخية[١]. ويتطابق ذلك مع زمن مسير ياسر ينعم والذين معه إلى أفريقية وبلاد المغرب.

● ـ وتنسبُ الدراسات بناء مدينة قرطاجة إلى الفينقيين وتقول إنه: «في القرن التاسع ق. م. جاءت موجة من الفينقيين بحراً من منطقة الساحل السوري اللبناني ـ فينيقيَة ـ إلى شمال أفريقية وأسسوا المدن والمستوطنات التجارية وفي مقدمتها مدينة قرطاجنة ثم انتشرت مستوطناتهم إلى سواحل الإتلانتيكي»[١] وقد دلت الدراسات والمصادر التاريخية بما في ذلك المصادر اليونانية على أن الفينيقيين جاؤوا من جنوب الجزيرة العربية، وقد استقصى وذكر تلك الأدلة والمصادر الباحث اللبناني فرج اللّه ديب ثم قال ما يلي نصه: «إن من سمّيوا فينيقيين ليسوا إلا أجدادنا عرب الحضارة اليمنية الأقدم»[٢].

وقد سُمّي باسم (فينيقيين) الذين انتقلوا من اليمن (جنوب الجزيرة العربية)

---

(١) تاريخ الشعوب والحضارات ـ ترادكسيم ـ ص٣٥.

(٢) اليمن هي الأصل ـ فرج اللّه ديب ـ ص١٦

وسكنوا منطقة الساحل السوري اللبناني التي سُميت (فينيقية) ـ منذ القرن الثاني عشر ق. م. ـ ثم أن الدارسين اعتبروا أن منهم الذين جاؤوا إلى قرطاجة وشمال أفريقية في القرن التاسع ق. م. وذلك يؤكد أن الجميع من أصل واحد هو جنوب الجزيرة العربية، ولكن أنباء ووقائع بناء مدينة قرطاجة تتيح إدراك أن الذين جاؤوا إلى شمال إفريقية وأسسوا قرطاجة لم يأتوا بحراً من الساحل السوري اللبناني وإنما جاؤوا براً عن طريق الحبشة والنوبة جنوب مصر إلى بلاد المغرب شمال أفريقية وأسسوا المدن والمستوطنات التجارية وفي مقدمتها مدينة ٧قرطاجنة، فقد ذكرت الدراسات والمصادر التاريخية إن الذين جاؤوا وأسسوا مدينة قرطاجنة واستقروا بها «كان منهم أربعة آلاف من الفرسان بخيولهم وكان معهم ثلاثمائة من الأفيال (الفيلة) وعشرون ألفاً من الجنود المشاة وبضعة آلاف من العبيد»[(١)] فوجود ذلك العدد الكبير من الفرسان والخيول والأفيال والجنود والعبيد يدل على أن مجيأهم كان براً عن طريق الحبشة والنوبة ـ السودان ـ ومنها تم اقتناء الأفيال وأن العبيد تم سبيهم من الحبشة وما جاورها، وساروا من طريق الحبشة والنوبة وجنوب مصر إلى المغرب حيث أسسوا تلك المدينة التي سُميت قرطاجنة في تونس وهم جيش وقوم ياسر ينعم الذين هُم والفينيقيون من جنوب الجزيرة العربية من أجدادنا عرب الحضارة اليمنية التليدة. وقد تم بناء مدينة قرطاجة (قرطاجنة) كقاعدة وعاصمة رئيسية وجاء في تفصيل ذلك أنه «تم بناء ثلاثة أسوار ضخمة للمدينة تتصل فيما بينها بقناطر، فكان النظام الدفاعي للمدينة أشبه بحصن هائل، وكان الحيز القائم أسفل القناطر مقسماً إلى طابقين يضم الطابق الأسفل مرابط لثلاثمائة من الأفيال وساحة لتخزين العلف الخاص بها، أما مباني الطابق العلوي فكانت تضم ثكنات لأربعة آلاف من الفرسان وعشرين ألفاً من المشاة بالإضافة إلى إسطبلات ومخازن تبن لأربعة آلاف من الخيل»[(١)] واقترن بناء المدينة ببناء ميناء بحري حيث تذكر الدراسات أنه «قام آلاف العبيد بحفر قناة دائرية ضخمة كانت هي القاعدة البحرية وأحاطوها بإقامة رواق مقنطر دائري هائل تقوم أعمدته من الداخل ولا يبدو منه في الخارج سوى سور مصمت، بحيث كانت القاعدة البحرية غير مرئية

(١) تاريخ الشعوب والحضارات ـ ترادكسيم ـ ص٨٢.

من ناحية البحر، وفي داخل الرواق كان يتم بناء السفن، وكان الرواق يهيء مراسي لعدد كبير من السفن ويسمح لعمليات بناء السفن أن تجري على قدم وساق»[١] فكان بناء مدينة قرطاجة وإستيطانها وبناء قناطرها وأسوارها والميناء البحري فيها هو الإنجاز الرئيسي الأول في ذلك المسير إلى بلاد المغرب في ذلك القرن التاسع قبل الميلاد.

٢ ـ مسير شمّر يرعش بالسفن إلى سواحل وجزر المغرب وبلوغ ياسر يُنعم البحر المحيط

وقام الملك ياسر يُنعم بتوجيه ابنه الملك شمّر يُرعش بالسفن ـ من ميناء قرطاجة ـ إلى سواحل وجزر المغرب الأوسط والأقصى فسار بعشرة آلاف مقاتل بحراً بالسفن بينما سلك ياسر ينعم الطريق البري ـ من قرطاجة ـ إلى بلاد المغرب والمحيط، وقد استخلص الأستاذ فاضل الربيعي من بعض كتب التاريخ التراثية عن ذلك قوله ما يلي نصه: «كان هدف ياسر بلوغ البحر المحيط، وقد أصدر أمراً عسكرياً لولده شمر يرعش بقيادة حملة بحرية فسار بعشرة آلاف راكب ـ بحراً بالسفن ـ بينما سلك والده الطريق البري الصحراوي. وقد تسنى لياسر ينعم أن يتوقف في طريق حملته الحربية عند موقع نُصب فيه تمثال ـ أو نصب تذكاري ـ للملك الصعب ذي القرنين ـ [أو للملك ذي المنار] ـ وهو موقع قريب من تجمع يُقال أنه للصقالبة ـ [أبو الصقالية] ـ فهاجمهم ورجع منهم بسبي كثير. وفي الأثناء كان شمر يرعش يزحف نحو هدفه عبر البحر ويقترب منه رويداً، ولاحت له في البحر إحدى منارات الملك الصعب التي اشتهر ببنائها في البحر ـ [وهي منارات الملك ذي المنار وابنه إفريقيس] ـ فأمر شمر يرعش جنوده وصُناعه ببناء واحدة باسمه إلى جوار منارة الملك الصعب ـ [أو منارة ذي المنار] ـ وكان ذلك عنواناً للقاء قائدي الحملة»[٢]. ولعل ذلك أيضاً يشير إلى إعادة تكوين مستوطنة تجارية ساحلية بالمغرب مثل (أوتيكا) التي تذكر الدراسات تشييدها بعد قرطاجة. وبلغ ياسر ينعم بالجيش الذي معه ـ براً ـ ساحل البحر المحيط كما بلغ شمر يرعش ذلك المكان بالسفن البحرية. وقد ذكر الحسن الهمداني

---

(١) تاريخ الشعوب والحضارات ـ ترادكسيم ـ ص٨٢.

(٢) الشيطان والعرش ـ فاضل الربيعي ـ ص١٣٢.

في الإكليل أنه «بلغ الملك ياسر البحر المحيط في غزوه»[١].

وقد ذكرت دراسات تاريخ العصور القديمة أن الذين أسسوا وتوطنوا مدينة قرطاجنة «انتشرت مستوطناتهم التجارية إلى سواحل الإتلانتيكي» ـ أي البحر المحيط الأطلسي ـ وذلك هو دليل ونتيجة المسير الذي ذكر المؤرخون الأوائل ومنهم الهمداني أن الملك ياسر ينعم بلغ فيه البحر المحيط.

٣ ـ بلوغ الملك ياسر وادي الرمل بأقصى المغرب.. وأنباء صنم المغارب

قال الحسن الهمداني: «بلغ الملك ياسر البحر المحيط في غزوه ثم سار بنفسه غازياً نحو المغرب ـ أي المغرب الأقصى ـ حتى بلغ وادي الرمل»[١] وقال نشوان الحميري: «توجه ياسر نحو المغرب حتى بلغ وادي الرمل الذي يسيل، ولم يبلغه أحد من الملوك غيره، ويقال أن اسم الوادي الرسيل» ـ وهو الذي ذكره علقمة بن زيد في قوله:

أتيت بهم وادي الرسيل سيوله   تسيل برمل كالجبال الرواكم

قال الهمداني: «فلما أتى الملك ياسر الوادي الذي يسيل رمله لم يجد مخرجاً ولا مجازاً، حتى جاء يوم سبت فلم يجر الرمل إذ لم يجده يسير ولا رآه يتحرك، فأمر رجلاً من أهل بيته أن يعبر الوادي بأصحابه (وكان يُقال له عمرو بن زيد) فعبر بأصحابه فلم يرجع منهم أحد» ـ وكذلك ذكر نشوان ثم قال: «ويقال أنه لا يوجد خلف ذلك الوادي نبات ولا شيء من الحيوان» (ص٨٩) ـ ويتبين من وصف الرمال وإنها تسيل وتتحرك أن ذلك الوادي ـ وادي الرمل ـ هو منطقة كثيفة الرمال من الصحراء الكبرى في جنوب بلاد المغرب الأقصى (باتجاه موريتانيا والسنغال حالياً) حيث توجد صحراء رملية شاسعة رمالها متحركة فتلك المنطقة هي وادي الرمل. فلما وصل الملك ياسر إلى مشارف تلك المنطقة عسكر فيها وبعث قائداً من جيشه على رأس قوة من أصحابه لاستكشاف ذلك الوادي الرملي وما يليه من أرض، فعبروا إلى داخل الوادي وساروا داخله أياماً فانقطع خبرهم ولم يرجع منهم أحد، فلما يأس الملك من رجوعهم وقع في ظنه صحة ما كان شائعاً عند

(١) الإكليل ـ الحسن الهمداني ـ ص٢٠٧ جـ٨.

الناس من عدم وجود حياة ولا نبات خلف ذلك الوادي الرملي الصحراوي من المغرب الأقصى .

قال نشوان: «فلما رأى ذلك ياسر يُنعم ـ أي رأى عدم رجوع القائد وأصحابه ـ أمر ياسر ينعم بصنم من نحاس فَصُنع ونُصِب على صخرة، ثم كتب على صدر ذلك الصنم كتابة بالمسند» (ص٨٩). وكذلك قال الهمداني: «أمر ـ ياسر ـ بصنم من نحاس فنُصب على صخرة وكتب على صدره بكتابة المسند» (ص٢٠٧/٨) قال نشوان: «وقيل أن ذلك الصنم على هيئة الإنسان، لا يزال يشير إلى من أتى إليه من أمامه أن يرجع» (ص٨٩) ويبدو من ذلك أن الصنم كان تمثالاً للقائد الذي دخل وادي الرمل بأصحابه ولم يرجعوا، وتخليداً لذكرى ذلك القائد صنع الملك ياسر ذلك التمثال من النحاس البرونز وكتب على صدر التمثال كتابة بالمسند، وقد اجتهد بعض الإخباريين فنقل عنهم المؤرخون أنه: كان المكتوب بالمسند «صنع هذا الصنم الملك الحميري ياسر ينعم، ليس وراء هذا مذهب، فلا يجاوزه أحدٌ فيعطب». ثم بعد ذلك أبيات من الشعر، والصحيح أنه كان على التمثال كتابة بالمسند ولم ينقل نصها ومعناها أحد لتقادم الأزمنة والعصور وكان فيها اسم ولقب (ياسر يُنعم ملك سبأ وذي ريدان) واسم القائد وبلوغهم ذلك المكان، وقد تواتر ذكر ذلك عند المؤرخين عبر الأجيال، فقال ابن الكلبي: «كانت كُتب الملوك التبابعة بباب مرو، وسمرقند، وفي صنم المغرب، وبباب ذي الكلاع من أرض الروم» وقال الشاعر الكبير دعبل بن علي الخزاعي في أبيات عن الملوك التبابعة:

وهُم كتبوا الكتاب بباب مرو ... وباب الروم كانوا الكاتبينا
وفي صنم المغارب فوق رملٍ ... تسيل تلوله سيل السفينا

وقال نشوان الحميري:

أوْ ياسرُ الملِكُ المُعيد لما مَضى ... من مُلْكِ حَيٍّ لا تراهُ لَقاحِ
أبقى بوادي الرَّمل أقصى موضعٍ ... بالغرب مُسْنَدَ ماجِدٍ جَحْجَاحِ

وعاد الملك ياسر يُنعم من وادي الرمل إلى ساحل البحر المحيط وإلى قرطاجة حيث أتم توجيه حاميات عسكرية وقبائل من الذين معه إلى أرجاء من بلاد المغرب وإلى بعض الجزر والسواحل لتأسيس مستوطنات تجارية، وقد أشار الهمداني إلى ذلك بقوله: «وبعث ياسر عساكره، إلى الإفرنج السكسن ـ أو

البشكنس ـ وأرض الصقالية فغنموا ورجعوا إليه بسبي كثير». (ص٢٠٨/٨). والمقصود بأرض الإفرنج البشكنس منطقة جنوب الساحل الإسباني المقابلة لساحل المغرب وأرض الصقالية هي جزيرة صقلية التي تقع في مقابلة ساحل تونس وقرطاجة، ولعل أصل ذلك تكوين مستوطنات وقواعد تجارية في تلك الجهات ترتبط بمدينة قرطاجة التي أصبحت بمثابة المدينة العاصمة لبلاد المغرب وتتبعها المستوطنات والقواعد التجارية التي تأسست في أرجاء بلاد المغرب (شمال أفريقية) حتى سواحل الإتلانتيكي المغربية والإسبانية في إطار تنفيذ خطة تكوين عالم تجاري كبير.

٤ ـ عودة الملك ياسر من المغرب إلى اليمن وخاتمة أنباء عهده

وقد مكث الملك ياسر ينعم ببلاد المغرب زهاء تسع سنين ما بين عام ٨٥٠ ق. م. وعام ٨٤٢ ق. م. وكان ممن استخلفهم بقرطاجة وبلاد المغرب القائد الأمير (شراحيل نفيل بن أعرب ينكف) الذي ذكر الهمداني أنه «وجد أسعد تُبّع مسند شراحيل نفيل بالمغرب»[١] وكان شراحيل نفيل من جيل ياسر يُنعم. وقد عاد الملك ياسر من المغرب إلى جنوب مصر ـ عام ٨٤٢ ق. م. ـ وتولى مصر الملك تكلوت، ومضى الملك ياسر إلى ساحل البحر الأحمر حيث كان ميناء عدول (إدوليس) في ساحل ولاية أكسوم السبئية بالحبشة ثم أجاز البحر الأحمر إلى اليمن بالسفن وبالقادة والجيش بعد إتمام تلك المراحل من خطة تكوين العالم التجاري.

وأقام ياسر ينعم فترة في القصر ريدان بمدينة ظفار، وقام بأعمال عمرانية في تأسيس مدينة هكر جاء ذكرها في نقش مسند باسم (ياسر يهنعم وابنه شمر يُهرعش) في موقع هكر، ثم سار الملك ياسر من القصر ريدان والمدينة ظفار إلى العاصمة مأرب والقصر سَلْحِين بمعية ابنه شمر يرعش، وقد تم العثور في معبد أوام المشهور بمحرم بلقيس في مأرب عاصمة سبأ على نقش مكتوب بالمسند، جاء فيه أن «ياسر يهنعم وابنه شمر يهرعش ملكي سبأ وذي ريدان أقنيا ـ الإله ـ إل مقه بعل أوام عدة أصلام من الذهب لأنه حقق كل الآمال والتوقعات التي علقاها عليه وبمناسبة قدومهما من القصر ريدان ومدينة ظفار إلى مدينة مأرب

(١) الإكليل ـ الحسن الهمداني ـ ص٩٨ جـ٢.

والقصر سلحين. ومن أجل أن يستمر الإله في غمرهما بالعافية وتحقيق كل الآمال والتطلعات، ومن أجل أن يضعنّ ويحطمنّ ـ الإله ـ كل عدو محارب أو حاقدٍ أو شانئٍ وكل من يحاربهما أو يُدبر سوءاً في البحر واليابس. (من/بحر/ويابسم) ـ» ـ انتهى ـ[1].

كما تم العثور في محرم بلقيس على ثلاثة نقوش مسندية كتبها عدد من الأقيال القادة ويذكرون فيها «آمرهم ياسر يهنعم وابنه شمر يهرعش ملكي سبأ وذي ريدان»[2] وآخرها مؤرخ بخريف خمسة وثمانين وثلاثمائة بالتقويم السبئي والزمن الصحيح الموافق لذلك هو عام ٨٣٥ قبل الميلاد.

رابعاً

مسير الملك أبي كرب أسعد إلى المغرب سنة ٦٧٩ ق.م

وفي القرن السابع ق. م. تسنم سدة عرش تبابعة سبأ الملك «أبي كرب أسعد» وقد ذكر الحسن الهمداني في الإكليل «أن أبا كرب أسعد تُبع كان في أيام بُخت نصّر ملك بابل»[3] وهو نبوخذ نصر الذي تولى عرش بابل عام ٦٠٥ ق. م. في القرن السابع ق. م. وتؤكد النقوش صحة أن أبا كرب أسعد كان في القرن السابع قبل الميلاد، ومن نقوش عهده نقش مؤرخ بعام ٥٤٣ للتقويم السبئي ويوافق ٦٧٧ق. م. ــ في القرن السابع قبل الميلاد ــ[4] وقد قام أبو كرب أسعد بقيادة وتوجيه فتوحات إلى الشام ومنطقة فينيقية بالساحل السوري لإعادة تكوين وتأمين العالم التجاري الكبير وتأسيس مستوطنات تجارية[4] ثم سار أسعد ــ عام ٦٧٩ ق. م. إلى مصر وبلاد المغرب حيث ذكر الهمداني في الإكليل أن: ــ « . . شراحيل نفيل بن أعرب ينكف هو الذي وجد أسعد مسنده في أقصى المغرب» (ص٩٩/ ٢) وقد أوطن أبو كرب أسعد جُنداً من الذين معه في قرطاجه وغيرها من

(١) في تاريخ اليمن ـ النقش رقم ١٤ كهالي ـ.
(٢) نقوش سبئية من محرم بلقيس ـ ألبرت جام ـ ٦٤٦ و٦٤٧ و٦٤٨.
(٣) الإكليل ـ الحسن الهمداني ـ ص١٠١ جـ٨.
(٤) الجديد في تاريخ دولة وحضارة سبأ وحمير ـ محمد الفرح ـ ص٥٣٧ ـ ٥٦٩

المغرب . وقال علقمة بن ذي جدن عن الأميرة لميس بنت الملك أسعد :

ولـميسُ كـانـت فـي ذؤابـة نـاعـطٍ   يجبي إليها الخُرْجَ صاحب بربر

قال الهمداني : « وقال بعض آل أسعد بن ملكيكرب تُبع :

. . ومنّا بأرض الغرب جُندٌ تعلّقُوا   إلـى بـربـر حـتـى أتـوا أرض بـربـر »

وكان الذين توطنوا ببلاد المغرب في موجة زمن أسعد من نفس الطبقة الثانية من قبائل البربر وهم الحميريون القحطانيون الذين استقروا هناك منذ عهد ياسر ينعم بالقرن التاسع ق. م.

* * *



أهم قبائل الطبقة الثانية من قبائل البربر ـ الحميريين القحطانيين ـ الذين استقروا ببلاد المغرب منذ زمن ياسر يُنعم، وأصولهم اليمانية

لقد كانت القبائل اليمنية التي استوطنت واستقرت ببلاد المغرب منذ القرن التاسع قبل الميلاد ـ (زمن ياسر ينعم) ـ قبائل حميرية سبئية قحطانية في غالبيتها ولم تكن من نسب الموجة الأولى التي استقرت في زمن إفريقيس والتي كانت غالبيتها قبائل أمازيغ بن كنعان الذين هم البربر، أو الطبقة الأولى من البربر.

وقد ربط الدارسون بين الذين استوطنوا قرطاجنة وبلاد المغرب في القرن التاسع ق.م. وبين الفينقيين الذين كانوا يسكنون منطقة الساحل السوري اللبناني (فينيقية) بحيث تذكر الدراسات «أن الفينيقيين أسسوا المدن والمستعمرات في شمال أفريقية بالقرن التاسع قبل الميلاد وفي مقدمتها مدينة قرطاجنة ثم أوتيكا، وانتشرت مستوطناتهم إلى سواحل الإتلانتيكي . .» وتؤكد تلك الدراسات بطريقة غير مباشرة أنهم في الأصل منَ اليمن لأن الفينيقيين من جنوب الجزيرة العربية بحيث كما أكدّ الأستاذ فرج اللّه ديب: «إن من سميوا فينيقيين ليسوا إلا أجدادنا عرب الحضارة اليمنية الأقدم».

ثم أن الدراسات تتحدث عن الذين استقروا في قرطاجة وشمال أفريقية ـ ليس باسم فينيقيين ـ وإنما باسم خاص متميز هو اسم «قرطاجنين CARTHAGINIANS» وليس ذلك أيضاً اسم قبيلة ولا نسباً لهم وإنما هو نسبة إلى مدينتهم وعاصمتهم قرطاجنة التي كانت أول المدن التي أسسوها والتي امتدت مستوطناتها التجارية إلى سواحل الأطلسي ثم في عهود تاليه ـ وكما ذكر د. جيمس هنري بريستد ـ «أصبحت قرطاجنة دولة شديدة الحَوْل عظيمة الطَوْل»[1] فكان لقرطاجنة والقرطاجيين تاريخ حضاري وتجاري مجيد وامتد سلطانهم إلى ساحل

(١) العصور القديمة ـ د. جيمس هنري بريستد.

إسبانيا وجزيرة صقلية وغيرها لعدة قرون، وقال عنهم د. جيمس هنري بريستد «كان يجري في عروق القرطاجيين دم قبائل العرب الأشداء»[١] ثم انتهت دولة قرطاجة بالغزو والاحتلال الروماني وتدمير الرومان لقرطاجة وحضارتها عام ١٤٦ ق.م. ـ في أواسط القرن الثاني قبل الميلاد، وبذلك ينتهي تاريخ القرطاجيين في الدراسات والكتب عن الحضارات والعصور القديمة، بينما الذي انتهى بالغزو والتدمير الروماني عام ١٤٦ق.م. إنما هو تاريخ مدينة ودولة قرطاجة وحضارتها، وليس تاريخ الشعب والأمة الذين سمّاهم الدارسون باسم (قرطاجنين) وكانوا ينتشرون في أرجاء كثيرة من شمال أفريقية منذ القرن التاسع إلى القرن الثاني قبل الميلاد، فقد استمر ذلك الشعب موجوداً بعد سقوط قرطاجة بيد الرومان في أرجاء البلاد بالضرورة لأنهم أهل البلاد، ويطالعنا الواقع السكاني بحقيقة وجودهم وضخامة قبائلهم التي كانوا ينتسبون إليها وأصولهم وجذورهم العريقة فلم تكن فينيقية ولا قرطاجة نسباً ولا أصلاً لهم وإنما هم قبائل صنهاجة وكتامة ولواته وعهامة وزناته وغيرهم من القبائل والعشائر ذات الأصول والجذور اليمنية العربية العريقة وقد شملهم اسم البربر ولكنهم ليسوا من البربر الذين هم أمازيغ بن كنعان وإنما يمكن اعتبارهم الموجة أو الطبقة الثانية من البربر.

وقد سلف تبيين أن نسّابة البربر يُقسمون قبائل البربر إلى فرعين: **أحدهما**: فرع البرانس وهم أمازيغ بن كنعان **وثانيهما**: فرع البتر، حيث وكما ذكر الأستاذ محمد المختار العرباوي: «إن النسابين: هاني بن بكور الضريسي، وسابق بن سليمان المطماطي، وكهلان بن أبي لوا، وهاني بن مسرور، والكومي، وسالم بن سليم المطماطي، وغيرهم، وهم جميعاً من نسّابة البربر، يعدّون فرع البرانس فقط من السلالة الكنعانية ـ الأمازيغ ـ أمافرع البترفلا»[٢].

ويكتسب أهمية أساسية «انتماء قبائل بربرية إلى أصلها العربي» ويشمل ذلك قبائل فرع البتر وقبيلتي صنهاجة وكتامة، ونذكر تلك القبائل فيما يلي:

١ و٢ ـ **صنهاجة وكتامة**: وقد اعتبرهم نسّابة البربر من فرع البرانس الذي جميع فصائله من البربر الأمازيغ، بينما يؤكد المؤرخون: أن هاتين القبيلتين من عرب اليمن، من حِمْيَر. وقد ذكر ذلك كل من الطبري، والجرجاني، والمسعودي،

---

(١) العصور القديمة ـ د. جيمس هنري بريستد.

(٢) البربر عرب قدامى ـ محمد المختار العرباوي ـ ص٢٧٩.

وابن الكلبي، وابن شريّة، والبليّ، والبيهقي، والصولي، والبكري، والسهيلي، والحسن الهمداني، ونشوان الحميري. وهذا إجماع أهل التحقيق بأن صنهاجة وكتامة من القبائل الحميرية اليمانية. وإنما انتقلت بعض عشائر صنهاجة وكتامة في الموجة الأولى مع أمازيغ بن كنعان البربر في زمن إفريقيس ولذلك وقع الالتباس، والصحيح أنهم من القبائل اليمنية الحميرية وقد انتقلت بقية قبيلتي صنهاجة وكتامة من اليمن في موجة زمن ياسر ينعم ـ القرن التاسع ق.م. ـ فكانت زعامة قرطاجة في أمراء وقادة من صنهاجة ـ غالباً ـ شملت زعامتهم كل قبائل وأرجاء شمال أفريقية في عصور دولة قرطاجة ولم تنقطع بعد سقوط قرطاجة ـ في القرن الثاني ق.م. ـ وإنما انتقلت زعامة صنهاجة إلى الأرياف، وقد سلف ذكر خطبة الأمير أبي الفتح المنصور الصنهاجي بأنه ورث الولاية عن أجداده «الذين ورثوه عن آبائهم وأجدادهم حِمْيَر»، فاعتزاز وتمسك صنهاجة بنسبها اليمني الحميري لم ينقطع عبر الأجيال.

٣ ـ **قبيلة زناتة**: ـ وهي من فرع البتر الذي يعدّه نسّابة البربر أنفسهم بأنهم من غير نسب البربر الأمازيغ، وأنما زناتة قبيلة من عرب اليمن وقد جاء في الجزء الثاني من كتاب الإكليل إنهم بنو «زِنيت ـ وهو زِناتة ـ بن مرّة بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن جيدان بن قَطَن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان»[١] ونقل العرباوي عن كتاب القصد والأمم «أن زناتة من قبيلة لَخْم. ولخم قبيلة يمنية من كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان»[٢] ونقل العرباوي أيضاً عن ابن خلدون «أن نسّابة زناتة ينسبون قبيلتهم مرة إلى حمير، ومرة إلى العمالقة». وتتفق جميع تلك المصادر بأن زناتة قبيلة يمانية وقد ذكرت أكثر المصادر بالتحديد أنهم قبائل حميرية قديمة وربما دخل فيهم وانتسب فيهم جماعات من لخم، ولكن غالبيتهم من قبائل حمير القديمة ونسبهم كما في الإكليل وقد انتقلت أول جماعة من زناتة إلى المغرب في زمن أفريقيس ثم بقيتهم في موجة زمن الملك ياسر غالباً. وذكر ابن خلدون أن قبيلة زناتة قديمة وأن أوليتها «مساوقة لأولية البربر منذ أحقاب متطاولة، وأن مواطنها كانت من لدن جهات طرابلس إلى جبال أوراس والزاب، وكانت فيهم كثرة ورياسة قبل الإسلام،

---

(١) الإكليل ـ الحسن الهمداني ـ ص١٠١ جـ٢.

(٢) القصد والأمم في التعريف بأصول أنساب العرب والعجم ـ ابن عبد البر القرطبي ـ ص٢٥.

وإنها شبيهة بالعرب ـ أي ببعض قبائل العرب ـ (في سكنى الخيام واتخاذ الإبل وركوب الخيل والتغلب على الأرض، وتخطف الناس من العمران والإباية عن الانقياد للنصفة)[١]. وما تزال بعض القبائل باليمن لديها طباع زناتة حتى اليوم».

٤ ـ ٦ ـ **قبائل زوارة ومكلاتة وغُمارة:** وجميعها تنتسب إلى الأصل العربي اليمني الحميري، وهي:

أ ـ زوارة: يعدّها نسّابة البربر من فرع البتر، وذكر ابن حزم وابن خلدون أن زوارة من كتامة.

ب ـ مكلاتة: من بطون قبائل فرع البتر. وقد ذكر العرباوي أن سابق المطماطي النسّابة البربري وأصحابه يقولون: «إن مكلاتة من حمير»[٥].

جـ ـ بنو غمارة: بطن من فرع البرانس ويقول العامة منهم «أنهم عرب». وقال ابن خلدون: «أما نسّابة البربر فيزعمون في بعض شعوبهم أنهم من العرب.. مثل غمارة وزوارة ومكلاتة يزعم نسابتهم أنهم من حِمْيَر»[٥] وطالما أن تلك القبائل نفسها تذكر أنها عربية حميرية ويذكر ذلك أيضاً نسّابة البربر، فهم من أصول عربية يمانية بدون خلاف.

٧ ـ **قبيلة لَوَاتَة:** تعدُّ قبيلة لواتة من فرع البتر عند بعض النسابين، وقد عدّها ابن خلدون من فرع البتر البربري، بينما قبيلة لواتة نفسها تذكر نسبها وأصلها العربي، وقد ذكر النوري في نهاية الأرب أنه «تقول لواتة أنهم قوم ناقلة قد صاروا إلى بلد البربر»[٢] وقال العرباوي: «وكون لواتة ليست من البربر ـ [أي من أمازيغ بن كنعان] ـ فهذا ما يقوله نسّابة البربر أنفسهم الذين يعدّون بعض شعوبهم من العرب ومنهم لواتة التي يقولون عنها أنها من حمير»[٣] فالأصل العربي لقبيلة لواتة ليس أنهم من قيس كما زعم البعض وإنما الصحيح الذي ذكره نسّابة البربر أنفسهم أن لواتة عرب يمانيون من حِمْيَر، ويؤكد ذلك علماء المؤرخين والنسابين اليمنيين الأوائل حيث قال ابن شرية الجرهمي ونشوان الحميري: «كُتامة وعُهامة وزناتة ولواتة وصنهاجة قبائل ضخمة في المغرب من حمير»[٤] وقد حفظ لنا كتاب الإكليل النسب الكامل لقبيلة لواتة بأنهم: بنو

---

(١) البربر عرب قدامى ـ محمد العرباوي ـ ص٢٨٥.

(٢) نهاية الأرب ـ النوري ـ ص٢٨٩/٢.

(٣) البربر ـ العرباوي ـ ص٢٨٨ ـ تاريخ ابن خلدون ـ ص١٧٢/٦.

(٤) السيرة الجامعة ـ نشوان الحميري ـ ص٧٢.

«لواتة بن مُرَّة بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن جيدان بن قَطَن بن عَريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن حِمْيَر بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان»[١].

وجاء في الإكليل أنهم ممّن أشخصهم الملك إفريقيس من اليمن إلى المغرب[١] ـ أي في الموجة الأولى ـ وربما انتقلت إحدى عشائرهم من اليمن إلى المغرب آنذاك، ولكن أغلب وبقية لواتة كان انتقالهم في الموجة الثانية بالقرن التاسع ق.م. ـ في عهد الملك ياسر ـ وربما انتقل بقيتهم فيما بعد في عهد أبي كرب أسعد كامتداد للموجة الثانية ذات الصلة بمصطلح القرطاجيين «وقد جاء اسم لواتة ضمن القبائل التي ذكرها هيرودوتس اليوناني (بالقرن الخامس ق.م.) وسترابون (القرن الأول ق.م.) وذكرها قبلهما (بروكوبوس) الذي قال: «إن لواتة منتشرة بين خليج سرت الكبير ومدينة (أوئيا) طرابلس»[٢] وأن جموعاً من لواتة زحفت نحو أفريقية (تونس) في عهد (ثاساموند) الوندالي (٤٩٦ ـ ٥٢٣ ق.م.) واشتبكت مع جيشه وهزمته في ناحية تقع على الخط الجنوبي لقابس. وتحدث (بروكوبوس) عن تلك المعركة التي استعمل فيها الجمل لأول مرة بكيفية غير معهودة[٢] وقد توغلت (قبائل الجمّالة) اللواتية الرحالة فيما بعد إلى الداخل وشاركوا في مقاومة النفوذ الوندالي والبيزنطي متحالفين مع القبائل الجبلية التي كان يتزعمها أميرها (أنطال). وعندما جاء الإسلام ووقع الفتح العربي الإسلامي كان معظم اللواتيين يقطنون بإقليم برقة[٣] أي في ليبيا وهي المنطقة التي سكنوها منذ انتقالهم من اليمن إلى المغرب في القرن التاسع ق.م. ثم في عصر دولة قرطاجة وحتى مجيء الإسلام.

٨ ـ **قبيلة مزاتة**: ذكر اليعقوبي النسب العربي اليمني لقبيلة مزاتة وهو بصدد الحديث عن ساكني المنطقة الواقعة جنوب خليج سرت ما بين مدينة (سرت) و(ودان) مما يلي القبلة، وذلك في ليبيا حيث قال إنهم «قوم يدّعون أنهم من اليمن وأكثرهم من مزاتة وهم الغالبون»[٤]. ويعزز ذلك أيضاً أن ابن خلدون ذكر «إن مزاتة من بطون لواتة». وقد سلف تبيين أن لواتة من قبائل حمير، والمهم في

---

(١) الإكليل ـ الحسن الهمداني ـ ص١٠١ جـ٢.
(٢) تاريخ أفريقية الشمالية ـ جوليان أندري شارل ـ ص٣٤٩.
(٣) نهاية الأرب ـ النوري ـ ص٢٨٩/ ٢.
(٤) كتاب البلدان ـ اليعقوبي ـ ص٢٣٠.

نسب واصل مزاتة أن المزاتيين نفسهم ذكروا أنهم من اليمن، وتدل مجاورتهم للواتة وهوارة ـ بليبيا ـ إنهم من موجة عهد ياسر يُنعم ـ بالقرن التاسع ق.م. ـ والذين تم تعزيزهم في عصر أبي كرب أسعد، فهم من الذين سمّاهم الدارسون باسم قرطاجيين والذين هم جميعاً من اليمن.

٩ ـ قبيلة هوارة:

وهي من القبائل اليمنية التي شمّلها اسم البربر وقد اعتبرهم النسابون من فرع البرانس الذين هم أمازيغ بن كنعان، ولكن قبيلة هوارة نفسها تأبى ذلك وتؤكد أنها من اليمن بحيث قال اليعقوبي: «تزعم هوارة أنهم قوم من اليمن جهلوا أنسابهم»[١]، وقال شهاب الدين النوري: «وهوارة تزعم أنهم قوم ناقلة من اليمن جهلوا أنسابهم»[٢]. والمقصود أن قبيلة هوارة تأبى قول النسابين بأنها من فرع البرانس وتذكر أن هوارة قبيلة انتقلت من اليمن ولكنهم جهلوا القبيلة التي نسبهم منها في اليمن وهو قول غير دقيق، فقد ذكر ابن عبد البر في كتاب القصد والأمم: أن هوارة تقول عن نفسها أنها من اليمن من قبيلة عاملة[٣]. وبنو عاملة الذين منهم هوارة قبيلة يمنية مشهورة وهم كما في كتاب الإكليل: «عاملة بن عدي بن الحارث بن مرّة بن أدد بن زيد بن عمرو بن عَرِيب بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان»[٤].

وقد انتقلت قبيلة عاملة بأكملها من اليمن إلى الشام (في قرون ما قبل الميلاد) واستقروا في برية الشام وجبال عاملة ثم انتقلت إحدى بطون عاملة من الشام إلى بلاد المغرب وهم هوارة. وقد ذكر الهمداني عن عاملة أنه «بجبال عاملة من بلاد الشام منهم الجم الغفير». وقال ابن عبد البر: «وتقول هوارة أنهم من عاملة وأنهم انتقلوا من الشام»[٣] وذكر القلقشندي: «إن قبيلة هوارة سكنت ما بين الإسكندرية غرباً إلى العقبة الكبيرة من برقة»[٥] ولكن «أغلبية هوارة كانت تسكن ما بين طرابلس وبرقه عند مجيء الإسلام» وذكر ابن خلدون أن «منهم من توغل في الصحراء باتجاه الغرب، ومنهم من قطع الرمال إلى بلاد القفر وجاؤوا لمطة من

(١) كتاب البلدان ـ اليعقوبي ـ ص٢٣٠.
(٢) نهاية الأرب ـ شهاب الدين النوري ـ ص٢٨٩/ ٢.
(٣) القصد والأمم ـ ابن عبد البر ـ ص٢٥.
(٤) الإكليل ـ الحسن الهمداني ـ ص٥١ الجزء العاشر.
(٥) نهاية الأرب ـ النوري ـ ص٢٨٩/ ٢.

قبائل الملثمين فيما يلي بلاد كوكو من السودان ويعرفون باسم هكارة»[١] وكذلك سكنت عشائر من هوارة منطقة (بالهقار) الواقعة بالصحراء جنوب الجزائر، قال الإدريسي: «ومدينة أغمات أهلها هوارة»[٢] ويبدو أن ذلك الانتشار الجغرافي لقبيلة هوارة يتصل بحماية طرق التجارة وتأمينها في عصر دولة قرطاجة ونشاطها التجاري وما تلى ذلك من قرون ما بعد الميلاد ذات الصلة بالتاريخ التليد.

١٠ ـ **قبيلة زويلة**: ذكر القلقشندي وأبو الفوز: «إن زويلة بطن من بطون البربر مُسمّاة باسم أبيها «زويلة» ولم يقع تصنيفها لا في فرع البرانس ولا في فرع البتر» وذكر القلقشندي: «إن زويلة هم سكان برقة في القديم»[٢] وقال ابن خلدون: «إن بني زويلة انتقلوا إلى فزان بالصحراء وتوطنوها»[١].

وليس نسب زويلة غامضاً لأن المهم في ذلك هو ما تعرفه وتذكره زويلة عن نفسها، فقد نقل عنها الحافظ بن عبد البر أنها تنتسب إلى جرهم[٣] وجرهم قبيلة يمانية قحطانية مشهورة في التاريخ التليد وكانوا يتزعمون مكة والحجاز في عصور ملوك اليمن التبابعة، وكان منهم أمراء في عصر الملك أبي كرب أسعد الذي قد تكون قبيلة زويلة الجرهمية من الحاميات والقبائل التي أوطنها ببلاد المغرب لتعزيز المستوطنات التجارية.

وقد ذكر الحسن الهمداني أنه «قال بعض آل أسعد بن ملكيكرب تُبَّع يذكر منازل من خرج من اليمن:

وقد فارقت مِنّا ملوكٌ بلادها ... فصاروا بأرض ذات مَبْدًى ومَحْضَرِ
.. وقد نزلت منّا قضاعةُ منزلاً ... بعيداً فأمست في بلاد الصَّنَوْبَرِ
وكلبُ لها ما بين رملة عالج ... إلى الحرّة الرجلاء من أرض تدْمُرِ
وحَلّتْ جُذام حيث حلّت وشاركتْ ... هنالك لخماً في العلا والتَّجَبُّرِ
ومِنّا بأرض الغرب جندُ تَعلَّقُوا ... إلى برْبَرٍ حتى أتوْا أرْض بَرْبر»[٤]

فكانت مزاتة وهوارة وزويلة من الذين مضوا من اليمن إلى المغرب حتى

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٨٦ وص٢٤٠ جـ٢.

(٢) المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق ـ تحقيق محمد حاج ـ ص٨٢.

(٣) القصد والأمم ـ ابن عبد البر القرطبي ـ ص٢٥.

(٤) صفة جزيرة العرب ـ الحسن الهمداني ـ ص٣٦٩.

استقروا بأرض ومناطق البربر مع عشائر يمانية أخرى كانت من جند الملك أبي كرب أسعد الحميري، ثم شمل تلك القبائل اليمنية العربية اسم البربر كما شمل الذين سبقوهم من الموجة والطبقة الثانية من القبائل اليمنية التي استقرت ببلاد المغرب، فكانت القبائل العشر التي ذكرناها هي أهم وأعظم تلك القبائل والعشائر التي باتت من البربر ولم تزل كذلك إلى بعد الإسلام.

* * *

الأصول اليمنية العربية القديمة للكتابة ولحروف ولغة البربر والتشابه في الموسيقى الشعبية وفن العمارة وتقنية الريّ والزراعة

إن الحقائق والمعلومات التاريخية سالفة الذكر عن انتقال قبائل البربر من اليمن إلى بلاد المغرب في عدة موجات وعهود من عصور الحضارة القديمة وبالذات في عصور دولة سبأ وحمير ثم احتفاظ أغلبهم بأنسابهم المتواترة عبر الأجيال بأنهم من قبائل حمير السبئية اليمانية العربية، يتأكد ويتعزز أيضاً بالأصول اليمنية للكتابة والنصوص القديمة المعثور عليها في بلاد المغرب من جهة وبأن حروف الكتابة البربرية المسمّاة (التيفناغ) يعود أصل أغلبها إلى حروف المسند اليمنية الحميرية من جهة أخرى كما تتجلى الأصول اليمنية القديمة أيضاً في بعض الجوانب اللغوية والثقافية عند البربر. ونذكر هنا من معالم ذلك ما يلي:

أولاً

الكتابة والنصوص اليمنية القديمة ببلاد المغرب

لقد كانت توجد في قرطاجة (تونس) وفي مناطق من بلاد المغرب نقوش مكتوبة بكتابة حروف المسند اليمنية القديمة وبالحروف الفينقية المشتقة أيضاً من حروف المسند وهي كتابة يمنية قديمة. وبالرغم من ندرة تلك النقوش المُسنديه الحميرية والفينيقية التي كانت ببلاد المغرب فإن وجودها من الأدلة والشواهد الهامة التي تواتر ذكر وجودها عند المؤرخين الأوائل، ومنها:

١ ـ نقش قبر الأواش في قرطاجة

وقد ذكره المؤرخ البكري في كتاب (المسالك والممالك) وقال عنه العرباوي ما يلي: أنه «النص الذي عثرت على ذكره في بعض المراجع القديمة، ويعدُّ إلى

حد الآن النص الوحيد الذي أشار إلى وجود الخط الحِمْيري بمنطقة شمال أفريقية، وقد أورده البكري في كتاب (المسالك والممالك) وصاحب (الاستبصار في عجائب الأمصار) برواية لا تختلف عن الأولى إلا في بعض الكلمات»، وهذا محتواه: «روى الثقاة عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم[١] قال: كنت وأنا غلام مع عمي بقرطاجة نمشي في آثارها ونعتبر بعجائبها فإذا بقبر مكتوب عليه بالحميرية: أنا عبدُ اللّٰه الأواش رسول صالح بعثني إلى أهل هذه القرية ـ قرطاجة ـ»[٢] فذلك النقش الحميري على قبر الأواش بقرطاجة ـ أياً كانت مدى دقة قراءة الكلمات المكتوبة عليه بالمسند الحميري ـ يدل على استعمال كتابة المسند الحميرية في قرطاجة القديمة وكان ما يزال موجوداً في اطلالها حتى القرن الثاني الهجري.

٢ ـ نقش منارة الملكين ذي المنار وشمّر يُرعش بساحل المغرب

وقد ذكره بعض أوائل المؤرخين ومنهم وهب بن منبه ونقل محتوى ما ذكروه الأستاذ فاضل الربيعي بأنه «لما سار الملك شمر يرعش في البحر ـ بالمغرب ـ لاحت له إحدى منارات الملك الصعب التي بناها في البحر ـ وهو الملك ذو المنار ـ وفيها نصبُ ـ (أي نقش باسمه) ـ فأمر شمّر يرعش ببناء واحدة باسمه إلى جوارها»[٣].

ومؤدّى ذلك أن زمن المنارة والنقش يعود إلى القرن التاسع ق.م. وكان موجوداً في عصور دولة قرطاجة التي استمرت حتى القرن الثاني ق.م. وكان «موقع المنارة قريب من تجمع يُقال أنه للصقالية»[٣] فيكون ذلك الموقع بساحل تونس من بلاد المغرب ولا بدّ أن المنارة كانت مشهورة في الزمن القديم.

٣ ـ مُسند ياسر يُنعم في تمثال وادي الرمل (صنم المغارب)

وقد ذكره العديد من المؤرخين الأوائل في أنباء مسير الملك ياسر يُنعم الحميري ملك سبأ إلى بلاد المغرب وبلوغه منطقة وادي الرمل بأقصى المغرب. وفيه قال نشوان الحميري:

---

(١) هو عبد الرحمن بن زياد بن أنعم قاضي القيروان وهو أول مولود في الإسلام بشمال أفريقية، كان مولده عام ٧٥هـ وكان قاضياً من العلماء وله مسند في الحديث، وتوفي سنة ١٦١هـ.

(٢) البربر عرب قدامى ـ محمد المختار العرباوي ـ ص٢١٤.

(٣) الشيطان والعرش، فاضل الربيعي، ص١٣٢.

أو ياسر الملك المُعيد لما مضى   من مُلك حيّ لا تراه لقاح
أبقى بوادي الرمل أقصى موضع   بالغرب مُسند ماجد جحجاح

وقال الحسن الهمداني في الإكليل: «أمر الملك ياسر يُنعم بصنم من نحاس فنُصب على صخرة، وكتب على صدره بكتابة المسند وهو كتابة الحميرية ابتدعته حمير كان لا يكتبه غيرهم». والذي كتبوه هو: «صنع هذا الصنم الملك ياسر النعم، ليس وراء هذا مذهب فلا يتكلف أحد المضي فيعطب»[١] وكان مسند ياسر ينعم في تمثال وادي الرمل موجوداً زمناً طويلاً، امتد إلى فترة الفتح العربي الإسلامي وذكره ابن شرية في القرن الأول الهجري، وهو المذكور أيضاً في قول الشاعر دعبل الخزاعي عن التبابعة:

وهُم كتبوا الكتاب بباب مروٍ   وباب (مروم) كانوا الكاتبينا
وفي صنم المغارب فوق رملٍ   تسيلُ تلوله سيل السفينا

٤ ـ مُسند شراحيل نفيل بأقصى المغرب

وقد أشار إليه المؤرخ الحسن الهمداني في الأنساب بالإكليل حيث قال ما يلي: «أولَدَ أعرب ينكف بن بينون: شراحيل نفيل بن أعرب ينكف وهو الذي وجد أسعدُ مُسنده في أقصى المغرب»[٢].

وكان بينون من أمراء اليمن في العصر السبئي الحميري وباسمه سُمّي قصر بينون الذي ما تزال أطلاله باقية في منطقة الحدا من محافظة ذمار باليمن. ثم كان حفيده شراحيل نفيل من الأمراء القادة الذين دخلوا بلاد المغرب في زمن انتقال بعض قبائل حمير إلى بلاد المغرب في موجة الطبقة الثانية ولما سار أسعد الحميري إلى المغرب وجد مسند شراحيل نفيل بأقصى المغرب فيكون ذلك في عصر دولة قرطاجة، والمقصود بأقصى المغرب هو ما يلي الجزائر من بلاد المغرب وكان أقصاها طنجة.

٥ ـ النصوص المكتوبة بالفينيقية

وأما النصوص المكتوبة بالكتابة المسمّاة والمشهورة باسم (الفينيقية) فقد تم العثور على العديد منها في أطلال قرطاجة وهي أيضاً كتابة أصلها من اليمن

(١) الإكليل ـ الحسن الهمداني ـ ص٢٠٨ جـ٨.
(٢) الإكليل ـ الحسن الهمداني ـ ص٩٩ جـ٢.

واستعملها الفينيقيون الذين هم أيضاً في الأصل من اليمن واستقروا في الساحل السوري اللبناني وفي قرطاجة بتلك العصور الحضارية القديمة. وقد ذكرت المصادر اليونانية أن الفينيقيين جاؤوا من جنوب الجزيرة العربية حيث كتب عنهم هيرودوتس اليوناني ـ في القرن الخامس ق.م. ـ وقال هيرودوتس: «إن موطن الفينيقيين الأول هو بلاد العرب الجنوبية المطلة على البحر الأحمر»(١) وجاء في كتاب (الأمم السامية) عن أصل ومصدر الكتابة الفينيقية ما يلي: «من الأرجح أن الفينيقيين نقلوا تلك الكتابة والحروف معهم من جنوب الجزيرة العربية واستخدموها في نشاطهم التجاري»(٢) وقال الباحث العربي اللبناني فرج اللّه ديب: «إنّ من سمّيوا فينيقيين ليسوا إلا أجدادنا عرب الحضارة اليمنية القديمة»(٣) وتدل المقارنة للحروف بأن حروف الفينيقية تم أخذها من حروف المسند وهي حروف وكتابة يمنية عربية قديمة تم استعمالها إلى جانب حروف وكتابة المسند لفترة من الزمن القديم وبصفة خاصة في النشاط التجاري لأن حروف وكتابة المسند كانت ذات صفة خاصة مقدسة لا تجوز الكتابة بها إلا في أمور محددة وذات صلة بالدين والملوك والأمراء الأقيال غالباً. وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك حيث قال ما يلي: «وكان لِحمْيَر كتابة ـ أخرى ـ تُسمى المسند حروفها مُنفصلة، ويمنعون مِنْ تعلُّمها إلا بإذنهم»(٤) أما الحروف التي كانوا يستعملونها في النشاط التجاري فهي التي اشتهرت باسم الفينيقية واستمر استعمالها في عصر دولة قرطاجة إلى نهاية ذلك العصر الحضاري بقرطاجة وبلاد المغرب غالباً، ثم من حروف المسند والحروف الفينيقية تم أخذ حروف الكتابة التي سُمِّيت بربريه في عصور لاحقه.

إن نقوش المسند والنصوص المكتوبة بالحروف الفينيقية المعثور عليها في قرطاجة وبلاد المغرب يمكن الاستدلال منها على أن الذين سمّيوا باسم البربر هم نفسهم الذين كتبوا تلك النقوش والنصوص واستعملوا تلك الكتابة والحروف اليمنية القديمة في تلك العصور لأنها كتابتهم ولأن القرطاجيين والفينيقيين هم نفسهم الحميريون وهم نفسهم الذين غلب عليهم اسم البربر ثم

---

(١) اليمن في الأصل ـ فرج اللّه ديب ـ ص١٦.
(٢) الأمم السامية ـ حامد عبد القادر ـ ص٤٣.
(٣) اليمن هي الأصل ـ فرج اللّه ديب ـ ص١٨.
(٤) مقدمة ابن خلدون ـ ص٤١٨.

ظهرت الحروف والكتابة البربرية كامتداد لحروف وكتابة المسند الحميري والفينيقي اليمني العربي القديم.

* * *

ثانياً

الأصل اليمني القديم
لحروف الكتابة البربرية (التيفيناغ)

تدل المقارنة بين حروف الأبجدية البربرية المسمّاة (التيفيناغ) وبين حروف الكتابة الحميرية والفينيقية على وجود تطابق وتشابه بينهما في أغلب الحروف. وقد ذكر الأستاذ عثمان سعدي في دراسته لأبجدية التيفيناغ البربرية: «إن الرأي السائد لدى الكثير من الباحثين أن الأبجدية التي يُسميها الطوارق أو البربر باسم التيفيناغ أخذوها من الأبجدية الفينيقية ثم طرأ عليها مع الزمن الكثير من التبديل»[١]. ثم قال عثمان سعدي ما يلي: «ولقد قمت بتحليل ساعدني عليه الأستاذ يحيى كامل أستاذ اللغات القديمة في كلية أداب جامعة دمشق، فتوصلتُ إلى وجود تطابق بين كثير من حروف أبجدية التيفيناغ وبين حروف العديد من أبجديات الكتابات السامية. وأن حروف التيفيناغ التي تشبه حروف المسند الحميري هي: الألف، الزاي، اللام، الميم، الشين، التاء»[١]. بينما حروف التيفيناغ التي تشبه حروف الأبجدية الفينيقية هي: الدال، والكاف، والقاف. وقد أورد عثمان سعدي جدولاً يضم ١٥ حرفاً من الحروف البربرية التيفيناغ والحروف التي تشابهها في كتابة المسند الحميري والكتابة الفينيقية والحروف التي تعدلت من الفينيقية وطرأ عليها مع الزمن التبديل ويعود أصل بعضها أيضاً إلى حروف المسند مع تعديل طفيف. ويدل كل ذلك على الأصل اليمني القديم لأغلب حروف كتابة التيفيناغ البربرية، وبذلك يمكن القول أن حروف كتابة التيفيناغ البربرية هي حروف وكتابة عربية قديمة أيضاً لأنها امتداد مأخوذ من حروف كتابة المسند الحميري والفينيقي اليمني العربي القديم.

* * *

(١) عروبة الجزائر عبر التاريخ ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ـ ص٤١.

ثالثاً

الشواهد اليمنية العربية في لغة البربر

إن قبائل البربر التي هي في الأصل قبائل يمانية عربية قديمة انتقلت من اليمن إلى بلاد المغرب في عدة موجات خلال عصور دول وحضارات سبأ وحمير والملوك التبابعة ـ كما سلف التبيين ـ كانت لغتهم هي لغة قومهم العربية اليمنية القديمة في العصور التي انتقلوا فيها إلى بلاد المغرب، ثم تعاقبت عليهم الأزمنة والعصور ببلاد المغرب واختلطت وامتزجت القبائل واللهجات وانقطعوا بتلك البلاد فتكونت لغة ولهجات خاصة بهم وهي لغة البربر فهي ليست نفس اللغة اليمنية العربية بكل كلماتها ولهجاتها لأن الانقطاع ببلاد المغرب والاستقرار بها خلال أكثر من ألف سنة في تلك العصور أدّى إلى ظهور لهجات وكلمات امتزجت مع الزمن وتكونت نتيجة ذلك اللغة البربرية كلغة ولهجات بالمغرب، ولكنها احتفظت بالكثير من شواهد أصولها وقواعدها وجذور كلماتها اليمنية العربية القديمة. وقد ذكر الأستاذ محمد المختار العرباوي أن من «آثار الثقافة السبئية الحميرية ببلاد المغرب»:

١ ـ ما جاء من الأسماء البربرية على صيغة «أَفْعُول» الحميرية

إن صيغة (أَفْعُول) بفتح الهمزة صيغة حميرية، وقد أشار إلى ذلك الحسن الهمداني بقوله: «وكثير من قبائل حمير تأتي على الأَفْعُول ـ مثل ـ الأَيْفُوع، والأَيْزُون، والأَوْسُون، والأَحْروث»[١] وهي كثيرة باليمن في أسماء أعلام وقبائل ومناطق وأماكن، مثل:

أَبْيُود: اسم شخص.

أَبْرُوح: بنو برح.

أَبْقُور: قبيلة من سحر (ذي جرت).

أَجْرُون: اسم جبل.

أَبْيُرح: ولد.

(١) الإكليل ـ الحسن الهمداني ـ ص٤٤٩ جـ٢.

ويقول العرباوي: «إذا انتقلنا إلى البربرية وجدنا أسماء متنوعة بهذه الصيغة (أَفْعُول الحميرية) كما في هذه القائمة:

أَزْكُوْر: اسم جماعة (في عمالة مراكش).

أَمْقُون: مجلس حلف أعلى (بين القبائل).

أَزْمُور: اسم مدينة بساحل المحيط الأطلسي.

أَصْفُود: مكان.

أَمْجُوط: إحدى قرى (بومعان) بني زروال.

أَمْرُود: قصر بجربة.

أَسْبُوية: جماعة في عمالة أغادير.

أَكْسُورة: جماعة في دائرة بعمالة فاس.

أَغْرُوس: فخذ بالريف.

أَمْزُوزة: جماعة بدائرة سطات.

أَمْكُونة: قلعة بأقليم وارزازات.

أَمْلُوسة: جماعة بدائرة أحيالة من أقليم تطوان.

أَزْفُود: إحدى دوائر عمالة قصر السوق.

أَكْنُومة: اسم مكان.

أَنْقُول: نوع من الرغيف.

أَفْرُور: نوع من الخزف الأحمر.

أَقْرُور: خمّ الدجاج.

أَغْرُوم: الرغيف ـ الخبز.

أَمْرُوث: الأرض.

أَزْلُوم: الحزام.

أَكْسُوم: اللحم.

أَلْدُون: القصدير.

أَفْرُوج: مدينة بعيدة عن مراكش ذكرها صاحب الاستبصار.

أَكْزُولة: جماعة بدائرة عبدة من أقليم أسفي.

أَخْسُون: جماعة بدائرة الرحامنة من عمالة مراكش.

أَرْجُود: جبل بجنوب المغرب الأقصى.

أَخْبُوط: الصدر.

أَغْيُول: الحمار.

ولا شك أن هذه القائمة تعطينا فكرة على أن صيغة (أَفْعُول) منتشرة في البربرية وهي مثل الحميرية تشمل أسماء أعلام وقبائل وأماكن، وما دام الأمر هكذا فلا يمكن ادعاء أن هذه الصيغة وبالكثرة المتوقعة إنما كانت في البربرية من باب الصدفة»[1]. وإنما هي من شواهد العربية اليمنية القديمة في لغة البربر.

٢ ـ النون الحميرية في البربرية

تتميز الحميرية ولغات اليمن القديمة عامة بأداة تلحق آخر الكلمات وهي «ن» وتُسمّى عادة النون الحميرية مثل:

أَذْمُرن: الرجل الأذمور.

أَيْرَمَن: الأيروم.

أَفْيُشَن: أفيوش.

ويقول العرباوي: «وفي البربرية ما يشبه هذه النون كما في هذا المثال:

أزمورن: اسم مدينة بساحل المحيط الأطلسي.

وأسماء كثيرة مختومة بالنون، منها أسماء قبائل وبطون مثل:

بنو يهرسن، بنو درجين، بنو ورتاجن، بنويكشن، بنو مراسن، بنويزناسن.

وأسماء أماكن مثل:

تسردين، دفسين، رجلان، تسردين، تيمغسين.

فهذه النون ليست للجمع وهي من حيث طبيعة وجودها في آخر الكلمة ذات علاقة بالنون الحميرية»[1].

٣ ـ طريقة التأنيث في الحميرية والبربرية

ويوجد تشابه بين عربية اليمن القديمة كالحميرية وبين البربرية في

---

(١) البربر عرب قدامى ـ العرباوي ـ ص٢١٠ ـ ٢١٥.

تأنيث بعض الكلمات من حيث الصورة اللفظية عامة في الحميرية والبربرية. ويذكر العرباوي: «من الأمثلة على ذلك بالكلمات في الحميرية:

تهامت (منطقة تهامة باليمن).

رَبيعت (قبيلة في النقوش).. إلخ» ـ وتوجد أمثلة كثيرة على ذلك في النقوش الحميرية باليمن ـ.

«وفي الكلمات البربرية أمثلة كثيرة منها:

تيارت: اسم مكان. تاهرت: مدينة. توات: اسم قبيلة»[1].

رابعاً

الكلمات المشتركة في العربية والبربرية

إن أكثر من مائة كلمة في لغة البربر هي نفس الكلمات العربية التي كانت في اليمن وجزيرة العرب منذ عصور ما قبل الإسلام ويكاد أن يكون الفارق غالباً فارق لهجة ونطق لكلمات واحدة تجمعها وحدة لغوية وأصول مشتركة، وذلك لأن البربر إنما هم عرب يمانيون قدماء. فلم تدخل تلك الكلمات إلى لغة البربر بعد مجيء الإسلام وإنما كانت في أصول لغة البربر منذ نشوئها، وبصفة خاصة الكلمات التي يذكرها العرباوي بأنها «القسم الأول أي ما تشترك فيه البربرية والعربية مع التأكيد على أن تلك الكلمات ليست مستعارة من الثانية للأولى لكونها تعبّر في الغالب عن مسمّيات ومعانٍ هي من صميم ما يتعرف عليه الإنسان في محيطه الأول بحكم ما تنشأ فيه من حاجيات مبكرة مما يؤكد أصالتها وقدمها في لغة البربر». ثم يقول: «وفيما يلي قائمة مثل هذه الكلمات:

تامطوث: المرأة. وفي العربية (الطمث) وهو الحيض فسميت المرأة بأهم خاصية بيولوجية تميزها، وفي القاموس (طمثت المرأة ـ حاضت) والعلاقة واضحة بين الكلمتين وأن إحداهما حصل فيها قلب مكاني.

أركاز: الرجل، وهي (الرّكز) المحرفة قليلاً. والرّكز في العربية تعني الرجل الحكيم الكريم، وفي القاموس: (الرّكز) بالكسر: (الرجل العالم العاقل السخي الكريم)، ومن مادة (ركز) نجد أيضاً (الرّكز) أي الثابت وما يعتمد عليه. والرجل

---

(١) البربر عرب قدامى ـ العرباوي ـ ص٢١٠ ـ ٢١٥.

في نظر مجتمعنا بصفة عامة يعتبر ركيزة وسنداً لمن حوله من الأهل والعشيرة وأبناء مجتمعه.

أخنفوف: الأنف. ومن الواضح أنها من مادة (خنف) ويقال في العربية: (خنف الرجل بأنفه، أي تكبّر، فهو خانف). وفي القاموس (الخانف الشامخ بأنفه كبراً) ويرى عثمان سعدي أن الكلمة البربرية أقرب إلى العربية في الاستعمال من كلمة الأنف»[١].

آزياط، آزايت: العاصفة، الريح الشديدة. وفي العربية، زاط يزيط زيطاً وزياطاً: صاح. والزياط: اختلاط الأصوات، والزياط (صيغة مبالغة) الصيّاح. والعاصفة معروفة بجلبتها واختلاف أصواتها، ولذا سميت في البربرية بازياط.

قطوس: قط.

يطّس: ينام. هذه الكلمة لها صلة بالكلمات العربية التالية: طَسَّ، غَطَسَ، غَطَّ. يقال: طسّ الشيء في الماء، غطسة وغطّه فيه، وفي النوم غياب تام عن حالة اليقظة.. وغطّ يغطّ غطيطاً النائم: صات وشخر في النوم.

سُوْ، اسْوَا: شرب الماء. وفي العربية: احتسى الماء: شربه.

نازيت: الهضبة القليلة الارتفاع. يقول عثمان سعدي أنها «أُخذت من نعت عربي، يقال: أكمة نازية أي مرتفعة عما حولها» وفي أساس البلاغة للزمخشري: «وأكمة نازية: مرتفعة عما حولها كأنّها نزّت عن وجه الأرض».

آمروث: الأرض. ونجدُ في العربية أرض ممّرثة وهي التي أصابها مطر ضعيف. وأرض مرت: التي لا نبات فيها. والمرت أيضاً المفازة. فالكلمتان: مرث ومرت متقاربتان في المعنى وأن الأرض المرث المصابة بالمطر الضعيف هي أرضٌ تكاد تخلو من النبات.

خلاث: النساء. هذه الكلمة لها صلة ـ في العربية ـ إما بكلمة (الخُلّة) بضم الخاء وهي الصديقة أو الزوجة، وإما بكلمة (الخليلة) وهي أيضاً الصديقة والصاحبة. فالعلاقة بين الكلمة البربرية والكلمتين العربيتين واضحة.

ثبحيرت: الروضة. وهناك في العربية (الْبُحْرَة) ومن معانيها الروضة الكبيرة

(١) وكان من أقيال حمير القدماء (خنفر بن سيار) وهو من الأنف والشموخ. والخنفريون من أقيال حمير.

والمنخفض من الأرض. يَتْفِيَّلْ إيثيلِي: يستظّل بالشجرة. فالكلمة هي تفيّأ العربية ونقول تفيّأ الشجرة: استظلّ بها، أما الكلمة الثانية فذات صلة بكلمة (الثيل) أو (الثَّيِّل) وهو نبات له قضبان طويلة. والمعنى العام: الاستظلال بظل النباتات ذات الظل[١].

روش: سقى. وفعل (رشّ) معروف في العربية.

آزال: الزوال العربية عندما تكون الشمس في كبد السماء[٢].

ثَلَّسْتْ الظلمة. وفي العربية (الطّلس) وهو كساء أسود ويسمى أيضاً (الطيلسان). ويقال: طَلِسَ يَطْلَسُ طَلَساً، وطلس يَطْلُسُ طَلْسَةً، كان أغبر إلى السواد ومنه ذئب أطلس أي الأمعض الذي في لونه غبرة إلى السواد، وليلة طِلْسِمَانة أي مظلمة، فالكلمة البربرية والعربية لها نفس المادة والمعنى، وأنّ الثاء (في ثلست) ليست للتأنيث وإنما هي متبادلة مع الطاء في العربية وانقلاب أحدهما إلى الآخر شائع ومعروف[٣].

أمرار: الحبل. وفي العربية (الْمَرُّ) بفتح الميم وهو الحبل. ويقال مرّ البعير مرّا: شد عليه المرّ أي الحبل.

أميلوس: الوحل. وفي العربية (الْمَلْس ـ ج: ملوس) المكان المستوي والوحل الذي ينقله السيل أثناء تهاطل الأمطار يسوي الأمكنة المنخفضة وتكون في الغالب ملساء.

ويقول العرباوي: «وفي هذا المضمار قَدّم عثمان سعدي قائمة بها ١٠٣ كلمات من البربرية وما يقابلها في العربية، منها بعض الكلمات سبق ذكرها، ويمكن الرجوع إلى القائمة لثرائها وأهميتها، ومن الواضح أنها من الكلمات القديمة العربية . .».

ثم يذكر: «القسم الثاني من المفردات أي ما تشترك فيه البربرية والعربية واللغات العربية الأخرى للتأكيد من هذا السبيل أيضاً على ما بينها جميعاً من وحدة

(١) والأثل: اسم شجر معروف باليمن، والفيء: الظل. ويقال: فيء قصر غمدان أي ظل قصر غمدان بصنعاء.

(٢) أزال: الاسم القديم لمدينة صنعاء. قال الهمداني: (سميت أزال باسم أزال بن قحطان).

(٣) وكذلك يقال في اليمن (غَلْس) أي أظلم، فالثاء يمكن أن تكون متبادلة مع الغاء، وهو الأقرب.

لغوية وأصول مشتركة . .» ومنها الكلمات والمفردات المشتركة التالية :

الكلمات المشتركة	الكلمات في البربرية
الماء	آمان
البرّ	برَّ
البحر	بحر ، وفي بعض اللهجات (أيْلَلْ)[١]
الشرق	شَرَقْ . آطُودَ شَرْقي : ريح شرقية[٢]
الغرب	غَرَبْ . أَغربْي : ريح غربية
المكان	امْكَانْ
القُرْبَ	قريب . فَالْقَرْبْ غَرْ الْقَرْبْ : من أقرب إلى أقرب[٣]
البعد	بَعْدْ[٣]
القرابة (الدموية)	أَقْرِيبْ . ج : اِقْرِيبَنْ[٤]
الأب	بابا
الأم	يَمّي
اللسان	اِيلَسْ . ج : إِيلَسانْ[٥]
الصوت	صُوْتْ . ج : أصوات ، مثل العربية
الفم	اقمَوُّش . ج إقَمُّوشَنْ
الدم	ايدامن
النفس	ثَرْوَحَتْ
الموت (مات)	مُوتْ ، آمت ، يَمِتْ ، ثَمِتّنَتْ
الفطن	فَطَنْ ـ ج : دَ الْفَاطِينْ
هلك	يهلك . ومنها أهلاك أُعُّبُوط : أوجاع المعدة . أعبَّوطُسْ يَهْلِكَتْ : عنده ألم في البطن .

(١) في النقوش الحميرية ومنها نقش للملك ياسر ينعم جاء البحر بلفظ (بحر).

(٢) الشرق : في النقوش الحميرية (مشرقن) أي شرق.

(٣) في النقوش الحميرية (ذي قرب وذي بعد) أي القريب والبعيد.

(٤) جاء في الإكليل للهمداني (قربان الملك إلى شرح : أي قريب الملك إلى شرح وجليسه.

(٥) لسان : جاء في النقوش الحميرية أيضاً بلفظ (لسان).

الكلمات المشتركة	الكلمات في البربرية
الظل	ظَلَّلْ . وأيضاً فِيَّلْ
قوس	قوس ـ ج : أقواس ـ مثل العربية
برق	بَرْقْ
سنبلة	ثْسَبُلْتْ ـ ج : ثَسْبُلْتِينْ
اسم	اسْمْ ـ ج : إِسْماوْنْ ـ اَنْوَى دِسْميكْ؟ ما إسمك؟
يمين	أيمن . أي القَسَم .
نقل	اَنْقَلْ
ركب	أرْكَبْ

يضاف إلى ذلك أسماء العدد إلى عشرة والمئة[١] .

فتلك الألفاظ والكلمات كانت موجودة في لغة البربر منذ ما قبل الفتح العربي الإسلامي بقرون عديدة . ومما يؤكد ذلك ما قاله السوسي من أن هناك ألفاظاً قديمة تسبق عند الشلحيين الفتح الإسلامي وأنها متأصلة «في اللغة الشلحية البربرية» ولا يُعرف «ما يقوم مقام تلك الألفاظ عندهم مع ملاحظة لا بدّ من تلك الألفاظ لأية أمة ولو كانت لا تزال من الهمجية الأولى في الدركات وذلك كالموت والحياة والدم والريح والأب والأم والصوت والبر والبحر والقرب والبعد . . وهي ألفاظ تصل إلى مائة كلمة . . وكون أمثال هذه الألفاظ أقدم من الفتح هو الراجح عندي وأكاد أجزم به»[٢] .

ويتساءَل السوسي عن سر وجود أمثال هذه الألفاظ العربية في الشلحية وفي اللهجات البربرية كلها فيقول : «لا أدري أهي ألفاظ غمرت مرادفاتها من الشلحية منذ تسربت من العربية القديمة على عهد الفتح الأول للفينيقيين الذين نعرف من هم بالنسبة لأبناء الجزيرة العربية وهم من أبنائها الصميمين؟ أم هي ألفاظ قديمة في اللغة الشلحية فتكون حجة للمؤرخين الذين يؤكدون أن البربر موجة من موجات الشرق في عصور ما قبل التاريخ»[٢] .

والصواب أن الطبقة الأولى من البربر هم موجة من موجات الشرق العربي

---

(١) البربر عرب قدامى ـ محمد العرباوي ـ ص٢٠٨ ـ ٢٠٩ .

(٢) تأثير العربية في اللهجة الشلحية ـ مجلة اللسان ـ عدد ٢ ـ سنة ١٩٦٥م ـ الرباط .

إلى بلاد المغرب ـ ليس في عصور ما قبل التاريخ ـ وإنما في زمن حدده وذكره المؤرخون الأوائل وهو زمن وعهد الملك إفريقيس بن ذي منار بن الرائش ملك سبأ في القرن الثاني عشر قبل الميلاد وكان أغلبهم قبائل أمازيغ بن كنعان بن سام[1] الذين كانوا باليمن والشام، ومعهم قبائل حميرية سبئية قحطانية، فاستقروا ببلاد المغرب كما سلف التبيين، فوجود تلك الألفاظ والكلمات العربية في لغة البربر من الأدلة على صحة ذلك وأن وجودها يعود إلى ذلك الزمن، ثم إلى الزمن الذي سمّاه السوسي «عهد الفتح الأول للفينيقيين» وهو القرن التاسع قبل الميلاد الذي هو عهد مسير وفتح (ياسر يُنعم ملك سبأ وذي ريدان) واستقرار الطبقة الثانية من قبائل البربر ببلاد المغرب وهم قبائل حِمْيَر اليمنية العربية ـ كما سلف تبيين تفاصيل وأدلة ذلك ـ.

ثم ظهرت بعد ذلك لغة البربر كلغة خاصة بتلك القبائل التي استقرت في بلاد المغرب وانقطعت عن أخواتها في اليمن وبقية الجزيرة العربية منذ ذلك الزمن ـ خلال مئات السنين ـ فاحتوت لغة البربر على تلك الألفاظ والكلمات العربية وغيرها لأنها لغتهم الأولى منذ مجيئهم من موطنهم الأول، وكذلك احتوت لغة البربر على مئات الكلمات والألفاظ التي ليست عربية وإنما نشأت في مجتمعاتهم ببلاد المغرب خلال تلك العصور السابقة للفتح العربي الإسلامي. وهذا يُفسر اختلاف لغة البربر عن اللغة العربية ـ بصفة عامة ـ بالرغم من أنهم عرب يمانيون في الأصل والجذور. وكذلك فإن اللغة العربية القديمة عند انتقال تلك القبائل من اليمن وجزيرتها العربية إلى بلاد المغرب ـ (في أزمنة إفريقيس وياسر يُنعم وأبي كرب أسعد) ـ كانت فيها كلمات وقواعد كثيرة استمرت في لغة البربر ولَمْ تتبدل بينما تبدلت في اليمن والجزيرة العربية خلال العصور التي تلت ذلك من تطور اللغة العربية قبل الإسلام، فالكلمات والقواعد غير العربية في لغة البربر فيها كثير من الكلمات والقواعد التي كانت عربية ثم تبدلت واختفت من اللغة العربية ولكنها بقيت في لغة البربر وغابت معرفة أنها عربية قديمة لتباعد الأزمنة والعصور.

* * *

(١) تنسب التوراة وبعض المصادر قبائل كنعان إلى حام، ولذلك يقول بعض النسابين (أمازيغ بن كنعان بن حام) بينما الصحيح أن قبائل كنعان سامية وقد ذكر الهمداني في كتاب الإكليل أنه «كنعان بن سام» وهو الصواب.

خامساً

التشابه بين الموسيقى الشعبية اليمنية والبربرية

إن الموسيقى الشعبية من العناصر الثقافية المرتبطة بالتكوين الروحي والنفسي للمجموعة البشرية، وهي «تنبع من الوجدان الجماعي وتعدّ من أقدم المكونات الثقافية للمجموعة» وهي أيضاً «مصدر للمعرفة والبحث العلمي، إذْ يمكن عن طريقها وبالدراسات المقارنة إثبات الصلات الثقافية بين الشعوب والجماعات».

وقد أجرى ثلاثة من العلماء الباحثين مقارنة بين الموسيقى الشعبية في شمال أفريقية والموسيقى الشعبية في اليمن حيث ـ وكما ذكر الأستاذ العرباوي ـ «جرت مقارنة بين الموسيقى الشعبية في اليمن والموسيقى الشعبية في شمال أفريقية، وكانت النتيجة مدهشة وغير متوقعة، فقد أثبتت هذه المقارنة وجود تشابه حقيقي وعميق بين الموسيقى اليمنية الشعبية والموسيقى البربرية».

لقد بدأ ذلك الاكتشاف مع أعمال الدكتور «روبرت لخمان Robert Lachmann» المتخصص في الموسيقى الشرقية وفي علم الموسيقى المقارن، فقد لبث في تونس مدة طويلة وألَّفَ في سنة ١٩٢٢ كتاباً قيماً بعنوان الموسيقى في المدن التونسية، ثم اهتم (لخمان) بالموسيقى البربرية في كل من الجزائر والمغرب فحللها ورَقّمَها (نَوّتها).. وجاء بعده البحاثة والرحالة الألماني «هانس هلفرتس Hanz Helfrits وهو أيضاً عالم في الموسيقى، زار اليمن وطاف في أرجاء جنوب الجزيرة العربية عام ١٩٣٣ ـ ١٩٣٥م وقام بتسجيل مجموعة من الأغاني والألحان الشعبية في اليمن إلى جانب بعض الانطباعات الأخرى عن تاريخ المنطقة وحضارتها[١] وقام (هلفرتس) بجمع عمل (لخمان) في الموسيقى البربرية وبوّبه واستفاد من عمله وقال منوهاً به وبغيره ما يلي:

«والعجيب أن يستطيع كل من (هورنبوستل Hornbostel) ود. روبرت لخمان إثبات التشابه في كيفية الأداء بين أغاني المرتفعات باليمن والموسيقى البربرية التي سجلها لخمان في القبايل بشمال أفريقية[٢].

ونوّه (هلفرتس) إلى أن هذا التشابه لا يحدث مصادفة فقال: «ومثل هذا

(١) دوّن (هلفرتس) أعماله في كتاب صدر سنة ١٩٧٧ بعنوان: رحلة اكتشاف في العربية الجنوبية.
(٢) رحلة اكتشاف في العربية الجنوبية ـ هلفرتس ـ ص١١٣.

التشابه يحتم على المرء افتراض وجود علاقة حميمة ما بين البربر والعرب الجنوبيين، فالسمات التي في الموسيقى العربية اليمنية موجودة بعينها في الموسيقى البربرية، ثم أن هذه العلاقة الحميمة ـ الوثيقة ـ تظهر بصورة واضحة في طريقة أداء الأغاني فخصوصية تركيب الألحان وتشابهها بل تَسَاوي هذه الألحان تساوياً مطلقاً يؤكد هذا»[١].

وللتأكيد على هذا التشابه قَدّم (هلفرتس) نماذج وشواهد تعتمد على المقارنة بالنوتة الموسيقيّة ليُوضح أن الأمر ليس مبنياً على مجرد الافتراض والانطباع وإنما على أساس علمي مكين. ونقتبس من تلك المقارنة النموذجين التاليين:

النموذج الأول: يشتمل على ترقيمين موسيقيين لقطعتين، الأولى (A) وهي عبارة عن أغنية بدوية سمعها (هلفرتس) في قبيلة بني إسماعيل بجبال حراز باليمن فسجلها ورقَمَها. والثانية (B) سمعها (لخمان) في القبائل بالجزائر فسجلها ورقمّها.. فالقطعتان متماثلتان بمقتضى التركيب في الألحان في الروح الموسيقية والإيقاع ولهما مقام واحد وقفلة واحدة.

النموذج الثاني: يشتمل هو أيضاً على ترقيمين موسيقيين لقطعتين، الأولى (A) وهي أغنية بدوية سمعها (هلفرتس) في قبيلة بني مطر باليمن فسجلها ورقّمها. والثانية (B) وهي ترنيمة سمعها (لخمان) في القبائل بالجزائر فسجلها ورقمّها. فالقطعتان تتماثلان في الروح الموسيقية والإيقاع ولهما مقام واحد وقفلة واحدة اهـ.

ويتبين من التشابه بين اليمن ومنطقة القبائل البربرية بالجزائر في الموسيقى الشعبية أن ذلك ما هو إلا جانب من التشابه العام. إذْ أنه ـ كما يقول الدارسون ـ «أن التشابه الموسيقي كاللغة من حيث قوة الحجة في التدليل على وحدة الأصل، والموسيقى في سياق النظرة الشاملة تعدّ شكلاً من أشكال الروابط الثقافية التاريخية التي تظل في بعض الأحوال ماثلة حقباً طويلة، ومن خلالها يستطيع الباحثون في تاريخ العصور القديمة تتبع أو إثبات الهجرات وتنقّل الجماعات البشرية وإدراك ما بينها من صلات». ويقول العرباوي: «إن التشابه الموسيقي بين اليمن والقبائل بالجزائر يؤكد ما سبق ذكره وهو وجود الثقافة السبئية ـ الحِمْيَرية بشمال أفريقية»

---

(١) رحلة اكتشاف في العربية الجنوبية ـ هلفرتس ـ ص١١٣.

[ص٢٦٦] ـ فالموسيقى هي إذن من الدلائل الثقافية التي تشمل النقوش والكتابة والأسماء والكلمات والمفردات اللغوية في تأكيد الأصول العربية اليمنية لقبائل البربر وانتقالها من اليمن إلى بلاد المغرب في عصور دولة وحضارة سبأ وحِمْيَر التليدة.

❊ ❊ ❊

سادساً

الأصل اليمني لفن البناء المعماري.. والتشابه في السمات المعمارية

تدل المقارنة بين شواهد الفن المعماري على التشابه بين بناءات في بلاد المغرب ـ شمال أفريقية ـ وما في اليمن من البناءات والفن المعماري منذ عصور قديمة.

وفي هذا الصدد قال (هانس هلفرتس) الألماني ما يلي نصه: «من اللافت للنظر أن توجد في مرتفعات الأطلس منطقة البربر الرئيسية بناءات مرتفعة تشبه مثيلاتها في العربية الجنوبية ذات سمات معمارية واحدة»(١).

وقال الأستاذ محمد العرباوي في حديثه عن «آثار الثقافة السبئية ـ الحميرية ببلاد المغرب» ما يلي نصه: «التشابه في فن العمارة من المسائل المثيرة للدهشة، فالتشابه ليس محدوداً في مواضع معينة وإنما هو ذو طابع شمولي حتى أننا نجده في الفن المعماري وهو آخر ما يتوقعه المرء ولا يكاد يخطر على باله. فقد أكدّ بعض الباحثين على التشابه بين بناءات بربريه وما في اليمن من فن معماري ومظاهر معمارية»(٢).

إن جذور تشابه الفن المعماري تعود إلى أن الذين انتقلوا من اليمن إلى بلاد المغرب في عهد الملك إفريقيس بن ذي المنار وعهد الملك ياسر يُنعم نقلوا معارفهم في البناء وفن العمارة والريّ والزراعة إلى بلاد المغرب، فقد ذكر المؤرخون الأوائل أن الملك إفريقيس لَمَّا أوطن الموجة الأولى من البربر ببلاد

---

(١) رحلة اكتشاف في جنوب الجزيرة العربية Entdekungreisen in sud - Arabien aufunbekannen wegen durch hadramaut und jemen (1933 - 1935).. Koln 1977.

(٢) البربر عرب قدامى ـ محمد العرباوي ـ ص٢١٥.

المغرب قام ببناء مدينة أفريقية هناك. وعن ذلك قال المؤرخ نشوان الحميري في أبياته عن الملك إفريقيس:

مَلِكٌ بَنَى في الغرب أفريقيةً نُسِبتْ إليه بأوضح الإيضاح
وأحلَّ فيها قومه فتملكوا ما حولها من بلدة ونواحي

وينطبق ذلك على موجة عهد الملك ياسر ينعم وبناء مدينة قرطاجة في القرن التاسع ق.م. حيث تنسب الدراسات ذلك إلى الفينيقيين. وقد ذكر الأستاذ السوسي ذلك الزمن باللفظ التالي: «.. عهد الفتح الأول للفينيقيين الذين نعرف من هم بالنسبة لأبناء الجزيرة العربية وهم من أبنائها الصميمين»(١) وقال الأستاذ فرج اللّه ديب «إن من سمّيوا فينيقيين ليسوا إلا أجدادنا عرب الحضارة اليمنية»(٢) فكان فن البناء الفينيقي في قرطاجة هو نفس فن البناء اليمني السبئي الذي انتقل من اليمن إلى منطقة الساحل السوري الفينيقية وإلى قرطاجة ذلك الزمن. وقد قام عالم الآثار الأميركي دكتور فان بيك والعالم الفرنسي بول جينبه بدراسة مقارنة لفن وأسلوب بناء المباني والمعابد في منطقة الساحل السوري (فينيقية) وفي اليمن حيث قال د. فان بيك: «إن أسلوباً فنياً جديداً في مجال البناء قد أدخل إلى فينيقية وربما أماكن أخرى..» وقال بول جنبيه: «إن ذلك الأسلوب الفني في مجال البناء كان منتشراً في منطقة جنوب الجزيرة العربية كلها في القرن السابع ق.م. وله نفس الخصائص الموجودة في فينيقية.. وقد استعرض فان بيك ظهور تلك التقنية في مجال البناء في فينيقية منذ النصف الأول من القرن السابع ق.م. كما أن بعض الأبنية الفينيقية في القرن السادس ق.م. تدل على استخدام الأساليب التي تتوفر في فن البناء المتواجد في آثار جنوب الجزيرة العربية»(٣). ويترتب على ذلك إدراك أن فن البناء في مدينة قرطاجة يشبه فن البناء في الآثار اليمنية السبئية بجنوب الجزيرة العربية لأن الفينيقيين ليسوا إلا أجدادنا عرب الحضارة اليمنية وقد شمل اسم الفينيقيين ـ في الدراسات ـ الذين استقروا في قرطاجة وبلاد المغرب ومنهم قبائل صنهاجة وكتامة وغيرهما من القبائل الحميرية السبئية التي شملها اسم البربر. وما تزال آثار فن البناء المعماري اليمني باقية في البناءات التي ذكرها (هان هلفرتس) قائلاً: «توجد

---

(١) تأثير العربية في اللهجة الشحلية ـ مجلة اللسان ـ ٢/ ٦٥.

(٢) اليمن هي الأصل ـ فرج اللّه ديب ـ ص١٦.

(٣) آثار جنوب الجزيرة العربية ـ بول جنبيه ـ مجلة دراسات يمنية ـ العدد ٢٧ ـ مارس ١٩٨٧.

في مرتفعات أطلس منطقة البربر الرئيسية بناءات تشبه مثيلاتها في جنوب الجزيرة العربية ذات سمات معمارية واحدة»[١].

* * *

سابعاً

معارف الزراعة والريّ وزراعة المدرجات

لقد أثارت مسألة معرفة الزراعة وممارستها في شمال أفريقية اهتمام الدارسين والباحثين في تاريخ العصور القديمة بشمال أفريقية، وتأرجح الأمر بين طائفتين:

الأولى: تذهب إلى أن سكان شمال أفريقية كانوا يجهلون الزراعة قبل مجيء الفينيقيين وأن معرفة الزراعة بدأ بمجيء الفينيقيين، أي منذ القرن التاسع ق.م.

والثانية: تذهب إلى أن سكان شمال أفريقية عرفوا الزراعة قبل مجيء الفينيقيين، وقال ستيفان قزال: «لم ينتظر أهالي شمال أفريقية الفينيقيين ليتعاطوا تربية الماشية والزراعة» وقال كمبس «هل يجب أن نتصوّر إذن أنّ أبسط التقنيات هي جميعها أجنبية عن بلاد البربر، وأن شعب البربر كان مجرداً تماماً من كل مبادرة» وقال أيروكس «إن القمح والشعير زرعَا في شمال أفريقية قبل وصول الفينيقيين بكثير». ويتلخص رأي تلك الطائفة من الدارسين في القول: «إن البربر القدماء مارسوا الزراعة منذ الألف الثاني قبل الميلاد ومنذ نهاية العصر الحجري الحديث». ولكن الدراسات دَلَّت أيضاً ـ وكما يذكر الأستاذ محمد العرباوي ـ «إن شمال أفريقية لم توجد فيه نباتات القمح والشعير في حالتها البرية فهي نباتات أسيوية منبتها الأصلي الجزيرة العربية والشرق الأدنى، وقد انتقلت إلى أفريقية عبر المدّ الثقافي والحضاري والبشري لهذه المنطقة.. وطالما أنه لم تكن توجد حبوب القمح والشعير فلا يمكن الحديث عن الزراعة إلا على أساس أنها مكتسبات وافدة إلى شمال أفريقية.. ولا يعقل أن تنتقل تلك الحبوب وتستعمل فلاحياً بدون أن تنقل معها الخبرة والمعرفة والتقنية.. فهل أن الزراعة لم تنتقل كأفكار وخبرات وإنما جاءت مع أصحابها الذين كانوا الفلاحين الأوائل في شمال أفريقية». اهـ.

---

(١) رحلة اكتشاف في جنوب الجزيرة العربية ـ هان هلفرتس ـ ١٩٧٧.

ولتوضيح وإدراك النبأ اليقين في هذه المسألة نذكر الترتيب التالي:

ـ إن زراعة القمح والشعير وممارسة الفلاحة واستخدام تقنية الري في اليمن يعود إلى أزمنة قديمة في العصر البرونزي كما أكدت ذلك التنقيبات والدراسات الأثرية. ويقول العرباوي: «إن جنوب الجزيرة العربية اشتهر منذ أقدم أطوار الحضارة الزراعية بإنجازين لم يُعرف لهما نظير عند الشعوب القديمة، **أولهما**: نظام الإرواء وهندسته الفريدة الذي كان يتم بواسطة السدود والآبار.. وهو شيء تميزت به بلاد اليمن التي لا يوجد مكان في العالم كان يضاهيها في كثرة السدود.. **وثانيهما**: إنشاء نظام المدرجات الفلاحية الذي لم يعرف هو الآخر في غير هذه الجهة، فقد أنشأه اليمنيون على سفوح الجبال وعلى المرتفعات التي أصلحوا تربتها لحصر مياه المطر عند نزوله ضماناً لدخوله التربة وإروائها، وزرعوا تلك المدرجات بمختلف المزروعات. فنظام المدرجات الزراعية يكاد يعمّ جبال اليمن حتى كأنّها انقلبت على حدِّ تعبير بعضهم (إلى طيات عمائم يأخذ بعضها برقاب البعض)». (اهـ).

ـ إن معرفة الزراعة واستخدام وسائل الريّ وفلاحة المدرجات ظهرت بعد ذلك في شمال أفريقية إما منذ الألف الثاني قبل الميلاد (القرن الثاني عشر ق.م.) حيث مارسها سكان شمال أفريقية الأوائل الذين هم (البربر القدامى) وإما منذ زمن موجة الفينيقيين في القرن التاسع ق.م. وفي الحالتين فإن الزراعة والعمل الفلاحي بصفة عامة من المكتسبات والمعارف الوافدة إلى شمال أفريقية مع أصحابها الذين نقلوا معارفهم في الزراعة والريّ وفلاحة المدرجات من موطنهم الأول في اليمن بالجزيرة العربية إلى البلاد التي استقروا بها في شمال أفريقية. إن وجود مظاهر زراعية في مناطق من شمال أفريقية قبل زمن موجة الفينيقيين «لا يعني صحة ما ذهب إليه قزال وكامبس وجيان وغيرهم لأن هؤلاء صاغوا أفكارهم في الاتجاه الذي يرفض الاعتراف بأن البربر شرقيون، وإنما يعني ـ وكما قال العرباوي ـ أن تلك المظاهر الفلاحية المنتشرة في المناطق الجنوبية من المغرب هي من عمل جماعة أو جماعات بربرية وفدت من المدخل الجنوبي عن طريق البر ـ إلى بلاد المغرب ـ في الألف الثاني قبل الميلاد الذي شهدت فيه منطقة الشرق العربي تحركات بشرية واسعة كان منها انطلاق الآراميين إلى الشام والعراق، وتوّجه مجموعات أخرى من اليمن إلى أفريقية الشرقية ومنها الحبشة». (اهـ).. ومؤدى ذلك أن البربر الذين مارسوا الزراعة جاؤوا في تلك الفترة من الألف الثاني قبل

الميلاد ـ وبالتحديد القرن الثاني عشر ق.م. ـ وهو زمن الموجة الأولى من قبائل البربر التي ساقها وأوطنها الملك إفريقيس بن ذي المنار بشمال أفريقية.

ـ ولكن انتشار الزراعة والعمل الفلاحي لم يتم إلا منذ زمن موجة الفينيقيين والذين معهم ممّن شملهم اسم فينيقيين في الدراسات ـ أي منذ القرن التاسع ق.م. ـ حيث يذهب فريق من الدارسين إلى «إن الفينيقيين هم الذين أدخلوا معرفة الزراعة وتقنية الري إلى شمال أفريقية» وفي هذه الحالة أيضاً يتأكد ويتبين أن معرفة الزراعة وممارسة العمل الفلاحي وزراعة المدرجات وتقنية الري كانت من المعارف التي انتقلت من اليمن إلى شمال أفريقية مع أصحابها في الموجة الفينيقية التي هي موجة عهد الملك ياسر ينعم بالقرن التاسع ق.م. ثم موجة عهد الملك «أبي كرب أسعد» ـ بالقرن السابع ق.م. ـ وقد سلف تبيين أن من تسميهم الدراسات باسم فينيقيين واسم قرطاجيين هم من القبائل الحميرية السبئية التي شملها فيما بعد اسم البربر.

وتدل الدراسات على أنه ـ كما نقل العرباوي ـ «إن الفلاحة التي تأخرت ممارستها في شمال أفريقية لم تتطور إلا في الألف الأول قبل الميلاد. وإن أول توسع فلاحي مشهود حدث في العهد القرطاجي في القرن الخامس قبل الميلاد عندما انكفأت قرطاجة على نفسها وضعفت هيمنتها على البحر ولم تعد التجارة تدرّ عليها ما يكفي من الأموال فاتجهت نحو الفلاحة وأقبلت عليه إقبالاً كبيراً. فاستولت على مساحات واسعة من الأراضي الخصبة وأدخلت المنطقة في حقل الإنتاج الفلاحي المعتمد على أرقى التقنيات وعلى ما بلغته المعرفة الشرقية المتأصلة من العلوم الفلاحية» ـ وكذلك كان من المظاهر الهامة «استعمال زراعة المصاطب والمدرجات وإنشاءات جمع المياه، ولم يكن ذلك معروفاً في شمال أفريقية ـ وإنما كان من مظاهر الحضارة الزراعية في الجزيرة العربية وخاصة جزءها الجنوبي الغربي وهو بلاد وجبال اليمن» ويقول العرباوي: «.. وإذا قلنا إن طريقة تعاطي الفلاحة بواسطة المصاطب والسطوح المدرجة هي طريقة وافدة مع أصحابها فإننا نضيف أنها وفدت من الجزيرة العربية وخاصة بلاد اليمن السعيد»[1].

وبذلك فإن أساليب الزراعة والري والمدرجات الزراعية في شمال أفريقية هي من الدلائل الهامة على أن البربر عرب يمانيون إنتقلوا من اليمن إلى بلاد المغرب

---

(١) البربر عرب قدامى ـ محمد العرباوي ـ ص٢٧٤.

في العصور الحضارية التليدة، وأن أساليب الزراعة والري والمدرجات وأوائل المدن وتشابه فن العمارة والمومياءات المعثور عليها في جزر الكناري ـ والتي سبق ذكر دلالة مقارنتها بالمومياءات اليمنية ـ وكذلك النقوش وحروف الكتابة والشواهد اللغوية وتشابه الموسيقى الشعبية، كل ذلك شواهد لا تخطئ دلالتها على الأصول العربية اليمنية لسكان بلاد المغرب الأوائل وهم قبائل البربر، في تلك الأزمنة والعصور التي امتدت إلى زمن الفتح العربي الإسلامي لبلاد المغرب.

* * *

عصر الفتح العربي الإسلامي لبلاد المغرب والعلاقة مع البربر

في القرن السابع الميلادي وقع الفتح العربي الإسلامي لبلاد المغرب ـ شمال أفريقية ـ والذي استمر خلال فترة طويلة امتدت ما بين عام ٢٧ ـ ٩١هـ (٦٤٧ ـ ٧١٠م).

واستقرت ببلاد المغرب في زمن الفتح قبائل عربية وهم الذين تذكرهم المصادر التاريخية باسم (العرب) بينما تذكر سكان البلاد السابقين باسم (البربر) وبذلك ظهر مصطلح «عرب وبربر» في التاريخ ببلاد المغرب. وبما أن البربر هم في الواقع والأصل عرب يمانيون قدامى جاؤوا في الموجات السابقة وإنما تقادمت عليهم العهود ببلاد المغرب وتميزوا باسم البربر فإن العرب الذين جاؤوا في الفتح العربي الإسلامي إنما هم موجة وطبقة جديدة من سكان بلاد المغرب تميزوا باسم العرب وغالبيتهم من اليمن. فالجميع ـ البربر والعرب ـ موجات من الجزيرة العربية أصلها واحد.

وقد اتخذ بعض المستشرقين والمؤرخين الأجانب ودعاة الإنفصالية من وقوع صدام بين العرب الفاتحين والبربر في قضية كسيلة وكاهنة البربر دليلاً على أن البربر ليسوا من أصل عربي وأن العرب كانوا بمثابة احتلال بينما ليست الحقيقة كذلك فقد قاومت وحاربت قريش المسلمين والنبي محمد ﷺ زهاء عشرين سنة وارتدت بعض القبائل العربية عن دين الإسلام في خلافة أبي بكر الصديق بالجزيرة العربية ولم يقبل بعضها بسلطة دولة الخلافة، وكذلك هو التكييف السليم لِمَا حدث من صدام بين العرب الفاتحين وبعض قبائل ورؤساء البربر في بلاد المغرب، ولم يكن الصدام إلا مظهراً من مظاهر عديدة في العلاقة بين العرب والبربر وهي مظاهر أغلبها إيجابية وتؤكد العلاقة والروابط الأخوية عبر التاريخ. ونذكر فيما يلي معالم ووقائع عصر الفتح العربي الإسلامي لبلاد المغرب والعلاقة بين العرب الفاتحين والبربر في ذلك العصر.

أولاً

نبأ الغزو العربي الإسلامي الأول ونتائجه

كانت بلاد المغرب ـ شمال أفريقية ـ تحت الاحتلال والنفوذ البيزنطي الروماني الذي امتد من سنة ٥٣٤ ـ ٦٤٧م فكان شعب شمال أفريقية ـ البربر ـ تحت ذلك الاحتلال والنفوذ عندما وقع الفتح العربي الإسلامي لمصر في خلافة عمر بن الخطاب بقيادة عمرو بن العاص سنة ١٩ ـ ٢١هـ واستمر في بعض مناطق مصر إلى سنة ٢٣هـ. وقد تطلعت قبائل بربرية إلى القدوم العربي الإسلامي قبل أن يستتب فتح مصر حيث تذكر المصادر «إن بربر برقة أعلنوا استعدادهم للقبول بالوجود العربي الإسلامي وأنهم: أرسلوا إلى عمرو بن العاص قبل أن يخلص العرب من فتح مصر يعرضون عليه الدخول في الإسلام»[١] وكان بربر برقة من قبيلة لواتة ـ اليمنية الحميرية الأصل ـ وقد ذكرت المصادر التاريخية «إن لواتة كانت منتشرة بين خليج سرت الكبير وطرابلس»[٢] وأنه «كان معظم اللواتيين يقطنون بأقليم برقة عند وقوع الفتح الإسلامي»[٣] وقد كانت برقة وطرابلس وتونس إلى طنجة تحت الاحتلال البيزنطي الرومي ويحكمها نائب للقيصر البيزنطي الروماني هرقل يُقال له (بطريق) وهو لقب يعني نائب الأمبراطور القيصر، وكان اسم البطريق (جرجير) حين وقع الغزو العربي الإسلامي الأول سنة ٢٧هـ ـ الموافق ٦٤٧م ـ في خلافة عثمان بن عفان بقيادة عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح أمير مصر ومعه كوكبة من الصحابة بينهم عبد اللّه بن الزبير وعبد اللّه بن عمر بن الخطاب ومعاوية بن حُديج السكوني الكندي اليماني وأبو زمعة البلوّي القضاعي الحميري وعقبة بن عامر الجهني اليماني، وقد ذكر البلاذري عن عبد اللّه بن الزبير قال: «أغز أنا عثمان بن عفان أفريقية وكان بها بطريق سلطانه من طرابلس إلى طنجة»[٤] وذكرت رواية الطبري وابن الأثير ذلك السلطان باسم (جرجير) وأنه جمع عسكر الروم وأهل البلاد ـ قال ابن الأثير ـ «وبلغ عسكره مائة ألف وعشرين

(١) فتح العرب للمغرب ـ مؤنس حسين ـ ص٥٤.
(٢) تاريخ أفريقية الشمالية ـ جوليان أندري ـ ص٣٤٩.
(٣) نهاية الأرب ـ النوري ـ ص٢٨٩ جـ٢.
(٤) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٢٢٨.

ألف»[١] بينما كان الجيش العربي الإسلامي بقيادة ابن أبي السرح عشرة آلاف مقاتل فدخلوا أقليم برقة وطرابلس وبلغوا مدينة سُبَيْطلة في أفريقية (تونس) وهي من أهم معاقل الروم حيث تقول رواية الطبري وابن الأثير أنهم هزموا الملك جرجير وجيشه وقتلوا الملك جرجير وفتحوا أفريقية. ولعل أصل ذلك وقوع معركة مع قوة من جيش جرجير انتصر فيها الجيش العربي، ولم تقع معركة شاملة ولم يُقتل بطريق أفريقية وإنما استجاب إلى المصالحة على أن يؤدي مبلغاً من المال فقد ذكر البلاذري بسند صحيح: ـ «إن عبد اللّه بن أبي سرح صَالَح بطريق أفريقية على ألفيّ ألف دينار وخمسمائة ألف»[٢]. وذكر البلاذري عن عبد اللّه بن الزبير قال: «إن عظماء أفريقية اجتمعوا فطلبوا إلى عبد اللّه بن أبي سرح أن يأخذ منهم ثلاثمائة قنطار من ذهب على أن يكفّ عنهم ويخرج من بلادهم، فَقَبل ذلك»[٢] وذكر البلاذري من طريق موسى بن ضمرة أنه «لما صَالح ابن أبي سرح بطريق أفريقية رجع إلى مصر ولم يُول على أفريقية أحداً»[١] وقال ابن الأثير: «صَالَحَ أهل أفريقية عبد اللّه بن أبي سرح على مال يؤدونه، ولم يُقدم المسلمون على دخول أفريقية والتوغل فيها لكثرة أهلها». وأنه «لم يفقد المسلمون في ذلك الغزو إلا ثلاثة نفر منهم أبو ذؤيب الشاعر، مرض ومات فدفن هناك» وأنه «عاد المسلمون إلى مصر بعد ثلاثة أشهر» [ص٤٦/ ٢ ـ الكامل].

ويتبين من مجمل ذلك أنه:

ـ لم يقع أي صدام بين الجيش العربي والبربر في ذلك الغزو الأول، بل أن بربر برقة كانوا يميلون إلى قبول الوجود العربي الإسلامي. وكان الصدام الوحيد الذي وقع هو بين الجيش العربي وبين سلطة الاحتلال الرومي (بطريق أفريقية).

ـ وقد ترتب على ذلك الغزو الأول مصالحة بطريق أفريقية ـ الرومي ـ وكبار أهلها البربر على أداء مبلغ من المال ـ ربما سنوياً ـ وأن يعود العرب المسلمون وأميرهم إلى مصر، فلم يقع أي استقرار وتوطن عربي في ذلك الغزو وإنما عاد المسلمون إلى مصر بعد ثلاثة أشهر من مسيرهم في ذلك الغزو الأول إلى شمال أفريقية سنة ٢٧هـ أو سنة ٢٨هـ في خلافة عثمان بن عفان.

ـ وقد إلتزم بطريق أفريقية بأداء المبلغ الذي صولح عليه (فترة من الوقت)،

---

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٤٥ ـ ٤٦ جـ٢.

(٢) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٢٢٨.

فغضب القيصر البيزنطي الروماني هرقل حيث كما ذكر ابن خلدون: «لما بلغ هرقل أن أهل أفريقية صالحوا المسلمين بالمال غضب عليهم وبعث بطريقاً فأخبرهم بما جاء له، فأبوا وقالوا: قد كان ينبغي أن يساعدنا هرقل. فقاتلهم البطريق وهزمهم وطرد ملكهم ـ أي البطريق السابق ـ فلحق بالشام»[١] وبذلك عاد الوضع إلى ما كان عليه قبل الغزو الأول وتلاشى أي أثر له. وقد انشغلت دولة الخلافة العربية الإسلامية بفتنة قتل الخليفة عثمان بن عفان ثم فتنة الانقسام والصراع بين الإمام علي بن أبي طالب وأمير الشام معاوية بن أبي سفيان ـ سنة ٣٤ ـ ٤٠هـ ـ إلى أن استتب أمر الخلافة لمعاوية سنة ٤١ هجرية.

ثانياً

الفتح العربي الإسلامي لإفريقية بقيادة معاوية بن حُديج سنة ٤٤هـ/ ٦٦٤م

كان معاوية بن حُديج السكوني الكندي اليماني من الصحابة وكبار الزعماء اليمنيين الذين شهدوا فتح مصر واستقروا بها وهو ـ كما في كتاب الإكليل ـ «رأس اليمانية بمصر». وقد كان من قادة الغزو الأول إلى أفريقية في خلافة عثمان بن عفان حيث كان أبو زمعة البلوي القضاعي الحميري من الصحابة الذين شهدوا ذلك الغزو، وقد جاء في شاهد قبره في جلولاء بتونس ما يلي نصه: «هذا مقام أبي زمعة البلوي صاحب رسول اللّه كان معه في الحديبية وبايعه بها بيعة الرضوان. شهد فتح مصر مع عمرو بن العاص، ودخل إفريقية في جيش معاوية بن حديج في خلافة عثمان بن عفان ومعه جماعة من الصحابة منهم عبد اللّه بن عمر وعبد اللّه بن الزبير، وأدركته الوفاة في جلولة ودُفن بها سنة ٣٤هـ» (اهـ).

وكان معاوية بن حديج من كبار القادة ورأس اليمانية بمصر في ولاية عمرو بن العاص لمصر في خلافة معاوية بن أبي سفيان ـ سنة ٤١ ـ ٤٣هـ ـ فلما مات عمرو استعمل معاوية مكانه عبد اللّه ابنه ثم عزله وولّى الصحابي عقبة بن عامر الجهني القضاعي الحميري ولاية مصر سنة ٤٤هـ وجاء في ترجمته بكتاب

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٢٩ جـ٢.

الإصابة: «إن معاوية جمع لعقبة بن عامر في إمرة مصر بين الصلاة والخراج»[١]. فكان عقبة بن عامر والياً لمصر على الخراج والصلاة ومعاوية بن حُديج أميراً قائداً للجيش والحرب بمصر بحيث ـ كما ذكر ابن خلدون ـ «أغزى معاويةُ بن أبي سفيان معاوية بن حديج أفريقية سنة ٤٤هـ وكان عاملاً على مصر فغزاها . .»[٢] وقال ابن خلدون في خبر بطريق أفريقية السابق أنه « . . لحق بالشام وقد اجتمع الناس على معاوية بعد عليّ رضي اللّه عنه فاستجاشه على أفريقية فبعث معه معاوية بن حديج في عسكر فلما وصل الإسكندرية هلك الرومي ـ (أي بطريق أفريقية السابق) ـ ومضى ابن حُديج في العساكر فنزل قونية»[٢] ـ وقد انضم إليه عُقبة بن عامر والعساكر الذين بمصر وغالبيتهم من اليمنيين فدخلوا أفريقية الشمالية ـ وجاء في أخبار عقبة أنه: ـ «انتهى عقبة إلى لواتة ومراته فأطاعوا . .» وأنه «لقي عقبة أهل أفريقية فيمن معه من المسلمين ببرقة ثم ساروا إلى طرابلس فنهبوا الروم عندها ثم سار المسلمون إلى أفريقية» ـ أي إلى تونس ـ حيث ما ذكر ابن الأثير: ـ «سار معاوية بن حُديج إلى أفريقية وكان معه عسكر عظيم فنزل عند قونية، وأرسل إليه البطريق ثلاثين ألف مقاتل فلما سمع بهم معاوية بن حُديج سَيَّر إليهم جيشاً من المسلمين فقاتلوهم فانهزمت الروم»[٣] وقال ابن خلدون: « . . مضى معاوية بن حُديج في العساكر فنزل قونية فَسَّرح إليه البطريق ثلاثين ألف مقاتل، فقاتلهم معاوية بن حديج فهزمهم»[٢] فكان ذلك أول قتال هام في الفتح العربي الإسلامي وكان القتال بين العرب الفاتحين وبين الروم المحتلين، ولم يقع أي صدام بين العرب والبربر بل أن قبيلتي لواتة ومزاتة كانتا قد أظهرتا الطاعة ولم يقاتل البربر مع الروم نهائياً.

ثم ـ بعد انتصار قونية ـ تقدم الأمير معاوية بن حديج إلى مدينة حصن جلولاء وهو المعقل المنيع للروم وقد اجتمع فيه جيش الروم والمدد الذي وصل إليهم من هرقل في القسطنطينية، وتقع جلولاء على مقربة من القيروان من الناحية الغربية حيث كما ذكر ابن خلدون: «حاصر معاوية بن حُديج جلولاء، وقاتل مدد الروم الذي جاءها من قسطنطينية، لقيهم بالقصر الأحمر فغلبهم وأقلعوا إلى بلادهم. وافتتح جلولاء، ثم بث السرايا ودوّخ بلاد أفريقية فأطاعوا . .»[٢] قال

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر ـ ص٤٩٠ جـ٢.
(٢) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٢٩/٢ وص١٨٥ جـ٤.
(٣) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٤٧ جـ٣.

العرباوي: «فتح معاوية بن حُديج سوسة وجلولاء سنة ٤٥هـ» وجاء في كتاب الجامع «إن معاوية بن حُديج فتح بنزرت» قال ابن الأثير: «.. وبث معاوية بن حديج السرايا فسكن الناس وأطاعوا، ثم لم يزل أهل أفريقية من أطوع أهل البلدان وأسمعهم إلى زمن هشام بن عبد الملك»[١].

نتائج الفتح العربي الإسلامي لإفريقية بقيادة معاوية بن حُديج

وتتمثل نتائج الفتح العربي الإسلامي لأفريقية الشمالية بقيادة الأمير معاوية بن حُديج سنة ٤٤ ـ ٤٥هـ (٦٦٤ ـ ٦٦٥م) في التالي:

١ ـ تحرير شرق أفريقية الشمالية من الاحتلال والنفوذ البيزنطي الروماني فقد زال الاحتلال والوجود الرومي وأقلع الروم من ساحل أفريقية ـ (تونس) ـ إلى بلادهم عند فتح جلولاء سنة ٤٥هـ (٦٦٥م)، وانحصر وجودهم ونفوذهم في مناطق وسواحل من بلاد المغرب تم تحريرها في مراحل لاحقة.

٢ ـ استقرار قبائل من العرب الفاتحين بمناطق وأعمال برقة وطرابلس (ليبيا) وأعمال أفريقية (تونس) وكان غالبية أولئك العرب من اليمنيين خاصة من قبائل (بلّى) و(خولان) و(المعافر) و(لخم) و(جهينة) و(كلب) وبعض الأنصار (الأزديين).

٣ ـ بداية السلطة العربية الإسلامية فقد ولّى الخليفة معاوية بن أبي سفيان الصحابي رويفع بن ثابت الأنصاري أقليم برقة وطرابلس (ليبيا) ـ سنة ٤٦هـ ـ وهو أول أمير عربي لبرقة وطرابلس. قال الحافظ بن حجر في ترجمته بكتاب الإصابة: «رويفع بن ثابت.. نزل مصر، وولاهُ معاوية على طرابلس سنة ٤٦هـ وغزا أفريقية..»[٢] وقال الحافظ ابن كثير: «رويفع بن ثابت، صحابي جليل، شهد فتح مصر، وله آثار جيدة في فتح بلاد المغرب، ومات ببرقة والياً من جهة مَسْلمة بن مخلد»[٣] وقد مكث رويفع بن ثابت أميراً لأقليم برقة وطرابلس حتى وفاته سنة ٥٦هـ.

٤ ـ قام معاوية بن حُديج باختطاط الموقع الأول لمدينة القيروان وتوطين العرب هناك سنة ٤٥هـ وسنة ٤٦هـ وقد ذكر تلك الحقيقة الهامة الحافظ بن عبد البر

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٤٧ جـ٣.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر العسقلاني ـ ص٥٢٢ جـ١.
(٣) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٤٥ جـ٨.

في كتاب الاستيعاب حيث قال: « . . كان معاوية بن حديج قد اختط القيروان بموضع يُدعى اليوم القرن. فنهض إليه عقبة بن نافع [حين تولى أفريقية] فلم يعجبه فركب بالناس إلى موضع القيروان اليوم واختطها في ذلك الموضع »[١]. ويتبين من ذلك أن الأمير معاوية بن حديج هو أول من اختط القيروان ـ كمركز للحكم والجند العربي الإسلامي بأفريقية (تونس) ـ ثم قام عقبة بن نافع بتغيير الموقع إلى مكان قريب من الموقع الأول سنة ٥٠هـ وقد امتدت القيروان إلى الموقع الأول فيما بعد واستمرت القيروان عاصمة للحكم العربي الإسلامي ولولاية أفريقية عبر العهود التالية من عصر الخلافة العربية الإسلامية، وجاء في ترجمة معاوية بن حديج بكتاب الجامع ما يلي « . . وُلّي معاوية بن حُديج غزو المغرب مراراً، آخرها سنة ٥٠هـ واستولى على صقلية وفتح بنزرت. . وله في أفريقية آثار، منها آبار في القيروان تُعرف بآبار حُديج وهي خارج باب تونس منحرفة عنه إلى الشرق »[٢].

٥ ـ وقاد معاوية بن حُديج أول غزو عربي إسلامي بحري إلى جزيرة صقلية ـ التي تقع في إيطالية في مواجهة ساحل تونس وكانت صقلية من أهم الموانئ والمعاقل الرومية ـ وعن ذلك جاء في كتاب فتوح البلدان ما يلي: «غزا معاوية بن حُديج أيام معاوية بن أبي سفيان جزيرة صقلية، وكان أول من غزاها، ولم تزل تُغزى بعد ذلك»[٣].

٦ ـ اتسمت العلاقة بين العرب الفاتحين والبربر ـ أهل أفريقية ـ بالهدوء والتعاون وقبول البربر بالسلطة العربية الإسلامية والوجود العربي حيث قال ابن خلدون: « . . بَثّ معاوية بن حديج السرايا ودوّخ بلاد أفريقية فأطاعوا». وقال ابن الأثير: « . . بثّ معاوية بن حُديج السرايا، فسكن الناس وأطاعوا، ثم لم يزل أهل أفريقية من أطوع أهل البلدان وأسمعهم إلى زمان هشام بن عبد الملك». (اهـ) والمقصود بأهل أفريقية قبائل البربر في أقليم برقة وطرابلس وفي أفريقية (تونس) ومنهم لواتة ومزاتة وقبيلة زناتة «وكانت مواطن زناتة من لدن جهات طرابلس إلى جبال أوراس والزاب» ـ في الجزائر ـ.

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ ابن عبد البر القرطبي ـ ص١٠٩/ ٣.
(٢) الجامع ـ محمد بامطرف ـ ص٥٨١.
(٣) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٢٣٧.

وقد مهدت العلاقة الطيبة منذ أيام معاوية بن حديج لإسلام قبيلة زناتة ـ التي سلف تبيين أنها من قبائل البربر ذات الأصل العربي اليمني التليد ـ ويقول الأستاذ محمد العرباوي «إن زناتة من أوائل القبائل التي دخلت الإسلام وقد علل قوتيه Gautier إقبال زناتة وهي من أكبر القبائل البربرية على الإسلام بما بينها وبين العرب من تشابه في نمط الحياة دون أن يردّ هذا التشابه إلى الأرومة المشتركة . .»[١] ـ بينما زناتة نفسها تذكر أصلها العربي اليمني كما سلف التبيين ـ «وهناك جماعات بربرية أخرى بالبادية والمناطق الصحراوية دخلت الإسلام وكذلك مؤازرة الزناتية بتلمسان انحازت هي الأخرى في المراحل الأولى للفتح إلى العرب»[١] ـ وذلك في عهد ولاية مسلمة بن مخلد ـ.

وقد أصبح معاوية بن حديج والياً لمصر سنة ٤٧ ـ ٥٠هـ وغزا إلى المغرب سنة ٥٠هـ ثم انتهت ولايته لمصر بتولية مسلمة بن مخلد ـ سنة ٥٠هـ ـ ولم يزل عظيم الشأن حتى وفاته وتم دفنه بجبل المقطم في مصر.

* * *

ثالثاً

عهد ولاية مَسْلَمَةْ بن مُخلد الأنصاري لمصر وبلاد المغرب (٥٠ ـ ٦٢هـ)

في سنة ٥٠هـ (الموافق ٦٧٠م) تولى مصر مع بلاد المغرب الصحابي الأمير مَسْلَمة بن مخلد الأنصاري الخزرجي الأزدي اليماني. وعن توليته وشمولية ولايته لمصر وبلاد المغرب ـ أفريقية الشمالية ـ قال ابن الإثير: «في سنة خمسين عُزِل معاوية بن حُديج عن مصر، ووُلِّيها مسلمة بن مخلد مع أفريقية وهو أول من جُمع له المغرب مع مصر»[٢].

وقال الطبري: «عزل معاوية بن أبي سفيان في هذه السنة ـ وهي سنة خمسين ـ معاوية بن حُديج عن مصر وولّى مسلمة بن مخلد مصر والمغرب كله

(١) البربر عرب قدامى ـ محمد العرباوي ـ ص٤٠ و٦٤.

(٢) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٢٣٠ جـ٣.

فكان أول من جُمع له المغرب ومصر وبرقة وطرابلس»[١] وقال ابن عبد البر: «قَدِم مسلمة بن مخلد والياً على مصر وأفريقية سنة خمسين وهو أول من جُمع له مصر والمغرب ولم يزل على ذلك حتى توفي معاوية . .» ـ أي سنة ستين ـ وقال ابن حجر: ـ « . . مَسلمة بن مخلد أول من جُمعت له مصر والمغرب وذلك في خلافة معاوية وصدر من خلافة يزيد بن معاوية»[٢] وذلك إلى سنة ٦٢ هجرية.

ويتبين من ذلك أن مسلمة بن مخلد الأنصاري كان هو الوالي على بلاد المغرب ـ شمال أفريقية ـ من سنة ٥٠ ـ ٦٢هـ (٦٧٠ ـ ٦٨٢م) فكان الولاة ببلاد المغرب في ذلك العهد نواباً لمسلمة بن مخلد يعملون في إطار سياسته وتوجيهاته، فذلك العهد هو عهد مسلمة بن مخلد، وتتمثل معالم ذلك العهد ببلاد المغرب ـ شمال أفريقية ـ في التالي:

● ـ كان الصحابي رويفع بن ثابت الأنصاري أميراً والياً لأقليم برقة وطرابلس من جهة مسلمة بن مخلد سنة ٥٠ ـ ٥٦هـ ـ كامتداد لولايته منذ سنة ٤٦هـ حيث قال الحافظ بن حجر في ترجمته بكتاب الإصابة: «رويفع بن ثابت. . ولاهُ معاوية على طرابلس سنة ٤٦هـ وغزا أفريقية. روى عن النبي ﷺ وروى عنه بشر بن عبد اللّه الحضرمي وحنش الصنعاني وأبو الخير»[٣]. وقال ابن كثير: «رويفع بن ثابت، صحابي جليل، شهد فتح مصر، وله آثار جيدة في فتح بلاد المغرب، ومات ببرقة والياً من جهة مسلمة بن مخلد»[٤]. وقد مكث رويفع بن ثابت والياً من جهة مسلمة بن مخلد على أقليم برقة وطرابلس حتى وفاته سنة ٥٦هـ وترسخ في عهده الحكم والوجود العربي الإسلامي هناك وتوطدت العلاقة مع البربر وشاع بينهم الإسلام وصارت برقة مركز ومعقل الحكم والعهد العربي بأقليم برقة وطرابلس (ليبيا)، وجاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه «توفي رويفع بن ثابت ببرقة وهو أمير عليها من قِبَل مسلمة بن مخلد، وقبره مشهور في الجبل الأخضر ببرقة»[٤] وكانت وفاته ـ كما في الإصابة ـ سنة ٥٦ هجرية.

● ـ وبينما كان رويفع بن ثابت أميراً لأقليم برقة وطرابلس من جهة مسلمة بن مخلد كان عُقبة بن نافع الفهري القريشي أميراً لأفريقية (تونس) سنة ٥٠

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص١٣٤ جـ٣.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر ـ ص٤١٨/ ٣ وص٥٥٢/ ١.

(٣) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٥٤٥ جـ٨.

(٤) الجامع ـ محمد بامطرف ـ ترجمة رويفع بن ثابت.

ـ ٥٥هـ حيث نقل عقبة بن نافع موقع القيروان من الموضع الذي إختطه معاوية بن حُديج وإختط القيروان في موضعها اليوم ونقل الناس إليها، وقام بغزوات إلى ما يلي تونس من بلاد المغرب، ويبدو أنه أفرط في استعمال العنف فقد ذكر ابن الأثير أنه «وضع السيف في أهل البلاد لأنهم كانوا إذا دخل إليهم أمير أطاعوا وأظهر بعضهم الإسلام فإذا عاد الأمير عنهم نكثوا.. وكان عقبة يرسل السرايا فتغير وتنهب..» (اهـ) ويبدو أن تلك السياسة لم تكن محل رضا تام في الفسطاط ودمشق فتم عزل عقبة بن نافع سنة ٥٥هـ وعاد إلى دمشق فأقام بها بينما تولى أفريقية أبو المهاجر دينار وهو أنصاري بالولاء ولكنه عربي الأصل. وقد ذكر ابن خلدون أنه «استعمل معاوية على مصر وأفريقية مسلمة بن مخلد فعزل عقبة عن أفريقية وولى أبا المهاجر دينار سنة خمس وخمسين»[١].

وقد ولّى مسلمة بن مخلد أبا المهاجر دينار لتنفيذ خطة وسياسة تستهدف أمرين أساسيين، **أحدهما**: استمالة البربر ودعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة وترغيبهم في الإسلام، **وثانيهما**: غزو وفتح مناطق المغرب التي لما يدخلها المسلمون ـ فيما يلي تونس ـ ونشر السلطة العربية الإسلامية فيها وتخليصها من النفوذ البيزنطي الرومي. فسار أبو المهاجر دينار من مصر إلى أفريقية (تونس) والمغرب سنة ٥٥هـ ومعه قادة وعلماء منهم زهير بن قيس البلويّ الحميري والفقيه حنش الصنعاني وسفيان بن وهب الخولاني وزياد بن أنعم المعافري وهُم من أعلام اليمنيين، وقام أبو المهاجر دينار بتنفيذ سياسة مسلمة بن مخلد في أفريقية الشمالية حيث استمرت ولايته من سنة ٥٥ ـ ٦٢هـ، فعلى صعيد الفتح ـ وكما ذكر العرباوي ـ «قَدِم أبو المهاجر دينار سنة ٥٥هـ ففتح جزيرة شريك (الوطن القبلي) ثم توغل في الداخل، وهو أول من أقدم على ذلك حتى بلغ تلمسان المنطقة التي يتركز فيها نفوذ البيزنطيين»[٢] وجاء في كتاب الجامع أنه «سيّر مسلمة بن مخلد الغزاة إلى المغرب في البر والبحر وعلى رأسهم أبو المهاجر دينار أحد القادة الفاتحين». وقال ابن خلدون: «غزا أبو المهاجر المغرب وبلغ تلمسان»[١].

● ـ وعلى صعيد العلاقة مع البربر تم استمالة كثيرين وأسلم كثيرون في محور أفريقية ـ المغرب وكان على رأسهم الزعيم البربري كسيلة. قال ابن

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٨٦/ ٢.

(٢) البربر عرب قدامى ـ محمد العرباوي ـ ص٦٠.

خلدون: «أسلم على يد أبي المهاجر الملك كسيلة ملك أروبة والبرانس من البربر»[١] ـ أي زعيم قبائل البرانس الأمازيغية الذين هم الطبقة الأولى من البربر وكان كسيلة بتلمسان ـ وقال ابن الأثير: «إن كسيلة أسلم لَمّا وُلِّي أبو المهاجر أفريقية، وحسن إسلامه، وهو من أكابر البربر وأبعدهم صوتاً، وصحب أبا المهاجر» (اهـ) وقال العرباوي: «إن أبا المهاجر أكرم كسيلة وأحسن إليه وظل ملازماً لأبي المهاجر يحظى بما يحظى به القادة من الاحترام والتبجيل.. وموقف أبي المهاجر من كسيلة القائد البربري كان نابعاً من وعي بأوضاع المنطقة ومن فهم سياسي لأحداثها وتطوراتها في تلك المرحلة فقد أدرك الموقف الإيجابي لجموع البربر من عمليات الفتح ـ منذ بداياتها ـ حيث تركوا الروم البيزنطيين الغرباء عنهم فعلاً من كل الوجوه يواجهون مصيرهم بأنفسهم وبدون أية مساعدة منهم إلا من بعض العناصر المتحالفة معهم والتي لا قيمة لها عددياً. وهذا ما جعل أبا مهاجر يتوخى سياسة اللين والمودّة ويتحالف مع البربر وما معاملته لكسيلة وصداقته له إلا دليل على ذلك» [ص٤١] ويقول جوليان: «.. يظهر أن أبا المهاجر فتح مع قواد البربر مفاوضات لكسب مساندتهم ضد البيزنطيين»[٢] وقد ذكر المالكي أنه: «انصرف أبو المهاجر ـ [من المغرب الأوسط] ـ فنزل بدكرور مدينة البربر بالقرب من موضع القيروان»[٣] وقد علق د. عبد العزيز سالم على هذا التصرف بأنه قد يكون «نابعاً من رغبة أبي المهاجر في التقرب إلى البربر وإلى الإقامة في قرية من قراهم حتى يوهم بأن قيروانهُ لا يمثل احتلالاً لبلادهم»[٤] وبصفة عامة كانت العلاقة مع البربر أحسن علاقة، وكان ما حققه أبو المهاجر في ذلك تنفيذاً لسياسة مسلمة بن مخلد أمير مصر وبلاد المغرب، وقد مكث أبو المهاجر والياً من جهة مسلمة بن مخلد حتى وفاة مسلمة سنة ٦٢ هجرية وبوفاة مسلمة انتهت ولاية أبي المهاجر فقد عزله يزيد بن معاوية وولى مكانه عقبة بن نافع، فعاد عقبة مرة ثانية إلى أفريقية فتغيّر الحال وانقطعت العلاقة الجيدة مع البربر التي استمرت من بداية الفتح إلى سنة ٦٢هـ.

* * *

(١) البربر عرب قدامى ـ محمد العرباوي ـ ص٦٠.
(٢) تاريخ أفريقية الشمالية ـ جوليان شارل ـ ص٢٠/ ٢.
(٣) رياض النفوس ـ المالكي ـ ص٢٠/ ١.
(٤) المغرب الكبير ـ د. عبد العزيز سالم ـ ص٢١٥/ ٢.

رابعاً

فترة حركة كُسيلة وكاهنة البربر

(٦٣ ـ ٧٤هـ)

في سنة ٦٢هـ (٦٨١م) ولّى يزيد بن معاوية عُقبة بن نافع الفهري القريشي على أفريقية ـ الشمالية ـ مكان أبي المهاجر، وكانت تلك البداية لأحداث مؤلمة فقد انتهج عُقبة سياسة متعالية ضد الزعيم البربري كسيلة وقومه البربر بحيث كما قال الأستاذ محمد العرباوي: «إن ما حققه أبو المهاجر في مستوى تنظيم العلاقة مع البربر لم يلبث أن بدّده عقبة بن نافع»[١] وقد تجلى ذلك في معاملة عُقبة بن نافع للزعيم البربري كسيلة وأعمال العنف ضد بربر المغرب مما أدّى إلى تمرد كسيلة والذين أجابوه من البربر وانتكاثهم ومحاربتهم لعقبة ومقتله في موقعة تهودة ثم زحف كسيلة وقومه إلى القيروان ـ سنة ٦٤هـ ـ. وقد ذهب بعض الدارسين الأجانب ودعاة الانفصالية إلى اعتبار كسيلة قائداً للمقاومة البربرية ضد العرب بينما لم تكن الحقيقة كذلك وإنما ـ وكما ذكر ابن الأثير ـ «كان كسيلة قد أسلم لما وُلِّي أبو المهاجر أفريقية وحسن إسلامه وهو من أكابر البربر وأبعدهم صوتاً، وصحب أبا المهاجر، فلما وُلِّي عقبة، عَرّفه أبو المهاجر ـ مكانة كسيلة وأمره بحفظه، فلم يقبل عُقبة واستخف به وأتى بغنم فأمر كسيلة بذبحها وسلخها مع السلاخين، فقال كسيلة: هؤلاء فتياني وغلماني يكفونني المؤونة، فشتمه عقبة وأمره بسلخها، ففعل. فقَبّح أبو المهاجر هذا (الفعل) عند عقبة فلم يرجع عنه»[٢] وقال العرباوي: «إن عقبة بن نافع تعمّد إذلال كسيلة وإهانته بالرغم من أن أبا المهاجر عرّفه بمكانته «وأنه من ملوك البربر ولم يستحكم الإسلام في قلبه» فاستخف عقبة بذلك وأمعن في الإساءة إليه إذْ أمر بإحضار ذود غنم وذَبْحِهَا للعساكر وطلب من «كسيلة أن يسلخ مع السالخين فقال له: أصلح اللّه الأمير هؤلاء فتياني وغلماني يكفونني» فنهره عقبة وقال له: (قُم) فقام كسيلة مغضباً ـ وسلخ مع السالخين ـ .. فقال أبو المهاجر لعقبة: ما هذا الذي صنعت، لقد كان رسول اللّه ﷺ يتألف جبابرة العرب، وأنت تجيء إلى رجل هو خيار قومه في دار عزّه فتُفسد قلبه؟ توّثق من الرجل فإني أخاف فتكه. فتمادى عقبة في استخفافه وإستهانته، ومن الطبيعي

---

(١) البربر عرب قدامى ـ محمد العرباوي ـ ص٤١.

(٢) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٣/٣٠٨.

أن يثير هذا التصرف السخط في كسيلة ويجعله يضمر الانتقام ممن امتهنوه..»[١] وقال ابن خلدون: «إن كسيلة اضطغن على عقبة بما كان يعامله به من الاحتقار»[٢].

ففي سنة ٦٣هـ سار عقبة بن نافع بالجيش لغزو المغرب «وترك في القيروان جنداً مع الذراري والأموال واستخلف بها زهير بن قيس البلوي»[١] وأخذ عقبة معه أبا المهاجر مقيداً في الحديد، وغزا عقبة مناطق من المغرب سبق فتحها ومصالحة أهلها وكان يريد محو ما حققه أبو المهاجر من مكاسب بحيث ـ كما قال العرباوي ـ «فأي شيء يكون فيه فضل لأبي المهاجر إلّا وعمل عقبة على إزالته ومحو أثره، من ذلك أنه عندما اجتاز المغرب الأوسط متجهاً إلى طنجة نصحه أبو المهاجر بألا يهاجم من أسلموا وكانت منهم (أروبة) البرنسية قبيلة كسيلة قائلاً له: ليس بطنجة عدّو لك لأن الناس قد أسلموا وهذا رئيس البلاد ـ يعني كسيلة ـ فابعث معه والياً، فأعرض عن ذلك وتمادى في غزواته»[٢] وقال ابن عذارى: «أوغل عقبة في المغرب يقتل ويأسر طائفة بعد طائفة.. وقَتَل ـ في السوس ـ خلقاً وأصاب منهم نساء». (اهـ).

وكان كسيلة يتحين الفرصة للإنتقام من إهانات واحتقار عقبة من جهة ولتحقيق ونيل الزعامة والسلطة من جهة أخرى. وعندما غزا عقبة إلى السوس ـ وكما ذكر ابن خلدون ـ «اغتنم كسيلة الفرصة وراسل البربر» وقال ابن الأثير: «اضمر كسيلة الغدر وأعلم الروم بذلك، فلما راسلوه أظهر ما كان يضمره وجمع أهله وبني عمه..» قال العرباوي: «انتهز كسيلة الفرصة وانفلت من المعسكر وتراجع في التزاماته (فنكث وقام في أهل بيته وقبائله من البربر) وأخذ يعد العدة للإنتقام والتقت رغبته برغبة الروم وبرغبة الجماعات البربرية الغاضبة من تصرف عقبة معها، فاجتمع لكسيلة جيش من البربر والروم» ـ وتهيؤوا لإعتراض عقبة في منطقة (تهودة) عندما عاد من غزو السوس وتوجه إلى (تهودة) وكان معظم جيشه قد عاد إلى القيروان فلما وصل عقبة والذين معه إلى (تهودة) هاجمهم كسيلة وقومه الذين أجابوه من البربر حيث ـ كما ذكر ابن خلدون ـ «اعترضوا عُقبة في تهودا وقتلوه في ثلاثمائة من الصحابة والتابعين استشهدوا كلهم، ـ وكان ممن استشهد أبو المهاجر دينار ـ وأُسر في تلك الوقعة محمد بن أوس الأنصاري في

(١) البربر عرب قدامى ـ العرباوي ـ ص٤٣ ـ ٤٦.
(٢) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٨٥/ ٢.

نفر فخلّصهم صاحب قفصة وبعث بهم إلى القيروان». [ص١٨٥/ ٢] ويقول العرباوي: «إن كسيلة عندما أَسَرَ في (تهودة) بعض الوجوه مثل محمد بن أوس الأنصاري ويزيد بن خلف العبسي لم يصبهم بأي أذى بل قَبِلَ تدخل (ابن معاذ) صاحب قفصة الذي افتدى هؤلاء الأسرى وبعث بهم إلى زهير بن قيس، فلو كان كسيلة يتصرف بدافع مقاومة الوجود العربي لفتك بهم وبغيرهم».

وقد كان زهير بن قيس البلويّ اليماني قائداً ونائباً في القيروان عند مقتل عُقبة والذين معه في تهودة وكان من كبار الشخصيات في القيروان أيضاً الفقيه حنش بن عبد اللّه الصنعاني، ـ وكان كسيلة يتهيأ للزحف إلى القيروان ـ قال ابن خلدون: «وعزم زهير بن قيس البلوي على القتال، فخالفه حنش بن عبد اللّه الصنعاني وارتحل إلى مصر واتبّعه الناس، فاضطر زهير إلى الخروج معهم، وانتهى إلى برقة فأقام بها مرابطاً». ـ قال ابن الأثير: ـ «وأما كسيلة فاجتمع إليه جَمعُ أهل أفريقية (البربر) وقصد أفريقية [أي تونس والقيروان] وبها أصحاب الذراري والأنفال من المسلمين فطلبوا الأمان من كسيلة فأمّنهم ودخل القيروان، واستولى على أفريقية». وقال ابن خلدون: «استأمن من كان بالقيروان إلى كسيلة فأمّنهم ودخل القيروان وأقاموا في عهده».

وبذلك اقتصرت السلطة العربية الإسلامية على أقليم برقة وطرابلس حيث استمر زهير بن قيس البلوي أميراً ومرابطاً في برقة ـ سنة ٦٣ ـ ٦٧هـ ـ وقد ولّاه عبد الملك بن مروان، وانشغلت الأمة بفتنة الصراع والانقسام على الخلافة بين عبد الملك بن مروان وعبد اللّه بن الزبير، بينما سيطر كسيلة والذين معه من البربر على القيروان وما إليها من أفريقية وتحالف كسيلة مع الروم البيزنطيين ولم يعد هو ومن معه على دين الإسلام.

ولاية زهير بن قيس أفريقية ومقتل كسيلة البربري

وفي سنة ٦٧هـ (الموافق ٦٨٦م) ـ وكما ذكر ابن خلدون ـ «بعث عبد الملك بن مروان إلى زهير بن قيس البلوي بمكانه من برقة بالمدد وولاه حرب البرابرة فزحف سنة سبع وستين ودخل أفريقية»[1].

وبعنوان «ولاية زهير بن قيس أفريقية وقتل كسيلة» قال ابن الأثير: «لما قوي أمر عبد الملك بن مروان ذُكر عنده من بالقيروان من المسلمين وأشار عليه أصحابه

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٨٦/ ٢.

بإنفاذ الجيوش إلى أفريقية لاستنقاذهم، فكتب إلى زهير بن قيس البلوي بولاية أفريقية وجهز له جيشاً كبيراً فسار سنة تسع وستين إلى أفريقية . .»[١] ـ والأصوب سنة ٦٧هـ ـ «فبلغ خبره إلى كسيلة، فجمع وحشد البربر والروم وأحضر أشراف أصحابه، وقال: قد رأيتُ أن أرحل إلى ممش فأنزلها فإن بالقيروان خلقاً كثيراً من المسلمين ولهم علينا عهد فلا نغدر بهم، ونخاف إن قاتلنا زهيراً أن يثب هؤلاء من ورائنا، فإذا نزلنا ممش أمِناهم وقاتلنا زهيراً، فإن ظفرنا بهم تبعناهم إلى طرابلس وقطعنا أثرهم من أفريقية، وإن ظفروا بنا تعلقنا بالجبال ونجونا، فأجابوه إلى ذلك، ورحل إلى ممش. وبلغ ذلك زهيراً فلم يدخل القيروان بل أقام ظاهرها ثلاثة أيام حتى أراح واستراح ثم سار من ظاهر القيروان في طلب كسيلة، فلما قاربه نزل وعبى أصحابه وركب إليه، فالتقى العسكران واشتد القتال وكثر القتل في الفريقين حتى أيس الناس من الحياة ثم نصر اللّه المسلمين وانهزم كسيلة وأصحابه وقُتل هو وجماعة من أصحابه بممش، وتبع المسلمون البربر والروم فقتلوا من أدركوا منهم فأكثروا، وفي هذه الوقعة ذهب رجال البربر والروم وأشرافهم، وعاد زهير إلى القيروان»[١].

وقال ابن خلدون: «زحف زهير بن قيس سنة ٦٧ ودخل أفريقية، ولقيه كسيلة على ممش من نواحي القيروان فهزمه زهير بعد حرب صعبة، وقتله، واستُلحم في الوقعة كثير من أشراف البربر ورجالاتهم»[٢] ـ أي من أشراف البربر ورجالاتهم الذين كانوا مع كسيلة والروم، ـ وقال جوليان: «انهزمت الجيوش البربرية والبيزنطية بعد قتال عنيف، قُتل فيه كسيلة سنة ٦٨٦ميلادية»[٣]. وبذلك النصر الذي حققه الأمير اليماني زهير بن قيس البلوي والذين معه من العرب والبربر انتهت حركة كسيلة سنة ٦٧هـ الموافق ٦٨٦م.

وقد استقر الأمير زهير بن قيس في القيروان فترة من الزمن والياً لأفريقية (تونس) إلى جانب ولايته لبرقة وطرابلس (ليبيا)، ثم ـ في سنة ٦٩هـ ـ «تَرَكَ زهير بن قيس بالقيروان عسكراً ـ ونائباً ـ وعاد في جمع كثير إلى برقة، واعترضه بسواحل برقة أسطول صاحب القسطنطينية . .» وذلك أنه «جاء الروم من القسطنطينية وصقلية في مراكب كثيرة وأغاروا على برقة فأصابوا منها سبياً وقتلوا

---

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٣٠٩ ـ ٣١٠ جـ٣.

(٢) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٨٦/ ٢.

(٣) تاريخ أفريقية الشمالية ـ جوليان شارل أندري ـ ص٢٤.

ونهبوا، ووافق ذلك قدوم زهير من القيروان إلى برقة، فأخبر الخبر، فأمر العسكر بالسرعة والجدّ، وسار هو ومن معه ـ من طليعة العسكر ـ وكان الروم خلقاً كثيراً، وباشر زهير القتال، واشتد الأمر وعظم الخطب، وتكاثر الروم عليهم، فاستشهد زهير وأصحابه، وعاد الروم بما غنموا إلى القسطنطينية». [ص٣١٠/ ٣ ـ الكامل ـ].

وقال البلاذري: «.. انصرف زهير إلى برقة، فبلغه أن جماعة من الروم خرجوا في مراكب لهم فعاثوا، فتوجه إليهم في جريدة خيل فلقيهم، فاستشهد ومَنْ معه، فقبره هناك وقبورهم تُدعى قبور الشهداء»(١). وقال الحافظ بن حجر في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة: «نهض زهير إلى برقة في عدد قليل، فلقي الروم، فقاتل حتى قُتل شهيداً في برقة..»(٢).

وقد ذكرت بعض الروايات أن استشهاد زهير كان سنة ٦٧هـ وبعضها سنة ٧٦هـ والأصوب ـ كما في كتاب الكامل ـ سنة ٦٩هـ. ويدل استشهاده على أن الحرب مع الروم ـ على أفريقية الشمالية ـ ما تزال قائمة. وكان الروم في الصميم من حركة كسيلة ثم حركة الكاهنة البربرية بعد استشهاد الأمير زهير بن قيس البلوي رضي اللّه عنه وأرضاه.

* * *

نبأ حركة كاهنة البربر وولاية حسان بن النعمان لأفريقية الشمالية

كانت الكاهنة (دهينا) البربرية رئيسة على قبيلة جراوة بجبال الأوراس ـ بالجزائر ـ وصارت لها مكانة رئاسية أكبر بعد مقتل كسيلة حيث ـ كما ذكر ابن الأثير ـ «اجتمع حولها البربر بعد مقتل كسيلة». ـ والمقصود البربر الذين كانوا مع كسيلة بصفة رئيسية ـ وتحالفت الكاهنة مع الروم مما جعلها تبدو ملكة عظيمة في بعض الروايات والدراسات بينما ـ وكما قال العرباوي ـ «كانت الكاهنة مغمورة وإن الصورة التي أُعطيت لها من كونها ملكة عظيمة واسعة النفوذ يهابها البربر والروم إنما كانت لها بعد أفول نجم كسيلة وكان الروم من غير شك وراء ذلك حيث أصبحوا عاجزين عن صدّ العرب وليس أمامهم إلا تأليب البربر وقادتهم، ومن هنا نجد عساكر الروم ومُجنديهم ضمن جيش كسيلة ثم الكاهنة، إذْ يذكر ابن

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٢٣١.
(٢) الإصابة ـ ابن حجر العسقلاني ـ ص٥٥٥ جـ١.

أبي دينار أن الكاهنة لما علمت بأمر حسان بن النعمان «قدمت إليه في عسكر عظيم من البربر والروم»، وكان الذي حرك الكاهنة لقتال العرب في البداية أمران، **أحدهما**: عقيدتها إذْ كانت هي وقبيلتها (جراوة) على دين اليهودية ـ [فيما تقول الروايات] ـ ومن الطبيعي أن تدفعها عقيدتها إلى مقاومة الدين الجديد. **وثانيهما**: تحالفها مع الروم حيث أن لكل منهما مصلحة في صد العرب والوقوف في وجوههم». (اهـ) قال ابن الأثير: «وقد ذكر الواقدي أن الكاهنة خرجت غضباً لقتل كسيلة ومَلَكت أفريقية.. بعد قتل زهير بن قيس ـ ونال من بالقيروان من المسلمين أذى شديد، فاستعمل عبد الملك بن مروان على أفريقية حسان بن النعمان» (اهـ).

وكان حسان بن النعمان من أعلام الرؤساء والقادة اليمانيين وهو من قبيلة غسان الأزدية السبئية اليمانية الذين كان منهم الملوك الغساسنة. وجاء في ترجمته بكتاب الجامع ما يلي: «حسان بن النعمان بن عَدِّي الأزدي الغساني، من أولاد ملوك غسان: قائد، من رجال السياسة والحرب، من المشهورين في الفتوحات الإسلامية. كان يُلقب بالشيخ الأمين. وُلِّي أفريقية في زمن معاوية بن أبي سفيان، ثم كان عاملاً على مصر في أيام عبد الملك بن مروان..»[1] ـ ولعله كان عاملاً على مصر بالنيابة، أو عاملاً على بعض الأمور ـ مثل القيادة الحربية والثغور ـ فلما استشهد الأمير زهير بن قيس البلوي وقامت حركة الكاهنة البربرية ـ سنة ٦٩هـ ـ ولّاه الخليفة عبد الملك بن مروان على برقة وأفريقية. وقد ذكرت بعض الروايات أن ولاية حسان كانت من سنة ٧٤هـ والأصوب أن ولايته كانت من سنة ٦٩هـ ولكن مقره كان مدينة برقة وأعمالها (ليبيا) حتى سنة ٧٤هـ، وهي الفترة الأولى من ولاية حسان والصراع مع كاهنة البربر، وخلال تلك الفترة:

ـ سار الأمير حسان بن النعمان إلى القيروان، ثم سار بالعسكر من القيروان قاصداً الكاهنة في جبال أوراس، فلما اقترب منها «هدّمت الكاهنة حصن باغايه ظناً منها أنه يريد الحصون». وقال العرباوي أن الكاهنة «هدّمت باغايه بعد أن أخرجت الروم منها، ظناً منها أن حسان يريد أن يتحصن بها». ومضى حسان قاصداً منطقة الكاهنة بينما تدفقت إلى الكاهنة جموع البربر بتلك الجهات وكتائب الروم، ونزل حسان عند (نهر نيني) ـ بجيشه المحدود ـ «وقَدِمت إليه الكاهنة في جيش عظيم من البربر والروم». والتقت بحسّان عند (وادي مسكياته) بشرق الجزائر، حيث

(١) الجامع لأعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن ـ محمد بامطرف ـ ص١٦٤.

«اقتتلوا أشدّ قتال رآه الناس»، فلما أدرك حسان ضخامة جيش الكاهنة من البربر والروم انسحب بغالبية جيشه عائداً إلى القيروان ووقع في الأسر ثمانون رجلاً من عسكره ـ ربما تخلفوا في المسير ـ وكان ذلك بمثابة انتصار للكاهنة، ثم رأى حسان الرجوع إلى برقة ـ لقلة عسكره ـ وحتى يصل إليه المدد، وكتب إلى عبد الملك بن مروان يسأله المدد ويخبره بكثرة وقوة العدو وانتشارهم إلى القيروان، وقد ذكر ابن الأثير أنه «كتب حسان إلى عبد الملك بن مروان يعلمه الحال، فأمره عبد الملك بالمقام إلى أن يأتيه أمره، فأقام حسان بعمل برقة خمس سنين، فسُمي ذلك المكان قصور حسان إلى الآن». (اهـ).

إن الخمس سنين التي أقام فيها الأمير حسان في مدينة وأعمال برقة ـ بعد موقعة (وادي مسكياتة) ورجوعه من القيروان ـ قد جاء في بعض الروايات أنها من سنة ٧٤ ـ ٧٩هـ، والأصوب أن تلك الفترة هي من سنة ٦٩ ـ ٧٤هـ، وقد ذكر ابن الأثير عن الواقدي أنه «عاد حسان ـ من أفريقية ـ إلى نواحي برقة فأقام بها إلى سنة أربع وسبعين» (اهـ) ويؤكد ذلك أيضاً ما جاء في تاريخ ابن خلدون من أن الكاهنة «.. أخرجت العرب من أفريقية وانتهى حسان إلى برقة وجاءه كتاب عبد الملك بالمقام حتى يأتيه المدد، ثم بعث إليه المدد سنة أربع وسبعين..» (ص١٨٧/ ٢).

وقد انشغلت الأمة في تلك الفترة بفتنة الانقسام والحرب على الخلافة بين عبد الملك بن مروان وبين عبد اللّه بن الزبير، واشترك الكثير من القادة والجند الذين كانوا في مصر وشمال أفريقية في تلك الحرب بالمشرق، فكان ذلك من العوامل الرئيسية التي أتاحت للكاهنة والذين معها من البربر السيطرة على أفريقية (تونس) بالتحالف مع الروم «وأذلّت أهل أفريقية، ونال من بالقيروان من المسلمين أذى شديد». بينما حافظ الأمير حسان بن النعمان على استمرار وقوة الحكم العربي الإسلامي في إقليم برقة وطرابلس، وكان مقر حسان في برقة «قصوراً في حيز برقة نزلها، وهي قصور يضمها قصر سقوفة أزاج، فسُمّيت قصور حسان». (ص٢٣١ ـ فتوح البلدان).

وفي منتصف سنة ٧٣هـ انتهى الصراع على الخلافة بين عبد الملك بن مروان وعبد اللّه بن الزبير بمقتل عبد اللّه بن الزبير وانتهاء الفتنة ـ في جمادى الآخرة سنة ٧٣هـ ـ ولم يستتب الأمر في المدينة وغيرها إلا في صفر سنة ٧٤هـ ـ وبذلك صفي أمر الخلافة لعبد الملك بن مروان، فبعث بالمدد إلى حسان بن النعمان في برقة.

مسير حسان إلى أفريقية والقضاء على حركة الكاهنة

في سنة ٧٤هـ (الموافق ٦٩٣هـ) سار الأمير حسان بن النعمان من برقة (ليبيا) إلى أفريقية (تونس) بعد وصول المدد إليه، إذْ أنه ـ وكما جاء في كتاب الكامل ـ «كان عبد الملك بن مروان شغله عن أفريقية ما كان بينه وبين ابن الزبير، فلما قُتل ابن الزبير، واجتمع المسلمون عليه، جهز جيشاً كبيراً واستعمل عليهم وعلى أفريقية حسان بن النعمان وسيّرهم إليها سنة ٧٤هـ» وقال ابن خلدون: «إن عبد الملك بن مروان بعد أن قتل عبد اللّه بن الزبير وصفي له الأمر، أمر حسان بن النعمان بغزو أفريقية وأمده بالعساكر» وقال أنه: «بعث عبد الملك إلى حسان المدد سنة ٧٤هـ».

فالزمن الصحيح لذلك ليس سنة ٧٩هـ كما في بعض الروايات التي وقع فيها التباس في ترتيب الأحداث وإنما الزمن الصحيح هو سنة ٧٤هـ حيث وكما ذكر الواقدي «أقام حسان بنواحي برقة إلى سنة أربع وسبعين، فسيّر إليه عبد الملك جيشاً كثيفاً وأمره بقصد الكاهنة فسار إليها».

وكان من قادة ذلك الجيش الذين ساروا مع حسان بن النعمان الفقيه حنش الصنعاني وسفيان بن وهب الخولاني وزياد بن أنعم المعافري والمنذر المذحجي وغيرهم من القادة اليمانيين لأن غالبية الجيش كانوا من اليمانيين العرب بما فيهم الأمير حسان بن النعمان.

«فلما علمت الكاهنة بمسير حسان إليها قالت: إن العرب يريدون المدائن والذهب والفضة، ونحن إنما نريد المراعي.. ولا أرى لكم إلا خراب بلاد أفريقية كلها حتى ييأسوا منها، فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر»[١] وذكر القيرواني: «أنها وجهت أتباعها إلى كل ناحية يقطعون الشجر ويهدمون الحصون»[٢] وذكر ابن الأثير أن الكاهنة «فرقت أصحابها ليخربوا البلاد، فخربوها، وهدموا الحصون، ونهبوا الأموال»[٣] وقد أغضب ذلك التصرف البدوي المتخلف أصحاب تلك المدائن والحصون والمزارع من البربر وبعض الروم، فلما دخل حسان مناطق أفريقية (تونس) ـ وكما ذكر ابن الأثير ـ «لقيه

(١) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ـ ابن عذارى ـ ص٣٦.

(٢) تاريخ أفريقية والمغرب ـ ابن رقيق القيرواني ـ ص٦١.

(٣) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٣١ ـ ٣٢ جـ٤.

جمع من أهلها ومن الروم يستغيثون من الكاهنة ويشكون إليه منها، فسّره ذلك». وقال القيرواني ـ لما قدِم حسان ـ «لقيه من النصارى في طريقه ثلاثمائة رجل يستغيثون إليه من الكاهنة فيما نزل بهم من خراب. ومضى حسان حتى وصل إلى قابس فخرج إليه أهلها ـ وكانوا قبل ذلك يتحصنون من كل أمير يمرّ بهم ـ فاستأمنوا إليه وأدخلوا عامله، فأمَّنهم، فاستطال طريق القيروان فمال إلى طريق قفصة وقسطيلة ونفزاوة وبعثوا إليه يستغيثون من أمر الكاهنة، فسرّه ذلك»[١]. وذكر ابن الأثير أنه «سار حسان إلى قابس فلقيه أهلها بالأموال والطاعة، وجعل فيها عاملاً، وسار إلى قفصة فأطاعه من بها واستولى عليها وعلى قسطيلة ونفزاوة[٢] ـ وذلك دون قتال.

وجاء في نبأ المسير الأول أنه «لما دخل حسان أفريقية، وورد القيروان، تجهز منها وسار إلى قرطاجة، ولم يكن المسلمون حاربوها قط، فلما وصل إليها رأى بها من الروم والبربر ما لا يُحصى كثرة، فقاتلهم وحاصرهم وقتل منهم كثيراً، فلما رأوا ذلك اجتمع رأيهم على الهرب فركبوا في مراكبهم وسار بعضهم إلى صقلية وبعضهم إلى الأندلس، ودخلها حسان بالسيف.. وأرسل الجيوش فيما حولها، فأسرعوا إليه خوفاً ـ أي طائعين ـ»[٢] واستكملت أفريقية طاعة لحسان واستجابة.

وفي وقت لاحق، مضى حسان من أفريقية (تونس) إلى منطقة تهودة وجبال الأوراس ـ بالجزائر ـ معقل الكاهنة البربرية، وكانت الكاهنة قد تبنت أسيراً من العرب يقال له خالد بن يزيد وآخت بينه وبين ولديها وفقاً لتقاليد بربرية قديمة «وكان ذلك التآخي عند البربر من أعظم العهد في جاهليتهم إذا فعلوه» ولما تقدم حسان إلى منطقة الكاهنة «أرسل حسان رسولاً سراً إلى خالد بن يزيد بكتاب يستعلم منه الأمور، فكتب إليه جواباً في رقعة يُعرفه تفرّق البربر ويستحثه بالسرعة وجعل الرقعة في خبزة، وعاد الرسول، فخرجت الكاهنة ناشرة شعرها تقول:

ذهب مُلككم! فطُلِبَ الرسول فلم يوجد، فوصل إلى حسان وقد احترق الكتاب بالنار، فعاد الرسول إلى خالد، وكتب إليه بما كتب أولاً، وأودعه قربوس السرج». (ص٣٣/ ٤ ـ الكامل).

وتذكر المصادر أنه لما «تقدم حسان وبلغ الكاهنة قدومه أحضرت ولدين لها

---

(١) تاريخ أفريقية والمغرب ـ ابن رقيق القيرواني ـ ص٦١.
(٢) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٣١ ـ ٣٢ جـ٤.

وخالد بن يزيد» وأنه «قال لها أولادها: ما الذي تخافين على قومك؟ قالت: إذا أنا مُت فلا أبقى اللّه منهم أحداً على الدنيا» وذكر المالكي أن خالد بن يزيد أشار عليها بالرحيل فقالت (وكيف وأنا ملكة من الملوك، والملوك لا تفرّ من الموت فأقلد قومي عاراً إلى آخر الدهر». وتتفق المصادر على أن الكاهنة قالت لولديها ولخالد بن يزيد: (أنني مقتولة فأمضوا إلى حسان وخذوا لأنفسكم منه أماناً، فساروا إليه وبقوا معه). ويقول قوتيه: إن هذا الصنيع طبيعي بالنسبة لقائد بربري يضع سلطان عائلته فوق كل اعتبار).

وتهيأت الكاهنة والذين معها للقتال. قال ابن الأثير: «وسار حسان نحوها، فالتقوا، واقتتلوا، واشتد القتال وكثر القتل حتى ظُن أنه الفناء ثم نصر اللّه المسلمين.. فانهزمت الكاهنة، ثم أُدركت فقُتلت». وقال ابن خلدون «لقي حسان الكاهنة وقاتلها وقتلها، ومَلَكَ جبل أوراس وما إليه، ودوّخ نواحيه، وانصرف إلى القيروان، وأمّن البربر، وكتب الخراج عليهم وعلى من معهم من الروم والفرنج على أن يكون معه اثنا عشر ألفاً من البربر لا يفارقونه في مواطن جهاده» (ص١٨٧/ ٣).

وقال ابن الأثير ـ بعد نبأ انهزام ومقتل الكاهنة ـ «ثم إن البربر استأمنوا إلى حسان، فأمّنهم، وشرط عليهم أن يكون منهم عسكر مع المسلمين عدّتهم اثنا عشر ألفاً يجاهدون العدو، فأجابوه إلى ذلك، فجعل على هذا العسكر ابنيّ الكاهنة، ثم فشا الإسلام في البربر، وعاد حسان إلى القيروان، وأقام لا ينازعه أحد». (ص٣٣/ ٤).

* * *

خامساً

مآثر عهد حسان بن النعمان

(٧٤ ـ ٨٥هـ)

والعلاقة الأخوية بين العرب والبربر

كان لعهد ولاية حسان بن النعمان الغساني (ما بين سنة ٧٤ ـ ٨٥هـ) آثار ومآثر هامة في تاريخ أفريقية الشمالية وترسيخ عصرها العربي الإسلامي وفي العلاقة الأخوية بين العرب والبربر، وقد تجلى ذلك منذ مسيره بالجيش العربي الإسلامي

من برقة إلى أفريقية (تونس) ثم إلى الأوراس (الجزائر) حيث «انضم إلى جيش حسان مسلمون من البربر ذكرهم المؤرخون باسم الجيش الإفريقي»(١) وكان من أبرز قادتهم محمد بن بكير، وهلال بن ثروان اللواتي(٢).

وأعطى حسان الأمان للذين أظهروا الطاعة عند قدومه في مدائن أفريقية، ثم لجموع البربر الذين كانوا مع الكاهنة في جبال أوراس ونواحيها ـ بعد القضاء على حركة الكاهنة ـ فلم يقتل ويَسْبِ ويأخذ الأموال بل ولم يفرض عليهم شيئاً لأنهم لما يُسلموا وإنما «كتب حسان الخراج عليهم»(٣) حيث ـ وكما يذكر د. صالح محمد فياض ـ «عدّ حسان الأرض المغربية أرضاً مفتوحة صلحاً لا عنوة، وبذلك أمّر البربر على ما بأيديهم من الأرض على أن يؤدوا ما عليها من مال الدولة. واعتبرهم حسان مساوين للعرب في الحقوق والواجبات وفي الاشتراك في الحرب والغنائم، فكان لهذه السياسة أكبر الأثر في نفوسهم»(١١). قال ابن خلدون: «. . وأذعن البربر لحكم حسان ورسخت فيهم كلمة الإسلام فتناسوا الردة»(٣).

وقام حسان بتجنيد اثني عشر ألفاً من البربر ـ أغلبهم من زعماء وأبناء زعماء قبائل وعشائر البربر ـ وعقد لولدي الكاهنة «يفرن» و«يزديان» كل واحد على ستة آلاف منهم، وألحق بهما ثلاثة عشر رجلاً من العلماء لتعليمهم الدين وتحفظيهم القرآن الكريم، وبفضلهم تم إسلامهم جميعاً بمن فيهم ابني الكاهنة(٤). وكذلك «فشا الإسلام في البربر»(٥).

وفي سنة ٧٩هـ «جدّد حسان بناء جامع القيروان، ودوّن الدواوين، وولّى الولاة»(٥). . وتوسعت القيروان واستقر فيها كثير من العلماء والفقهاء وغيرهم من العرب الفاتحين وكذلك في غيرها من المدائن، فكان عبد الرحمن التنوخي اليماني أول قاض للقيروان والفقيه حنش الصنعاني أول من تولى عشور أفريقية، وكان الصحابي سفيان بن وهب الخولاني يعلم الناس في جامع القيروان.

---

(١) تعريب المغرب إبان الفتوحات الإسلامية ـ د. صالح محمد فياض ـ مجلة المؤرخ العربي ـ العدد ٣٠ ـ السنة ١٩٨٦م.
(٢) البيان المغرب ـ ابن الرقيق القيرواني ـ ص٢٣/ ١.
(٣) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٨٧ جـ٢ ـ وص١١٠ جـ٦.
(٤) الفتح العربي لشمال أفريقية ـ عبد العزيز الثعالبي ـ وتعريب المغرب ـ مجلة المؤرخ العربي ـ العدد ٣٠.
(٥) الجامع لأعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن ـ محمد بامطرف ـ ص١٦٤.

وتذكر الدراسات: «إن حسان بن النعمان جعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية في البلاد بها تُرفع الشكاوى وتحرر الرسائل للعمال، ويكتبها كتاب الدواوين، ويخطب بها خطباء المساجد في أيام الجمع والأعياد، وتُدرَّس يومياً في المسجد عن طريق قراءة القرآن، واشترط على موظفي الدولة إتقانها لاستخدامها في مختلف الدواوين»[١].

وقام حسان بتنظيم الجيش، فقسّمه على عدة ثغور وفرض له العطاء من بيت المال، وساوى بين العرب الفاتحين والمسلمين من أهل البلاد في العطاء والرتب والمعاملة[٢]. وتجلت في تلك المساواة معالم المواطنة الكاملة، وكان لذلك الأخاء أثره الطيب في تعلم أصول الدين واللغة العربية.

وأسس حسان مدينة تونس على الساحل لتكون عيناً لمدينة القيروان الواقعة إلى الشمال منها والتي تبعد عنها بمسافة ١٦٥ كيلو متراً، واتخذها المسلمون محرساً ترقب تحركات الروم، وصارت المدينة ذات مكانة هامة لا سيما بعد قيام حسان ببناء (دار صناعة السفن) فيها الواقعة على بحيرة تونس والذي أقام عليها مرفأ عمل فيه أحواضاً لتعويم السفن[٢] وجلب لدار الصناعة العمال من مصر ومعهم أسرهم بلغ عددها ألف أسرة، جمعوا إلى جانب خبرتهم معرفتهم للغة العربية، وكانوا يقومون بتصنيع الخشب الذي يجلبه البربر من الغابات في دار الصناعة ودخلت المسميات العربية في أدوات الأسطول وفي مواد تصنيعه[٣] وقامت دار الصناعة بإنتاج عدد كبير من السفن الحربية التي حملت الفاتحين العرب إلى الأندلس وإلى جزر البحر الأبيض المتوسط[٤] ـ فيما بعد ـ وأصبحت المدينة بعد بناء دار الصناعة فيها مصراً من الأمصار بفضل تشجيع حسان الاستقرار فيها بعد أن قام بتعميرها وجعلها مركزاً للبعوث تنطلق منها وتعود إليها، وأقام بيت المال فيها، وجعلها مقراً للقضاة يؤمها الناس للفتوى والتقاضي. وقام الولاة من بعده بتوسيعها وبناء المساجد فيها وأهمها مسجد الزيتونة الذي وضع أركانه حسان وأصبح منارة من منارات العلم إلى يومنا هذا[٣].

ومكث حسان والياً لإفريقية الشمالية إلى أواخر خلافة عبد الملك بن مروان

---

(١) تعريب المغرب ـ رياض النفوس ـ المالكي ـ ص٣٦/ ١ ـ والبيان المغرب ـ ص٣٧/ ١.
(٢) البيان المغرب ـ القيرواني ـ ص٣٧/ ١.
(٣) تعريب المغرب ـ مجلة المؤرخ العربي ـ العدد ٣٠.
(٤) الجامع ـ محمد بامطرف ـ ص١٦٤.

ثم استخلف نائبه صالح بالقيروان وتوجه إلى الشام ـ سنة ٨٥هـ ـ ومكث نائب حسان أميراً للبلاد إلى أن جاء موسى بن نصير والياً ـ سنة ٨٨هـ ـ فانتهت بذلك ولاية حسان ولكن مآثره ودوره في تحقيق العلاقة الأخوية بين العرب والبربر خالدة عبر التاريخ.

* * *

سادساً

عهد ولاية موسى بن نصير لبلاد المغرب

(٨٨ ـ ٩٣هـ)

اكتمل الفتح العربي الإسلامي لبلاد المغرب (شمال أفريقية) في عهد ولاية موسى بن نُصير وترسخت العلاقة والروابط بين العرب والبربر.

وموسى بن نُصير هو «موسى بن نُصير بن عبد الرحمن بن يزيد اللخمي» من قبيلة لَخْم اليمنية، أسلم جده ـ عبد الرحمن ـ منذ أيام رسول اللّه ﷺ وشهد موقعة اليرموك في خلافة أبي بكر مع ابنه نُصير ـ والد موسى ـ فقد جاء في ترجمته بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة ما يلي نصه: «عبد الرحمن بن يزيد اللخمي. جدّ موسى بن نُصير الذي افتتح المغرب الأقصى. قال الرشاطي وجدت بخط الحاكم: كان نُصير والد موسى شجاعاً، وشهد مع أبيه اليرموك، واستشهد ـ أبوه ـ يومئذ»[1] وشهد نُصير ـ والد موسى ـ فتح الشام واستقر بدمشق وتولى قيادة شرطة أمير الشام معاوية في خلافة عمر بن الخطاب وخلافة عثمان بن عفان[1].

قال الحافظ ابن كثير: «ووليّ موسى بن نُصير غزو البحر لمعاوية فغزا قبرص وكان نائب معاوية عليها وبَنَى هنالك حصوناً كالماغوصَه وحصن بانس وغير ذلك من الحصون»[2].

ثم كان من القادة والوزراء لمروان وعبد الملك بن مروان حيث «لَمَّا دخل مروان بلاد مصر كان موسى بن نصير معه»[2] ـ وذلك سنة ٦٤هـ ـ فمكث بمصر وزيراً لعبد العزيز بن مروان، ثم ـ وكما ذكر ابن كثير: «لما أخذ عبد الملك بن

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر العسقلاني ـ ص٩٩ جـ٣ وص٥٨٤ جـ٣.
(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص١٧١ جـ٩.

مروان بلاد العراق جعل موسى بن نصير وزيراً عند أخيه بشر بن مروان»[١] ـ أي عندما أخذ العراق من يد ابن الزبير سنة ٧٢هـ ـ فمكث موسى وزيراً هناك إلى نحو سنة ٧٧هـ ـ ثم دخل أفريقية في ولاية حسان بن النعمان بحيث قال البلاذري: «وقيل: كانت ولاية موسى بن نصير لأفريقية سنة ثمان وسبعين. .»[٢] وقال الحافظ ابن كثير: «قال البغوي: تولى موسى بن نصير أفريقية سنة تسع وسبعين»[١]. . وبما أن الوالي على أفريقية كان حسان بن النعمان فإن أصل ذلك إنما هو دخول موسى بن نصير إلى أفريقية في عهد حسان وأنه كان من الأمراء القادة في إطار ولاية حسان، ثم عاد إلى الشام حتى ولّاه الخليفة الوليد بن عبد الملك على أفريقية الشمالية بعد انتهاء ولاية حسان وذلك سنة ٨٨هـ كما هو ثابت في المصادر التاريخية.

وكان من معالم عهده:

استكمال فتح بلاد المغرب: قال ابن الأثير: (في سنة ٨٨هـ ولّى الوليد بن عبد الملك موسى بن نصير على أفريقية. .) وقال ابن خلدون: «قدِم موسى بن نصير القيروان ـ سنة ٨٨هـ ـ فوجّه البعوث إلى النواحي، وبعث ابنه عبد اللّه في البحر إلى جزيرة ميورقة فغنم منها وعاد ثم بعثه إلى ناحية أخرى، وتوجه هو إلى ناحية فغنم منها. .» (اهـ).

وفي سنة ٨٩هـ سار موسى بن نصير لفتح إقليم ومدينة طنجة وبلاد المغرب الأقصى، فافتتحها. قال البلاذري: «سار موسى بن نصير سنة تسع وثمانين ففتح طنجة ونزلها، وهو أول من نزلها، واختط فيها للمسلمين، وانتهت خيله إلى السوس الأدنى، فوطئهم، وأدوا إليه الطاعة، وقبض عامله منهم الصدقة». (اهـ) وقال ابن خلدون: «غزا موسى بن نصير طنجة، وافتتح درعة وصحراء تافيلات، وأرسل ابنه إلى السوس وأذعن البربر لسلطانه ودولته، وأخذ رهائن المصامدة، وأنزلهم بطنجة». (اهـ) وقال ابن خلدون أيضاً: «أن موسى بن نصير أمير العرب أغزى عساكر المسلمين بلاد المغرب الأقصى ودوّخ أقطاره، وأوغل في جبل طنجة حتى وصل إلى خليج الزقاق فاستنزل بليان لطاعة الإسلام». (اهـ) وبليان هو أمير من القوط الأسبان كان يحتل ويحكم «من فرضة المجاز بطنجة ومن زقاق البحر إلى بلاد البربر» فأذعن بليان

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص١٧١ جـ٩.

(٢) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٢٣٢.

وقومه لسلطة وطاعة موسى بن نُصير وانتهى آخر معقل للوجود الأجنبي ببلاد المغرب العربي.

المآثر والعلاقة مع البربر: وقد ذكرها د. صالح فياض قائلاً: «أما موسى بن نصير فقد ظهر عمله واضحاً في المغرب الأقصى، باتخاذه طنجة قاعدة بلاد المغرب الأقصى مركزاً له، وعمل على تحويلها إلى رباط عسكري ومدرسة كبيرة للتعليم الديني.

كما سلك المسلك الذي سلكه حسان في أخذ الرهائن، وترك معهم سبعة عشر فقيهاً وقارئاً يعلمونهم أصول الإسلام ويحفظونهم القرآن، وبفضل رعايته وبجهود العلماء والمعلمين تم نشر الإسلام بين القبائل البربرية الموجودة في كل من طنجة وغمارة وبرغواطة. وأسكن بعض العرب مع قبائل البربر وأمر العرب بتعليمهم أصول الدين وتحفظيهم القرآن واللغة العربية.

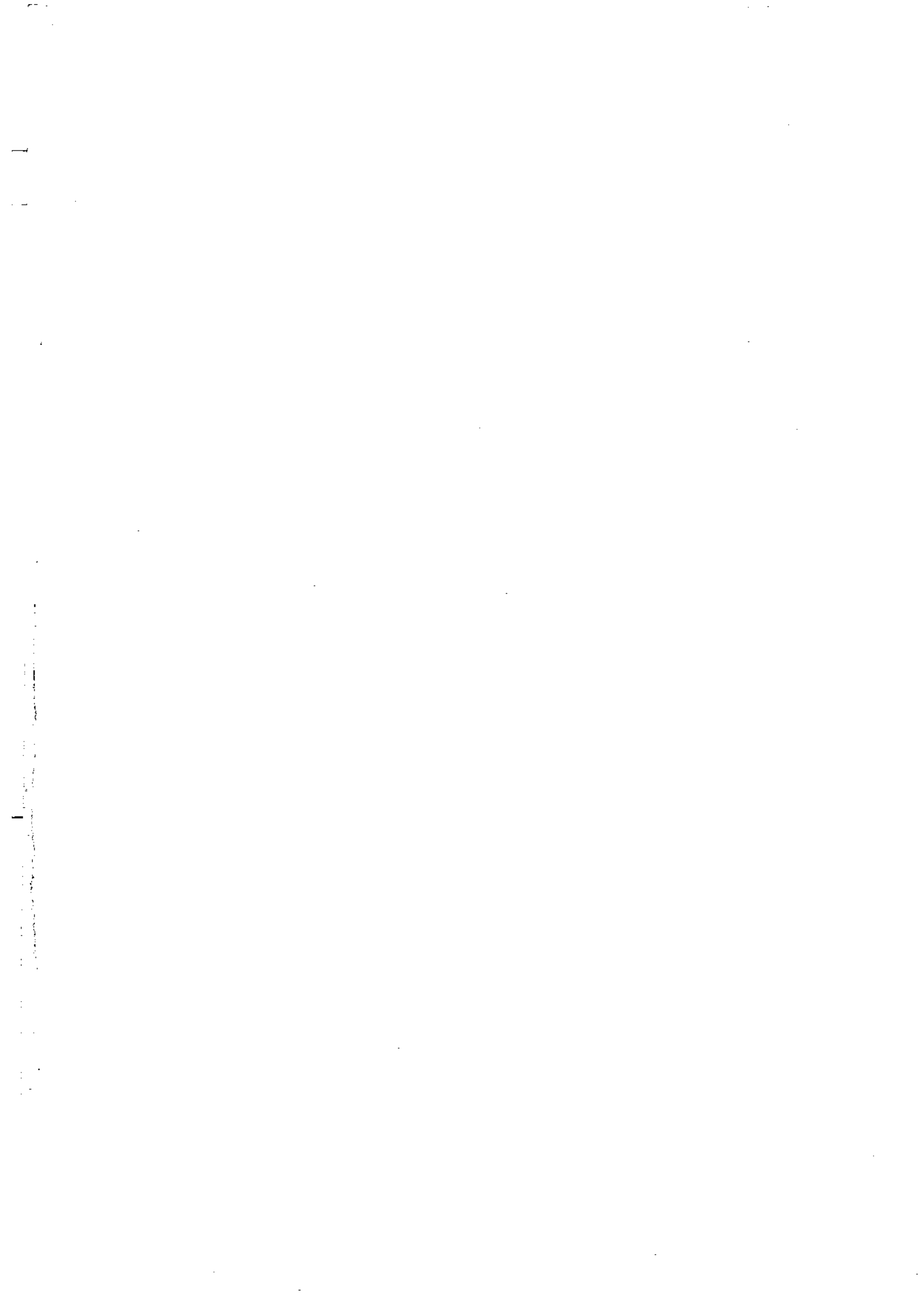
ولم يقتصر الأمر على المغرب الأقصى الذي بنى فيه موسى بن نصير عدداً من المساجد من أبرزها مسجد أغمات بمراكش، بل تعداه إلى المغرب الأوسط حيث بنى في تلمسان مسجداً سُمّي باسمه ليقوم بتأدية الرسالة المنوطة به في تعليم أصول الدين وتحفيظ القرآن لأهل البلاد». (اهـ).

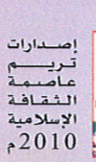
وقال ابن كثير: «افتتح موسى بن نصير بلاد المغرب وله به المقامات المشهورة وأسلم أهل المغرب على يديه وبث فيهم الدين والقرآن». (اهـ) فاكتمل في عهده رسوخ العروبة والإسلام في كل بلاد المغرب.

والله الموفق

محمد حسين الفرح
صنعاء/ مارس ٢٠٠٤م

فهرس المحتويات




إصدارات
تريم
عاصمة
الثقافة
الإسلامية
2010م

